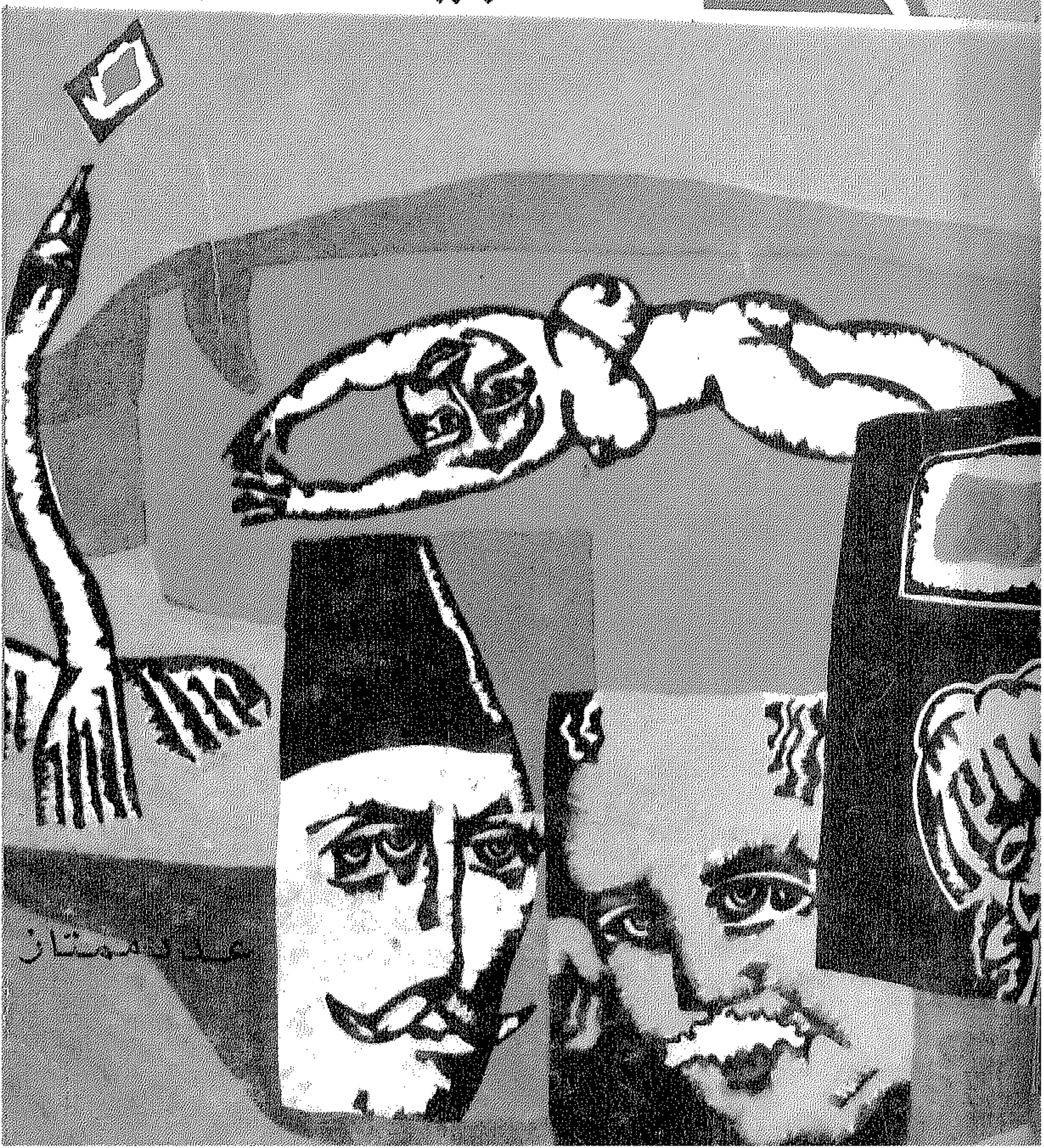


د. جمال مرسی بدر

مختارات أدبية وتاريخية



عبدالمعطي



تصديق اول كل شهر

رئيس التحرير: انيس منصور



دار المعارف



دكتور جمال مرسى بسدر

مختارات أدبية وتاريخية

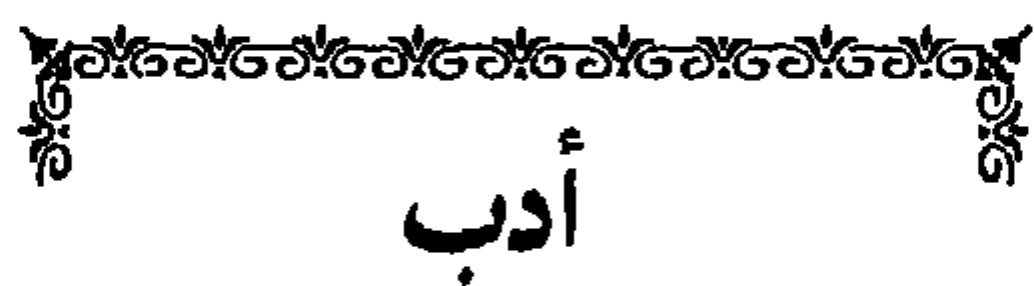
اقرأ ٤٣٠

دار المعارف

(إقرأ ٤٣٠)

ديسمبر ١٩٧٧

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .



أدب

خواطر مسافر

أخي العزيز . . .

تحية الطاعن المشوق إلى المقيم السالى ، وبعد . . .

أكتب إليك من « لوزان » التى أقضى فيها النهار فى بعض الأيام ،
وتقع على مسيرة نصف ساعة بالقطار من مكان إقامتى فى الجبل ، وهى
- كما قد تعلم - من كبريات مدن سويسرا ، ولها الشاطئ المشهور على
بحيرة « ليمان » المسمى « أوشى » وأنا الآن أكتب إليك من هناك فى أحد
المقاهى المنتشرة على ضفاف البحيرة وأمامى الماء والخضرة ، ولو كان
الثالث الذى خلده شاعرنا مكتملاً لما وجدتني أكتب إليك ولكننى أريد
ترجية الفراغ ، كما أريد أن أضع بعض مشاعرى فى هذه الرحلة على
الورق حتى لا تتبخر جميعاً .

منذ أيام مضيت إلى نزهة فى غابة تقع على مقربة من « فيفيه » وقضيت
ساعتين أتمجول خلال تلك الغابة التى هى مظهر من مظاهر الطبيعة لا نجده
فى بلادنا . والواقع أن الغابة تكاد تكون مخلوقاً له حسٌّ وشعور ، ووجودك
فيها يجعلك تتشرب فى أعماق إحساسك السكون الغريب الذى يسود
الطبيعة : سكون فى الطبيعة يبعث سكوناً فى النفس تنسى معها نسبىات
الحياة وتقرب - بقدر ما فى روحك من استعداد - من المطلق الكلى ،
وتتصاغر فى نفسك فى تلك السكونية الروحية جميع المعلومات الدنيوية ،

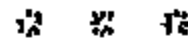
وترتفع بمشاعرك نحو العلة الكبرى ، شعور يشبه ما يحكيه الصوفية عن ساعات تجليهم . وتمشي في طرقات الغابة الملتوية - وبعضها قلما تطؤه قدم - تحوطك أشجارها الباسقة التي تزين أغصانها الأفقية أوراق زمردية تتخللها أحياناً أشعة الشمس فتكسبها إشعاعاً أخضر عجبياً تحب أن تملأ عينيك منه فلا تمتلئان ، لأن العين لا تمتلئ إلا إذا ملئت ، وهذه الخضرة المشعة الزاهية لا يمكن أن يملها الإنسان . وتنعطف في منحى يصادفك وبعد خطوات تختفي أشعة الشمس وتجذك في ظل كثيف يزيد شعورك بالسكون المطلق الذى يسود الغابة . وتمشى ثم تمشى لاتحس كللاً ولا سآمة ، وموطئ قدميك ليس بالطين ولا بالتراب ، بل بساط ممتد من أوراق الشجر المتساقط بعضها فوق بعض ، تغوص فيه قدماك غوصاً رقيقاً كأنما تمشى على بعض البسط العجمية الثمينة .

* * *

وأمس اصطحنى صديق من أهل هذه البلاد في سيارته إلى قمة عالية من قمم سويسرة الشهيرة اسمها « ساز - فيه » تقع على بعد ساعتين بالسيارة من حيث أقيم والطريق إليها يقطع نصفه وادى نهر الرون الممتد في انبساط بين الجبال التي تحوطه ويقع النصف الآخر من الطريق في الجبال والمرتفعات وهو طريق صعب ولكنه جميل (قليلة في هذه الدنيا الأشياء التي تجمع بين براعة الجمال وسهولة المتناول !) وعند انتهاء الطريق تصعد إلى تلك القمة (٢٩٠٠ متر فوق سطح البحر) بالعربة المعلقة التي يراد إحداث مثلها بين القاهرة والمقطم ، وهناك تمتد أمامك الثلوج حيثما أدركت بصرك ، وتشعر حقيقة بالبرد في إبان الصيف برغم اللباس الثقيل . وترى نهرين من أنهار

الجليد الضخمة التي لا تذوب في صيف ولا في شتاء وإنما ينساب الماء - في مثل وقتنا هذا من السنة - من نهايتها في مجارٍ دقيقة يتجمع بعضها إلى بعض بعد قليل ثم تتجمع مرة أخرى في هبوطها إلى السفح وكلما تجمعت كبرت وازداد اتساعها حتى تصل إلى الوادى نهراً صغيراً يجري في سرعة ، وترفده في جريه الروافد فلا يلبث أن يغدو بعد قليل نهراً كبيراً يحيى الأرض وينفع الناس . وقد سرّني حقاً أنى شاهدت بعيني كيف تنبع الأنهار فكل أنهار الدنيا - أو معظمها - تنبع هكذا من أعالي الجبال ، والنيل العظيم نفسه تقع منابعه الأولى فيما وراء البحيرات الكبرى في القمم الثلجية لجبال إفريقية الوسطى التي تنساب جداولها الذائبة حتى تصب في البحيرات ثم يخرج منها النيل كما نعرفه حاملاً معه مياه الأمطار الاستوائية بجانب المياه الناتجة من ذوبان الثلوج . ولقد مشيت في تلك القمة الشاهقة على الثلج الذى تغوص فيه القدم كما مشيت على نهر الجليد الصلب الشديد ، ووجدك في ذلك المكان يبعث في نفسك شعوراً لا يشبه شعورك بين أحضان الغابة ، ففي ذلك الارتفاع الشاهق وأمام تلك الضخامة وذلك الاتساع ، يسبق إلى النفس الشعور بضالة الإنسان وتفاوته ، وبقوة الطبيعة وجبروتها ، ويوحى ذلك إلى نفسك شيئاً كأنه القلق : شعور لعله قريب من شعور المنفرد في الصحراء .

وكم كنت أود أن تكون معي في هذه النزهة - وإن كنت لا أجد بالطبع ما أشكوه من رفيق فيها - وذلك لأن المشاركة الوجدانية مع صاحب قديم وأخ عزيز هي غير مشاركتك مشاعرك وانطباعاتك مع مثل ذلك الرفيق كائناً من كان .



منذ يومين قضيت سحابة النهار في جنيف وهي مدينة عمل وهو تكاد
- لكثرة ما تحتويه من الأجناس والملل - أن تكون فقدت طابع المدن
السويسرية الأصيلة وأصبحت مدينة دولية تتلاطم فيها المصالح والأهواء .
وأنا كلما هبطت إلى جنيف لا أستطيع أن أنزع من فكري أنها مدينة
الظلم ، أو هي « قرية ظالمة » كما نعت أستاذنا محمد كامل حسين مدينة
القدس على زمن المسيح .

وللظلم الذي همت به أورشليم - فارتكبته بالنية - منذ عشرين قرناً
قصة مشهورة ، أما الظلم الذي ارتكبته جنيف بالفعل فأمره يكاد أن يكون
مغموراً وهو يرجع إلى زمن « كالفن » في القرن السادس عشر حين أحرق
« ميشيل سرفيه » حياً بعد عذاب طويل لا شيء إلا لأن له في الذات
الإلهية رأياً يخالف رأى الكنيسة ، ولذا فإن « سرفيه » في نظري لم يحتل
مكانه الحقيقي به ، فهو شهيد عقيدته ، وفي حياته وموته أكثر من عبرة ،
وموضوعه موضوع طريف لم يكتب فيه أحد بالعربية فيما أعلم ، ومراجعته في
اللغات الأوروبية نفسها ليست كثيرة ولا هي قريبة المثال ، ولعل مستطيع
أن أكتبه في يوم من الأيام ، فهو موضوع شيق فضلاً عن أهميته في تاريخ
العقائد والأديان ^(١) .

غادرت جنيف بعد الظهر بالباخرة التي تربط بين المدن الواقعة على
شاطئ بحيرة « لي مان » سواء منها التي تقع في سويسرة والتي تقع في فرنسا ،
ولئن كانت لشوقي قصيدة عنوانها « البسفور كأنك تراه » فإنك تستطيع

(١) انظر الفصل المعنون « من شهداء العقيدة : ميشيل سرفيه » في هذا الكتاب .

أن تسمى خطاي هذا « بحيرة ليمان كأنك تراها » ، ليس رأى العين بقدر ما هو رأى الإحساس والشعور ، قانى أريد أن أنقل إليك صورة ليست من عمل آلة التصوير ولكنها من قبيل لوحات المدرسة الانطباعية فى الفن التى تنقل إليك انفعال الفنان بالمنظر أكثر من نقل المنظر فى ذاته إليك . أبهرت الباخرة من جنيف مارة بجوار نافورة الماء الشهيرة - التى لدينا مثلها على النيل عند الجزيرة - ويصل ارتفاع رشاش الماء فيها إلى ١٣٠ متراً وكانت أشعة الشمس تحترقه فتتكسر خلال قطرات الماء المتساقطة إلى ألوان قوس قزح تتوالى من أعلى النافورة إلى أسفلها فى جمال رائع يزيد منظر المدينة والتلال الخضراء التى تحوطها بهاء وروعة ، وفى الأفق عبر تلك التلال الزاهية الجبل الأبيض (مون بلان) الضخم بثلوجه الدائمة يكلل التلال كأنه تاج من الفضة على مفرق هذا المنظر البديع .

وتمضى الباخرة تمخر عباب الماء الأزرق الصافى فى سرعة لم أكن أعهد لها فى سفن البحيرات ذات الدواليب الجانبية من الطراز القديم . وتتوجه إلى مقدم السفينة لتطل على الماء وهو ينشق أمامها فى خط منتظم لا ينقطع ، مكون من عدد لا ينحصر من الموجات الصغيرة والزبد العائم لا تكاد تنشأ موجة أو فقاعة منها حتى تنقضى ، ولكن تتابعها وتواليها بصور لك خطأ متصلاً مستمراً .

ما أشبه هذه بحياة البشر على الأرض ، فالحياة الإنسانية فى ذاتها خط متصل ، ولكننا نحن أفراد البشر لا نعدو أن نكون فقاعات أو موجات ، قيمتنا ليست فى أنفسنا بقدر ما هى فى مساهمتنا فى خلق ذلك الاتصال والاستمرار الذى تتسم به الحياة . ونخط الحياة البشرية هو الذى يحمل

الأمانة التي ينوء بها البشر» إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها ، وحملها الإنسان » فالفرد الواحد منا كائناً من كان ليس بمستطيع تأدية تلك الأمانة التي تحملها البشرية جمعاء وإنما حملتها البشرية دون سائر مخلوقات الله لأن الإنسان دون غيره يتمكن من الربط بين ظواهر الكون بالعقل ، ويستطيع أن يميز الخير من الشر بالضمير ، وبهذين الجناحين من عقل وضمير يستطيع الإنسان أن يخلق مرتفعاً عن الطين الذي قدر عليه أن يخلق منه متجهاً إلى النور الذي يراه له أن يصير إليه ، وبقدر ما يبلغ الإنسان في تحليقه ذاك بقدر ما يحمل رسالة الحياة ويؤدي أمانة الله .

وبينا أنظر إلى انحسار الماء يميناً وشمالاً أمام السفينة ذكرت قول طريقة يصف سفينة مثلها قبل خمسة عشر قرناً من الزمان :

عدولية أو من سفين ابن يامن يجور بها الملاح طوراً ويهتدى
يشق حباب الماء حيزومها بها كما قسم الترب المفايل باليد
وهنا عرتني رعدة لا أدرى أهى من البرد الذي يحمله نسيم البحيرة
والباخرة تسير سيرها الحثيث أم هي من الطرب لهذا الشعر الذي لا يزال
منذ ألف وخمسمائة عام - أو يزيد - يثير إعجاب كل سامع أو قارئ
يستشعر جمال الكلمة ؟ إنه روعة هذا الفن (الشعر) وخلود هذه اللغة
(العربية) .

وقصيدة طريقة هذه هي التي يقول منها :

ولولا ثلاث هن من عيشة الفتى وجدك لم أحفل متى قام عودى
فمنهن سبق العاذلات بشربة كميت متى ما تعل بالماء تزبد

وكرى إذا نادى المضاف محنبا كسيد الغضا - نهته - المتورد
وتقصير يوم الدجن والدجن معجب بيهنكة تحت الخباء المعمد
يقول : لولا ثلاثة أشياء لم يهمه أيعيش أم يقوم عنه من يعودونه
في مرضه يائسين ، هذه الثلاثة هي شرب الخمر ونجدة المظلوم وقضاء أيام
الغيم في خيمة ذات عمد مع حسناء ناعمة .

وأنا أترك لطرفة أولى الثلاثة مكثفياً لنفسي بالاثنتين !

لقد اعتدت أن أصطحب معي في مثل هذه الرحلة مجموعة المعلقات
أوديوان أحد شعرائنا الفحول كالمتنبى أو أبى تمام ولكنى في هذه المرة
أعجلتنى الظروف عن ذلك ، فليس معي في هذه الرحلة من الشعر إلا
بقية مما تعيه الذاكرة وثمالة مما تجيش به النفس ولم يعد لى - وأسفاه - من
هذا وذاك إلا القليل ، وذلك مصداق قولى الذى لعلك تذكره :

راح الصبا ومضى عهد الشباب بما كانت تحركه العشرون من وتر
قيثارة الروح قد أمست بلا نغم وهل يهز شعور كتلة الصخر
قد استعضنا عن الإحساس منطلقا بالعقل معتقلا في قبضة الفكر
إلا بقيسة أشواق مسهدة كما نعلل بعد العين بالأثر
وبضعة من تهاويل الصبا نصلت ألوانها وصبايات من الذكر
ومن الشعر القديم الذى يتردد على خاطرى هذه الأيام بيت الأعشى
الكبير :

إذا كان « هادى » الفتى فى البلا د صدر ' القناة أطاع الأميرا
ولا أدري لماذا يلح على هذا البيت ، ولعلها الموسيقى الداخلية التى
يحملها فضلاً عن موسيقى الوزن والقافية ، وذلك إذ تتكرر فى هذا البيت

نغمة معينة كما في « هادى » - و « بلاد » و « قناة » وتكرار هذه النغمة على فترات متساوية يُخلق موسيقى داخلية تضيف جمالاً إلى جمال الوزن والروى .

وتصل الباخرة إلى « أفيان » البلدة الفرنسية المشهورة بمياهها المعدنية ، كما هي مشهورة باللهو والقمار وبخاصة في « الكازينو » المعروف الذى يتميز بموقعه وبضخامة قبه عن كل ما حوله من المباني ، وتستأنف الباخرة سيرها بعد أن يغادرها قوم ويصعد إليها آخرون ، وتمضى إلى « لوزان » قاطعة عرض البحيرة في خط مستقيم وقد غابت الشمس ، فصبغت الأفق الغربى حمرة قانية تنعكس على الماء فيبدو المنظر كأنه لوحة ضخمة أراد الفنان أن يجعل طابعها اللون الأحمر القانى . أما الأفق الشرقى فيصعد فيه القمر فى الثلث الأول ويظل الشفق فى الأفق الغربى زمناً طويلاً (فالشفق هنا ليس سريع الزوال كما هو فى بلادنا) ويعارضه القمر فى الأفق الشرقى كل منهما لا يريد أن يريم وكأنك أمام صراع بين ندين لا يكاد النصر فيه أن يستقر لأحدهما .

ومهما يكن من جمال الغروب على ضفاف « ليان » فإنى لا أعدل شيئاً بمنظر الغروب على شاطئ الإسكندرية ، وبخاصة فى يوم سحاب وأنا فى هذا أخالك شوقياً الذى قال فى وصف غروب الشمس وشروقها فى هذه الربوع ذاتها :

إن أشرقت زهراء تسمو للضحى وإذا هوت حمراء فى تلك الذرى
فشروقها منها أتم معانيها وغروبها أجلى وأكمل منظرا
فأنا لا أرى شروق الشمس فى ذرى جبال سويسرا أو غروبها فيها

أتم معاني ولا أجلى منظراً من شروقها أو غروبها في بلدى ورحم الله مطران
الذى وصف غروب الشمس على شاطئ الإسكندرية في رائعة من روائعه
التي أذكر منها الآن بيتين ثانيهما من فرائد الشعر :

والشمس في شفق يسيل نضاره فوق العقيق على ذرى سوداء
مرت خلال غمامتين تحدرتا وتقطرت كالدمعة الحمراء
ولعلك تتساءل : ما الذى أذكرنى الإسكندرية وأنا بعيد عنها هذا
البعد وما الذى جعلنى أحن إليها وحولى هنا كل هذا الجمال ؟ فإذا فعلت
فإني أحيلك إلى قول الشاعر القديم :

وحبب أوطان الرجال إليهم ما رب قضأها الشباب هنالك
إذا ذكروا أوطانهم ذكّرتهم زمان الصبا فيها فحنوا لذلك
ولا يطول تعارض الشفق المتشبه بالأفق الغربى والقمر الطالع في
الأفق الشرقى أكثر مما يسوغ له أن يطول في سنن الكون ونواميس الطبيعة ،
إذ لا بد مما ليس منه بد ، فلا يلبث الشفق أن يختفى ، ويرتفع القمر فيتوسط
السماء وتنعكس صورته على صفحة الماء ، وتحل محل الحمرة التي كانت
تشيع في المنظر زرقة لا تعتم بدورها أن تمحى مكانها لظلام الليل يهبط
على الكون رويداً رويداً وتتلاها فيه أنوار المدن والبلدان على شواطئ البحيرة
متراصة كأنها عقد من اللؤلؤ (تشبيه قديم ولكنى لا أجد أدل منه على أثر
المنظر في النفس) وتصل الباخرة إلى « لوزان » وهي خاتمة مطافها بعد
ساعات ثلاث من إقلاعها من جنيف : زمن قصير ولكنه غنى بالإيعاءات
ملء بالأحاسيس التي تجعل لمطلق الزمن قيمة أخرى لدى الإنسان .

زلة شوقية

لشوقى فى الشعر العربى الحديث مكانة شامخة ، أهله لها تمكنه من اللغة وتصرفه فى البيان ، وكفلها له إسباغه على الشعر برود الأوائى التى كان قد عدا عليها الزمان ، حتى إننا لنشم فى شعره ريح أبى تمام ونلمس رقيق حاشية البحترى وتبهرنا روائع أبى الطيب ، بعد أن كان قد أتى على الشعر العربى حين من الدهر طويل ، هبط فيه من سماء الوحى والإبداع إلى أرض الصناعة اللفظية الرخيصة حتى أخذ بيده من تلك الوهدة البارودى وقفاه شوقى فزاد عليه وأتى بالبديع المعجب وحلّق بأجنحة الوحى فى أجواء الشعر العالية فلقب من أجل ذلك بأمير الشعراء - على إسائة أن تكون للشعر إمارة وأن يكون على الشعراء أمير .

تلك مكانة استقرت فى التاريخ الأدبى ليس لهذه الكلمة ولا لهذا الكاتب مناقشتها ، وبعيد عنهما قصد الغرض منها أو التشكيك فيها . ولشوقى قصائد وطنية ذائعة كان فيها لسان الشعب وبوق الأمة فيما مر بمصر والشرق على عهده من أحداث جسام ، ووطنياته تلك - سواء منها المصرية أو العربية الإسلامية - مبدولة فى ديوانه لكل قارئ ومنها ما يصدق به المغنون وتردده معهم الألسنة فى كل بلد يتكلم العربية .

على أن الناظر الفاحص فى ديوان شوقى لا يلبث أن يستوقفه بين حين وآخر البيت أو الأبيات يجدها غير صادرة من نبع الوطنية الذى يغذى

سائر شعره ولا متسقة مع الشعور الوطني العام في حكمها على الوقائع وتقديرها للأحداث .

ولئن كان غالب ذلك من الهنات التي يصح أن ينتحل لها العذر أو يتأول لها الوجه فإن منها أبياتاً تبرر ما اخترناه لهذه الكلمة . إذ نرى شوقيا فيها يخالف إجماع الشعب في الرأي بل يذهب إلى حد إزجاء المديح للعدو ، وما كان أغناه عن ذلك فالقصيدة موفية لغرضها مؤدية قصد الشاعر منها بغير تلك الأبيات !

نريد بذلك قصيدته اللامية في تهنئة السلطان حسين كامل باعتلائه عرش مصر (الشوقيات ج ١ ص ٢١٤ وما بعدها) وغنى عن الذكر أنه إنما تولى العرش بسلطان الإنجليز وفي أعقاب إعلان الحماية البريطانية على مصر ، وفي هذه القصيدة يقول شوقي عن الإنجليز :

لله أدركه بكم وبأمة كالمسلمين الأولين عقولا
حلفاءونا الأحرار إلا أنهم أرقى الشعوب عواطفاً وميولا
أعلى من الرومان ذكراً في الورى وأعز سلطاناً وأمنع غيلا
لما خلا وجه البلاد لسيفهم ساروا سماحاً في البلاد عدولا
وأتوا بكابرها وشيخ ملوكها ملكاً عليها صالحاً مأمولا
فشوقى هنا يرى الإنجليز « كالمسلمين الأولين » ويعتبرهم « حلفاءنا الأحرار » ويطريهم بأنهم أعز من الرومان وأعلى ذكراً . ثم يرى من أياديهم البيضاء على مصر أنهم بعد أن ساروا في حكمها سماحاً عدولا أتوا بحسين كامل وولوه عرشها « ملكاً عليها صالحاً مأمولاً » !

هذه نظرة شوقي إلى تولية حسين كامل عرش مصر أما النظرة الوطنية

الصحيحة إلى تلك الواقعة فيعبر عنها مؤرخ الحركة القومية الأستاذ
الرافعي بقوله :

« وغنى عن البيان أن هذا التبليغ (البريطاني للسلطان حسين كامل)
قد قوبل من الشعب بالسخط والألم كما قوبل اعتلاء السلطان حسين
كامل عرش مصر على أساس هذا التبليغ بالدهشة والمرارة إذ رأى الشعب
في تنصيبه سلطاناً على مصر بخطاب موجه إليه من المعتمد البريطاني
أول مظهر للحماية وضياع الاستقلال وأدرك بفطرته السليمة أن السلطان
الذي تعينه إنجلترا لا يمثل سيادة مصر بل يمثل سيادة الدولة الحامية » (١) .

في هذه الحادثة إذن نظم شوقي أبياته المتقدمة ، وهي زلة تجعلنا تراجع
الأستاذ محمود محمد شاكر فيما أبداه من رأى في معرض كلامه عن
وطنيات شوقي وحافظ (٢) إذ قال : « أما شوقي فقد . . . خلا شعره مما يقدح
في وطنية الشاعر ومن طعن على بلاده وأوطان قومه إلا أن تكون فلتة ، ومن
كل ملق لا خير فيه يتملق به الغزاة البريطانيون » .

ولعمري لئن لم تكن الأبيات التي استشهدنا بها ملقاً للبريطانيين فلا
ندري أى شيء تكون ! وما يدخل كذلك في باب الملق للمحتلين ما جاء
في مطلع همزية شوقي في شكسبير .

أعلى الممالك ما كرسية الماء وما دعامته بالحق شماء
يا جيرة « المنش » حلاككم أبوتكم ما لم يطوق به الأبناء آباء

(١) عبد الرحمن الرافعي : « ثورة سنة ١٩١٩ » ج ١ ص ٢٠ .

(٢) مجلة الكاتب عدد أكتوبر ١٩٤٧ ص ١٩٧٣ .

ملك يطاول عز الشمس عزته في الغرب باذخة في الشرق قعساء
 ودولة لا يراها الظن من سعة ولا وراء مداها فيه علباء
 وكان ودهم الصافي ونصرتهم للمسلمين وراعيهم كما شاءوا
 حقاً لقد كان شوقي شاعر القصر ، وكان عليه بهذه المثابة أن ينظم
 الشعر في مناسبات القصر والأسرة المالكة ، وليس من تلك المناسبات ما هو
 أهم من تولية سلطان جديد . لكننا لا نأخذ على شوقي مدحه السلطان
 حسينا ولا تهنئته إياه بالعرش ، وإنما نأخذ عليه تطوعه بمدح الإنجليز
 في غير حاجة إلى ذلك المديح ولا ضرورة تلجئ إليه ، اللهم إلا أن
 يكون قد استقر في ذهن الشاعر أن الصلة بين إعلان الحماية وبين تنصيب
 حسين كامل - وهي صلة لم تخف عن الشعب الذي استقبل السلطان الجديد
 بما لا يحب - من شأنها ألا يتم مدح السلطان إلا بمدح من ولوه !

هذا ويتجلى في أكثر من موضع من شعر شوقي أثر صلته بالقصر إذ
 كان شوقي يعتبر نفسه « شاعر الأمير » ويعتز بمولده « بباب إسماعيل » ،
 فمن أثر تلك الصلة نظرة شوقي الخاصة إلى الحركة العرابية ورجالها وهي
 نظرة تبدو في شعره سلباً أكثر مما تبدو إيجاباً ، فشوقي لم يتناول الحركة
 العرابية في شعره بوجه خاص ولم ينظم في أحد من رجالها شعراً ذا بال ،
 وإن اضطر إلى الإشارة إلى الحركة ورجالها ، فهم في نظره « العصاة » وفشل
 الحركة في تقديره « نصر من الله » .

يقول شوقي في قصيدة « كبار الحوادث في وادي النيل » - وهي
 افتتاحية الجزء الأول من الشوقيات - إذ يصل إلى ذكر عهد توفيق والاحتلال
 الإنجليزي :

وغزير الهدى من الحمد والتو (م) فيق صيغت لذاته الأسماء
 بنت العدل راحتاه وعزت في حملاه العلوم والعلماء
 إن أتاهها فليس فيها يباد أو جناها فذا الورى شركاء
 لا يلم بعضكم على الخطب بعضاً أيها القوم كلكم أبرياء
 ضلة زانها الشقاء لمصر ومن الذنب ما يجيء الشقاء
 وقضى الله للعزير بنصر فأتى نصره وكان القضاء
 ويقول في رثاء رياض باشا مشيراً إلى موقفه من الثورة العرابية (والخطاب
 للمرثي والضمير لمصر) :

قضيت لها الحقوق قتي وكهلاً ويوم كبرت وانحنت القناة
 ويوم النهى للأمراء فيها ويوم الأمرون بها العصاة
 ولئن رثا شوقي رياضاً ومصطفى فهمى وغيرهما فإنه لم يرث من « العصاة »
 أحداً حتى البارودى برغم ما بينهما من جامعة الشعر الذى راد طريق
 نهضته البارودى ومات عنه واضح الصوى بين المعالم . ولم يفز الإمام
 محمد عبده - لصلته بالعرابين - بأكثر من أبيات ثلاثة هي الواردة بالجزء
 الثالث من الشوقيات (ص ٤٥) وهو الجزء الحافل بمراثى كثير من الرجال
 منهم العمالقة ومنهم الأقسام الذين لا يصلون إلى مواطئ أقدام محمد عبده
 ولئن ذكر ذاكر قصائد شوقي المشهورة في مصطفى كامل فينبغى
 أن نذكر إلى جانب ذلك أن ما بين الخديو عباس حلمى وبين مصطفى
 كامل كان عامراً ولهذا لم يجد الشاعر ما يحمله على التكرار لعواطفه الوطنية
 مراعاة لجانب صلته بالقصر إذ كان رب القصر على حسن علاقة بالزعيم
 الوطنى ، وقد حرص شوقي على إبراز هذا المعنى فتراه يقول من قصيدة « شهيد

الحق» (الشوقيات ح ١ ص ٢٧٨) :

وعندك للملوك بنى على منازل في الكرامة لا تسامى
جمعت الناس حول العرش علماً بأن لمصر في العرش اعتصاما
إذا طافوا بيت الملك يوماً سبقتهم إلى الركن استلاما
تضائل شخصك الضاحى وقارا وتخفض رأسك العالى احتشاما
وكان العرش هامة كل قوم وإن كانوا أجل الناس هاما
وعلم الله أن مصطفى كامل لم يكن يضائل شخصه أو يخفض رأسه ،
ولكنه المعنى الذى أراد الشاعر أن يبرزه لينفى ما فى مدح الزعيم الوطنى من
مظنة الخروج عن الولاء لأمره .

على أن المتتبع لشعر شوقى السياسى بعد الحرب العظمى الأولى يلاحظ
تحولاً واضحاً فى اتجاهاته الوطنية ، فشعر شوقى منذ ذلك الحين إلى أن
قضى نحبه يسير فى نسق واحد مع شعور الشعب الوطنى ، وإلى هذه
الفترة ترجع وطنياته المشهورة ، وعلة هذا التحول عاملان :

الأول : أن ولاء شوقى إنما كان فى الدرجة الأولى لإسماعيل ثم لتوفيق
ثم لعباس حلمى ، فلما أطاحت الأحداث بهذا الأخير عن عرش مصر
وطوحت الأحداث نفسها بشوقى إلى المنفى فترت صلته بالقصر فتوراً ملحوظاً
ولم يتصل بعد رجوعه إلى مصر ما كان قد انفصم من تلك الصلة وبذلك
تخلص شوقى من سجن الولاء لشخص « ولى الأمر » واستعاض عنه الولاء
لمصر ولشعبها .

والعامل الثانى : أن الشعور الوطنى كان قد بلغ من القوة والانتشار
حداً بعيداً جعل القصر نفسه لا يجرؤ على المجاهرة بما يجبه ذلك الشعور

فكان القصر والشعب في الظاهر على الأقل - صفاً واحداً بحيث لم يعد ثمة ما يحمل الشاعر على الحيرة بين ولاءين ، ولا على كبت شعوره الوطني تحاشياً لإغضاب القصر وأربابه .

إن هذه الناحية من نواحي شوقي - ناحية التضارب بين عاطفته الوطنية وبين واجبه كشاعر للقصر - لم تحظ إلى الآن بما هي أهل له من التمهات النقد ، وعندى أنها مما يجدر بمؤرخي شوقي ودارسيه - وخاصة في جامعاتنا المصرية - أن يولوه شيئاً من البحث والدراسة حتى يتجلى عن تاريخ شوقي الأدبي كل غموض وإبهام ، وحتى يلقى الضوء ساطعاً على جميع نواحي ذلك الشاعر المخالد .

الرثاء

في شعر حافظ إبراهيم

للرثاء من بين فنون الشعر المختلفة مكان خاص عند حافظ إبراهيم
فلقد أكثر شاعر النيل من المراثي التي انفردت من صفحات ديوانه بجانب
ضحك ، كما امتاز الرثاء عنده بميزة أخرى هي أنه من أكثر الفنون التي
نظم فيها حافظ دلالة على شخصيته وتصويراً لما يتميز به شعر حافظ من
مميزات فنية تدل على الشاعر وتكشف عن منزعه في الفن الشعري . .

ولعل لهذا الطابع الذي اتسم به رثاء حافظ إبراهيم وهذه الأهمية التي
انفرد بها بين أغراضه أصولاً بعيدة في حياة الشاعر . فقد انتاب حافظ
كثير من الشدائد منذ حدثته ، إذ مات أبوه وهو صغير ولم يترك له
ثروة ، وكان حافظ الطفل ثم الصبي بائساً في بيت خاله الذي كفله بعد
وفاة أبيه ، فلما لم يأنس منه اجتهداً في الدرس ولا اشتغلاً بعمل نافع كان
لا يتردد في أن يشعره بعدم رضاه عن تلك الحال فكان موقف حافظ في
بيت خاله موقفاً أليماً يذكره دائماً بيئته وفقره ، ويصور له دائماً بؤسه
وشقاءه ، فتولدت في نفس حافظ منذ الصبا الباكر عاطفة حزينة لم يخفها
ما لقي من دهره في قابل الأيام ، فلقد أراد شاعرنا من بعد أن يشتغل بالحماماة
في طنطا - وقت أن لم يكن الاشتغال بها يتطلب مؤهلاً علمياً خاصاً - ففشل
في أن يكون محامياً ، ثم دخل المدرسة الحربية وتخرج فيها ضابطاً ولكن

سرعان ما أصيب في منصبه ، فأحيل إلى الاستبداع ثم إلى المعاش وهو في مقتبل عمره . فلا غرو أن كان لكل هذا أثره في تلك النفس الشاعرة ، وذلك الحس المرهف . وما أثر تلك الصدمات المتوالية إلا الحزن الذي يرسب في أعماق النفس وإلا سوء الظن بالزمان والإشفاق على نفسه وعلى الناس من فوارع الحدثان .

وإلى هذا كله كان حافظ شديد الخوف من الموت - كما يقول الأستاذ أحمد أمين في مقدمته لديوانه - ودعاه خوفه من الموت إلى أن ينعي نفسه ، ويتألم كثيراً لشيخوخته ، ويتوهم المرض في كل عضو من أعضائه ، فإذا مات قرين له أو صديق أو نديم راعه ذلك لأن موته إنذار بموت حافظ . فكانت هذه المشاعر كلها تتمثل في رثاء صادق يقطع الأحشاء ويذيب لفائف القلب ولولا هذه العوامل مجتمعة لما بلغ حافظ في الرثاء ما بلغ .

ولا ينال من هذا التأصيل لأسباب الإجابة في الرثاء عند حافظ ما كان معروفاً عن شاعر النيل من ميل إلى الفكاهة في مجالسه ، واشتهار بالدعابة بين إخوانه ، فإن طبيعة حافظ الباطنة كانت - على ما يبدو - مخالفة تمام المخالفة لمظهره الخارجي ، فكان مظهره ضحوكاً مرحاً ومخبره حزيناً كئيباً ، وهذا ما يعلل ضعف الفكاهة في شعره وقوتها في مجلسه ، وهذا ما يعلل أيضاً أن نصف شعره رثاء كما قال هو نفسه :

إني مللت وقوفى كل آونة أبكى وأنظم أحزاناً بأحزان
إذا تصفحت ديوانى لتقرأنى وجدت شعر المراثى نصف ديوانى
وهكذا كانت دعابة حافظ ومرحه الظاهران ستار يخفى وراءه حزنه

واكتسابه المنطبعين في نفسه انطباعاً جعله يجيد في شعره الاجتماعي والسياسي في معاني التشاؤم والترهيب والتفريع أكثر مما أجاد في معاني التفاؤل والترغيب والتشجيع ، لأن الضرب الأول أنسب لحزنه وأقرب إلى نفسه ، ولذا كان خير شعر حافظ ما اتصل بعاطفته الحزينة ، وأكثر فنون الشعر اتصالاً بالحزن - الرثاء .

وإذا نظرنا في رثاء حافظ من الوجهة الفنية وجدناه يتسم بطابع ذاتي فردي ظاهر ، فحافظ في مراثيه إنسان حزين بالك يذكر المراثي في علاقته الشخصية به ، ثم يمس النواحي العامة من حياته مساً لا يخرج به من البكاء عليه إلى تناول المسائل الاجتماعية أو السياسية لذاتها ، فالرثاء عند حافظ غرض مستقل من أغراض الشعر وليس سلماً لغيره من الأغراض وهو بهذه المثابة رثاء شخصي عاطفي يرسل فيه الشاعر نفسه الحزينة على سجيتها ، ويبكي الميت بدمع الشعر ، كما قد يبكي غيره بدمع العينين . اسمعه يذكر صفيه محمداً البابلي ومحمداً المويلحي فيقول :

قد أثار المحمدان دفيناً في فؤادي وقد أطارا صوابي
خلفائي بين الرفاق وحيداً مستكيناً وأمعنا في الغيساب
فهذا رثاء بالغ البساطة ساذج في صدقه لم يذهب قائله مذهب الإجادة
في صنعة الشعر أو التفنن في أغراضه بل هو رثاء صادر من نفس ملتاعة
وفؤاد حزين كل غرضه أن يعبر عن ذلك الحزن وأن يبكي الأحياء
الراجلين ، وقد يخلط بكاءه عليهم بكائه على نفسه :

وقف الخمسة قبلي فمضوا هكذا قبلي وأنى عن قريب
وردوا الحوض تباعاً فقضوا باتفاق في مناياهم عجيب

أنا مذ بانوا وولى عهدهم حاضر اللسوعة موصول النحيب
ومراثى حافظ ليست مجرد مديح يزجيه إلى الموتى ، بل هى شىء غير
ذلك وفوق ذلك . وكثير من مراثى الشعراء إذا حذفت من إحداها البيتين
أو الثلاثة وجردتها من الفعل الماضى ثم نقلتها إلى باب المديح لجاز أن تنسب
إلى ذلك الباب ، وليست كذلك مراثى حافظ إبراهيم . هذا ويتجلى فى
مراثى حافظ من اللفظات الشخصية والنغمات العاطفية مالا يتجلى بهذا القدر
فى مراثى غيره من الشعراء . فحافظ هو القائل :

درج الأحبة بعدما	تركوا الأسى والحزن لى
لم يحل لى عن بعدهم	عيش ولم أتعلل
لى كل يوم وقفه	حرى على مترحل
أبكى بكاء الشاكلات	وأصطفى ما أصطفى

ثم هو يقول :

أفى كل يوم يبضع الحزن بضعة	من القلب أنى قد فقدت جنائى
كفانى ما لقيت من لوعة الأسى	وما نابى يوم « الإمام » كفانى
تفرق أحبابى وأهلى وأخرت	يد الله يومى فانتظرت أوانى

هذا المذهب الشخصى العاطفى فى الرثاء يميز مراثى حافظ إبراهيم عن
مراثى معاصريه من الشعراء وإذا ذكر معاصرو حافظ فلا بد أن يذكر
شوقى ، وفى مقارنة مراثى الشاعرين ما يلقى على السمة الخاصة التى تميز الرثاء
عند حافظ ضوء ساطع . فشوقى فى رثائه ينحو نحواً عقلياً فلسفياً يختلف كل
الاختلاف عن مذهب حافظ الشخصى العاطفى ، فمراثى شوقى ليست
بكاء خالصاً على من يرثيهم وإنما الرثاء عنده منبر يعتليه ليصور منه الحياة

الدنيا وما فيها من عبر ، والموت وما ينطوى عليه من فلسفة ، وليضرب بعد ذلك بسهم في أغراض من الشعر ليست بينها وبين الرثاء إلا وشيعة ضعيفة يتصيد بها شوق من موقف في حياة المرثى ، أو من حادثة عامة عاصرت وفاته أو غير ذلك ، بل قد يندفع شوق في أغراض من الشعر غير الرثاء بلا أدنى رابطة أو اتصال ، إذ جل غرضه أن يلقى الحكمة عالية ، وبأن يرسل المثل سائراً ، ثم إنك لا تجد في مرثي شوقي ذلك الحزن اللاذع وذلك الجزع على المرثى وعلى نفس الشاعر كما تجده عند حافظ ، فالموت لم يكن يتصور لشوقي كما كان يتصور لحافظ ، وشوقي في حياته المرفهة ونعمته الجزيلة لم يلق من الأيام ما لقي حافظ من شظف وبؤس ، ولذا كان شوقي لا يستشعر الحزن في عمق ، وكان يستريد من حياته الطيبة التي كان يحيها فيكاد ينسى أنه لاحق في أثر السابقين ممن كان يرثيهم ، ولذا لا تجد عنده ما تجد عند حافظ من الالتفاتات الشخصية والجزع الظاهر من الموت ، بل لعلك تجد العكس . إلا يستشف في رثائه فرحاً خفياً بالسلامة ، وسروراً بأنه ما زال متمتعاً بأطاييب الحياة أليس هو القائل في حافظ :

قد كنت أرجو أن تقول رثائي يا منصف الموتى من الأحياء
لكن سبقت وكل طول سلامة قدر وكل منية بقضاء

ألا تكاد تستبين في هذا البيت الأخير سروراً بطول السلامة التي كتبها

له القدر واغتراباً بأن قضاء المنية قد اختار أن يرجئه ويعجل بغيره ؟ ؟

ومهما يكن من أمر فبين حافظ وشوقي في الرثاء بون بعيد : الأول نائح

باك ، والثاني ناصح حكيم ، الأول يطلق عاطفته الحزينة على هواها ،

والثاني يصرف القول في أغراض من الشعر بعقله الواعي وشاعريته المستوعبة .

وكلما قرأت لشوقي ثم لحافظ في الرثاء اتجه في الفكر إلى المقارنة بين مراثي المتنبي ومراثي أبي تمام ، فالمتنبي في رثائه فيلسوف حكيم لا يستسلم للحزن بل لعله لا يستشعره في صدق وقوة . ورثاؤه من هذه الوجهة عظمى التزعة كثره شوقي ، أما أبو تمام فله في الرثاء العاطفي الصادق روائع تكاد تستزل الدموع من المآقي على بعد شقة الزمن بيننا وبين من رثاهم من الرجال ، وحسبك هزيتته في خالد بن يزيد بن يزيد التي مطلعها :

نعمائي إلى كل حي نعمائي فتي العرب اختط ربع الغناء
أو حسبك مراثيه المتعددة في بني حميد الطوسي وأشهرها الرائية :
كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر فليس لعين لم يفض مأوها عذر
والأخرى التي على العين :

أي القلوب عليكم ليس ينصدع وأي نوم عليكم ليس يمتنع
ولا ننسى داليتته في رثاء عمير بن الوليد :

أعيدى النوح معولة أعيدى وزيدى من بكائك ثم زيدى
وكل من يطالع هذه المراثي الخالدة لأبي تمام تجيش نفسه بانفعالات من الحزن والأسى شبيهة بما تبعته في النفس مراثي حافظ .

فرثاء حافظ إبراهيم من هذا النبع العاطفي يستمد ، وإلى هذا المذهب الذاتي ينتمي . وإذا كان لا بد من تشبيه شاعر بشاعر فشوقي في الرثاء أشبه بالمتنبي ، وحافظ إبراهيم أشبه بأبي تمام .

دور البارودى فى الثورة العرابية

فى الفترة الدقيقة من تاريخ مصريين نهاية عهد إسماعيل وبداية عهد
توفيق كانت تعمل فى البلاد مشاعر وطنية جياشة ، ترتسم من خلال
تفصيلاتها صورة واضحة ذات اتجاهين :

١ - اتجاه إلى تثبيت دعائم الحكم الدستورى .

٢ - واتجاه آخر إلى التخلص من رقابة الدول الأجنبية وسيطرتها على
جهاز الحكم المصرى وبخاصة إنجلترا وفرنسا .

وكان هذان الاتجاهان مترابطين ترابطاً وثيقاً ، لأن إطلاق يد الخديوى
فى الحكم بغير التزام القيود الدستورية هو الذى أدى إلى الإفراط فى
الاستدانة ، مما جعل للدولتين ذريعة يتدخلان بها فى شئون البلاد ، ويفرضان
رقابتهما عليها . وكنتيجة للأحداث التى أطاحت بإسماعيل من العرش كان
الشعب بجميع طوائفه من مدنيين وعسكريين مطبقاً على مطلبه هذين وهما :
الحكم الدستورى فى الداخل ، والتحرر من السيطرة الآتية من الخارج .
وكان البارودى فى هذه الفترة الحرجة من كبار ضباط الجيش ،
ثم من كبار موظفى الحكومة المدنيين . وشغل فى أول عهد توفيق منصب
وزير الأوقاف ، ولم يكن للبارودى - بصرف النظر عن مناصبه الرسمية -
مناصب من أن يسهم فى الحركة الوطنية التى كانت عواملها تتجمع فى
الأفق . فإن من كان مثله ذا روح عالية ونفس وثابة لا يسعه أن يقف

من قضايا الوطن موقفاً سلبياً ، ولا يجوز عليه أن ينضم إلى معسكر غير معسكر الوطنيين طلاب الإصلاح ودعاة الحرية .

ولا يخلو شعر البارودى من آثار تفكيره فى تلك الفترة . إذ نجد فى شعره تعبيراً عن ثورته على الأوضاع الفاسدة فى الداخل ، وسخطه على الأحوال السيئة فى الخارج ، ودعوته إلى الخلاص من الفساد الداخلى والسيطرة الخارجية ولو بالقوة عن طريق الثورة التى تطيح بالمفسدين وترد كيد الظالمين .

ويقول البارودى :

وأقتل داءً رؤية العين ظالمًا يسىء ويتلى فى المحافل حمده
عفاء على الدنيا إذا المرء لم يعش بها بطلاً يحمى الحقيقة شده
من العار أن يرضى الفتى بمذلة وفى السيف ما يكفى لأمر يعده
ولابد من يوم تلاعب بالقنا أسود الوغى فيه وتمزج جرده
قلوب الرجال المستبدة أكله وفيض الدماء المستهلة ورده
فإما حياة مثلما تشهى العلى وإما ردى يشقى من الداء وفده
أبيات نشم فيها ريح المتنبي فى فخره وتشدقه بالطعن والضرب ، ولكنها شىء على أية حال عما كان يجيش به فؤاد شاعرنا من عواطف إزاء حالة وطنه المؤسفة ، وعن رأيه فيما ينبغى للمخلصين من أبناء الوطن أن يصطنعوه لتخليصه مما هو فيه .

ويقول البارودى من قصيدة أخرى :

تنكرت مصر بعد الحرب واضطربت

قواعد الملك حتى ريع طائره

فأهمل الأرض جرّ الظلم حارثها
 واسترجع المال خوف العدم تاجره
 ويلمه سكنا لولا الدفين به
 من المآثر ما كنا نجباوره
 يا نفس لا تجزعى فالخير منتظر
 وصاحب الصبر لا تبلى مرآته
 لعلى بلجة نور يستضاء بها
 بعد الظلام الذى عمت دياجره
 إني أرى أنفساً ضاقت بما حملت
 وسوف يشهر خد السيف شاهره
 شهران أو بعض شهر إن هى احتدمت
 وفى الجديدين ما تغنى فواقره
 فإن أصبت فعن رأى ملكت به
 علم الغيوب ورأى المرء ناظره
 ألا تراه فى هذه الأبيات ينادى بالثورة على رؤوس الأشهاد ، بل
 يتنبأ بموعدها بعد « شهرين أو بعض شهر » . ولعلها لم تكن مجرد نبوءة
 وإنما كان علماً بناه على صلته بالثائرين ، واشتراكه معهم فيما يدبرون وما
 يرسمون .

ثم نسمع شاعرنا يقول :

قامت به من رجال سوء طائفة

أدعى على النفس من بؤس على ثكل

من كل وغد يكاد الدست يدفعه
 بغضاً ويلفظه الديوان من ملل
 ذلت بهم مصر بعد العز واضطربت
 قواعد الملك حتى ظل في خلل
 وأصبحت دولة الفسطاط خاضعة
 بعد الإباء وكانت زهرة السدول
 وأصبح الناس في عمياء مظلمة
 لم يخطط فيها امرؤ إلا على زلل
 فبادروا الأمر قبل الفوت وانترعوا
 شكاية الريث فالدنيا مع العجل
 وقلدوا أمركم شهماً أخا ثقة
 يكون ردّاً لكم في الحادث الجلل
 ماضى البصيرة غلاب إذا اشتبهت
 مسالك الرأي صاد الباز بالحجل
 إن قال بر ، وإن ناداه منتصر
 لبي وإن همّ لم يرجع بلا نفل
 وطالبوا بحقوق أصبحت غرضاً
 لكل منترع شهماً ومختل
 ولا تخافوا نكالاً فيه منشأكم
 فالحوت في اليم لا يخشى من البلل
 فهذه دعوة صريحة إلى الثورة بلا نظر إلى العواقب ، ونداء « بشهم

أنهى ثقة « يقلده المصريون أمرهم ولا ندرى من كان البارودى يعنى بذلك
أكان يعنى أحمد عرابى أم كان يعنى نفسه ، ولكلا الاحتمالين أساس
ما ينقله لنا التاريخ .

يحدثنا عرابى فى مذكراته فيقول :

« فى أوائل شهر يناير سنة ١٨٨١ خلوت بالمغفور له محمود باشا سامى
ناظر الجهادية ، فأطنب فى الشاء على لقيامى بنشر راية الحرية فى مصر
وملحقاتها من بعد مضى خمسة آلاف سنة على المصريين وهم يرسفون فى
قيود الاستبداد والاستعباد ، ثم أقسم أنه مستعد لأن يضحي بحياته ويجود
بآخر نقطة من دمه فى تنفيذ رغبتى ، ويجرد حسامه وينادى باسمى خديوياً
لمصر إذا رغبت فى ذلك ، فقلت له : لا يا محمود باشا فإنى لا أريد إلا تحرير
بلادى ، وليس لى مطمع أصلاً فى الاستئثار بالمنافع الشخصية .
ومن جهة أخرى فإن من المؤرخين من ينسب إلى البارودى الطمع فى
عرش مصر ، ويرجعون مساهمته الكبيرة فى الثورة العرابية إلى طموحه
الشخصى إلى السلطة والجاه ، ولا ندرى مقدار نصيب هذا القول من
الصحة ، على أن البارودى كان كبير النفس ، بعيد الهممة ، وليس من
المستبعد أن تكون قد ساورته آمال من هذا النوع ، بخاصة وقد كان عصره
عصر قلاقل واضطراب ، وفى أمثال تلك الظروف تشرئب أعناق ذوى
الطموح إلى الغايات البعيدة .

ومهما يكن من أمر فقد أسهم البارودى فى الثورة العرابية بسهم
كبير ، وكان له فيها دور هام لا يعدوه فى الأهمية سوى دور أحمد عرابى
نفسه .

ويكفي ما تقدم من الاستشهاد بشعر البارودى فى هذا المجال ، فإن الدور الذى قام به فى الثورة لم يكن دور شاعر الثورة أو خطيبها أو داعيتها وإنما كان دوره دور « رجل الدولة » بين الثوار ، ورئيس وزارة الثورة حين أقيمت أزمة الأمور فى وقت ما إلى رجال الثورة .

قلنا إن البارودى كان وزير الأوقاف فى أوائل عهد توفيق ، ولا بد أنه كان فى ذلك الوقت على صلة ما بضباط الجيش الأحرار الذين كانت تحركهم الرغبة فى إصلاح الأحوال الداخلية عن طريق الحكم الدستورى النيابى ، كما كانوا سانحين على أوضاع الجيش وامتيازات الضباط الشراكسة فيه ، فما إن وقعت واقعة قصر النيل الشهيرة واضطرت الحكومة إلى استرضاء الضباط الوطنيين بإبعاد وزير الحربية الشركسى عثمان رقى حتى طلب الخديوى من أبطال حادثة قصر النيل الثلاثة (عرابى وعلى فهمى وعبد العال حلمى) ومن كان يظاهروهم من الثوار أن يختاروا وزيراً للحربية يرتضونه فلم يقع اختيارهم إلا على البارودى ، وبذلك أضيفت إليه وزارة الحربية ، وكان له فيها السعى الحميد فى تنظيم أمور الجيش وإحقاق حقوق الضباط المصريين .

ثم كان يوم عابدين المشهود فى سبتمبر سنة ١٨٨١ بزعامة عرابى ، ونتج عنه سقوط وزارة رياض وتشكيل وزارة شريف التى ظل فيها البارودى متولياً وزارة الخارجية ، وبعد قليل من تشكيل الوزارة استدعى عرابى من عزلته فى مركز قيادته فى رأس الوادى Liebin وكيلا لوزارة الحربية .

وشرعت وزارة شريف فى إعداد الدستور والتمهيد لإصلاح نظام الحكم على الأساس النيابى ، ولكن الدولتين الاستعماريّتين كانتا لمصر

بالمرصاد ، إذ لم يرضهما أن يرتفع تحت سماء النيل علم الحرية ، وأن يصبح أمر الحكم فيها بيد أبنائها ، فانهزت الدولتان فرصة إعداد مشروع الدستور ، واعترضتا على حق مجلس النواب في إقرار الميزانية ، وذريعتهما في ذلك هي ديونهما التي كبلتا بأصفادها مصائر البلاد ، فكان أن تقدمت إنجلترا وفرنسا إلى وزارة شريف بالمذكرة المشتركة التي تتضمن الاعتراض على حق النواب في نظر الميزانية وإقرارها كما تحوى تأكيد رغبة الدولتين في تثبيت عرش الخديو ، وهي الحجة التقليدية التي كانت بعد ذلك بقليل سبيلاً لإنجلترا إلى الاحتلال .

ولما زاد ضغط الدولتين على الوجه المتقدم ، كان من رأى شريف إرجاء مادة الدستور الخاصة بالميزانية كسباً للوقت وتحاشياً للأزمة ، على أن أغلبية النواب كانت مصرّة على إقرار حق المجلس في نظر الميزانية ، وكان البارودى يظاهر المجلس في موقفه الوطنى المشرف ، وإن كان بعض المؤرخين يتهمة بأنه كان يظاهر النواب لا لشيء إلا لإخراج شريف حتى تسقط وزارته فيخلفه هو في الرئاسة ، وهي تهمة لا نجد في أحداث تلك الفترة سنداً كافياً لها .

ومهما يكن من أمر فقد استقالت وزارة شريف بعد رفضها المذكرة المشتركة الإنجليزية الفرنسية ، وكانت القوة السياسية في داخل مجلس النواب وفي خارجه بين طبقات الشعب وفي صفوف الجيش هي في يد « الحزب الوطنى » كما كان الوطنيون يسمون أنفسهم أو « العرايين » كما كان يسميهم خصومهم ، فكان لا مناص أمام الخديوى من أن تخلف وزارة شريف وزارة من الوطنيين .

ولما كان البارودى حتى ذلك الوقت هو الوحيد من زعماء الحزب الوطنى الذى سبق له التمرس بالمناصب الوزارية فقد أسندت إليه رئاسة الوزارة . وكانت وزارة البارودى بحق وزارة الثورة ، ففيها ثلاثة من كبار زعمائها هم : عرابى ، والبارودى ، ومحمود فهمى . وكان أهم ما فعلته الوزارة إعلان دستور سنة ١٨٨٢ حاوياً حق مجلس النواب فى إقرار الميزانية عدا استثناءات ضئيلة .

ولكن ما كانت الدولتان الاستعماريتان المتربصتان بمصر وبشعبها لترضيان بقاء هذه الحكومة الوطنية فى الحكم ، فسرعان ما احتشد أسطولاهما أمام الإسكندرية ووجها مذكرة ثانية عرفت فى اصطلاح ذلك العصر باسم « اللائحة » ، طلبا فيها إسقاط وزارة البارودى ، وإبعاد عرابى إلى خارج مصر ، وإرسال على فهمى وعبد العال حلمى إلى داخل البلاد ، فلم يسع الوزارة والنواب إلا الوقوف صفاً واحداً ضد هذا التدخل السافر فى شئون البلاد الداخلية ، وساندهم فى هذا الموقف الشعب الذى تدفقت على الوزارة علامات تأييده ، وسارت جموعه فى الشوارع تهتف « اللائحة . . مرفوضة مرفوضة » ، وهكذا أصبحت البلاد على قلب رجل واحد فى عدم السماح للدولتين العاتيتين بالتدخل فى أنخص خصائص الحكم المصرى تحت ضغط التهديد بقوة الأساطيل الحربية .

على أن الشعب كان فى وادٍ والخديوى فى وادٍ آخر ، فإن توفيق سرعان ما أعلن قبوله طلبات الدولتين فأنكشف الخلاف الجوهري بينه وبين حكومته التى يرأسها البارودى ، فرأت الحكومة دعوة مجلس النواب إلى الانعقاد لكى يكون قراره هو الحاسم فيما بين الخديوى والوزارة من خلاف .

١٩
سبتمبر

صديقي الاكرم وعزيزي المحترم داعم مجده
اني بادرته بتقديم هذا الرقيم للسؤال عنه الخاطر
الكريم ثم اخبركم اني بخير وعافية وقد اصابني الله
حياة ثانية فارجوكم الله لا تخرموني منه اهتاء جويتكم
الفرآء واني اشكركم على ما عرضتموه بشأني لدلالة
على حسنه الوداد فاقبلوا مني سلامي وفائقه احترام
و دمتكم
الاعلى محم
ساري

(مرسل من Kandy)

نموذج من خط البارودي في رسالة من متفاه في سيلان

إلى يعقوب صنوع « أبي نظارة » في باريس

(من مجموعة رسائل لم تنشر من أحمد عرابي ومن البارودي إلى

يعقوب صنوع يحفظ بها الصديق الكريم الدكتور السيد عطيه أبو النجا)

في شأن مذكرة الدولتين ، على أن المجلس لم ينعقد لافتراق كلمة النواب بعد اجتماعها وذلك بتأثير رئيسهم سلطان الذي كان يناوئ الحركة الوطنية ، وتدل الدلائل على أنه كان من وراء مذكرة الدولتين . وشأنه مع الاحتلال الإنجليزي بعد ذلك معروف .

إذ ذاك استقال البارودي في ٢٦ مايو ١٨٨٢ احتجاجاً على قبول الخديوى للتدخل الأجنبي في شئون البلاد ، ويرى فريق من المؤرخين أن هذه الاستقالة غلطة سياسية من البارودي ، وأنه كان الأولى به والأحرى ألا يستقيل ، بل يصر على عرض الأمر على مجلس النواب وإلا فإن الإقالة خير من الاستقالة ، ومهما يكن من أمر تقدير هذه الخطوة بموازين السياسة فالأمر الواقع أن الوزارة البارودية - وزارة الثورة - قدمت استقالتها فقبلها الخديوى فوراً ، وتشكلت بعدها وزارة راغب باشا التي ظل عرابي فيها وزيراً للحربية .

وبعد قليل وقعت الواقعة ، وهاجمت إنجلترا مصر - بعد أن انفردت بالتصرف دون شريكها فرنسا - وسقطت الإسكندرية ، ثم صمدت جبهة كفر الدوار ، فانتقل القتال إلى الجبهة الشرقية التي سرعان ما انتهت للأسباب المعروفة ، وبدأت بذلك الصحيفة السوداء للاحتلال الإنجليزي لمصر .

وكان للبارودي دوره كقائد عسكري في عمليات الدفاع وبخاصة في الجبهة الشرقية ، على أن الأمر كان قد خرج من أيدي الوطنيين ، إذ تضافرت عليهم القوة الغاشمة من الخارج والخيانة الغادرة من الداخل فأسلمتا مصر للإنجليز ، ودخل العدو القاهرة في سبتمبر ١٨٨٢ - بعد

يوم عابدين بسنة واحدة ! !

وجاء بعد ذلك دور المحاكمات التي أقيمت لزعماء الثورة ، بل لجميع رجالها ، وكان موقف البارودى خلال التحقيق والمحاكمة مدعاة لحملة البعض عليه ، حتى لقد قال مؤرخ الحركة القومية الأستاذ الرافعى : إنَّ موقف البارودى فى المحاكمة لا يتفق وشجاعة زعيم الثورة ورئيس وزارتها ، إذ تنصل من التبعات فكان موقفه خذلاناً للثورة والكرامة . على أن هذا القول يبدو لنا شديد القسوة على البارودى ، ولعلَّ حكمنا على أقواله فى التحقيق يكون أكثر تسامحاً إذا ذكرنا أنها أقوال رجل أعزل أمام محكمة يخشى بطشها ولا يعترف بشرعيتها ، وفى مثل هذه الأحوال تعمل خشية البطش على إبراز غزيرة المحافظة على النفس ، كما يخمد إنكار الشرعية صوت الضمير النائر . وليس بغريب فى أحداث التاريخ مثل موقف البارودى فى مثل تلك الظروف حين تحيط بزعماء الثورات الذين قعد بهم الزمن دون غاياتهم ، ومهما يكن من أمر فإن روح البارودى النائرة ونفسه العالية كانت تبدو بين الحين والحين من خلال ستار الحيلة والحذر الذى ضربه حول نفسه أثناء التحقيق ، فمن ذلك القبيل هذا الحوار الطريف الذى دار بين لجنة التحقيق وبينه :

سئل : هل كنت تستحسن ترقية (الضباط الوطنيين) مع كونه فيهم

الميرالايات الذين كانوا هجموا على عابدين ؟

فأجاب بسؤال آخر : هل لما تقدمت عرائض رتبهم للحضرة الخديوية

استحسنتم أم لا ؟

فأعيد عليه السؤال : القصد أنك تفيد عن استحسانك بحسب ضميرك

فكان رده :

- لا لزوم للاستفهام عن الضمائر .

وتلح عليه اللجنة قائلة - لزوم ذلك هو لأجل أن يعلم المجلس سيرك وضمائرك .

فيجيب في إباء وشمم :

- أنا في مصر من مدة ولست حادث الوجود فيها وسيرى واستقامتى

معلومان !

وفي موضع آخر تسأله لجنة التحقيق هذا السؤال الغريب :

« حيث علم لك أن الخديوى قبل اللائحة (أى مذكرة الدولتين)

فلماذا لم تجمع النظار وتقبلوها أنتم أيضاً ؟ »

فيجيب : « كل إنسان حر في أفكاره فإنى إن لم أقبلها ما على سوى

الاستعفاء ، ومتى تشكلت هيئة أخرى تقبلها » .

وعلى الجملة فإن فى رأى الرافعى عن موقف البارودى من المحاكمة

مغالة تحمد بميزان الوطنية وإن تكن قاسية بميزان الطبيعة البشرية ،

وكأنى بلسان حال البارودى فى هذا الشأن يردد .

أينذهب يوم واحد إن أسأته بسالف أيامى وحسن بلائيا ؟

وبعد فهذا هو دور البارودى فى الثورة العربية : كان من بين

أقطابها « رجل الدولة » ، وكان من زعمائها بمثابة الرأس المفكر ، وكان

فى قمة نجاح الثورة رئيس وزارتها المنفذ لسياستها .

ولقد كانت الثورة بالنسبة إلى البارودى مجالا تحقق فيه نفسه العالية

فى دنيا الواقع بعض ما كانت تجيش به روحه الشاعرة من معانى المجد

والبطولة فى دنيا الخيال .

مسرحية « محمد »

لفولتير

كان للفيلسوف الساخر فولتير اهتمام كبير بالتأليف للمسرح ، فقد كتب في حياته الطويلة نحواً من خمسين مسرحية بين مأساة وملهاة ، ومن بين هذه المسرحيات مأساة تستحق منا اهتماماً خاصاً لأن موضوعها عن نبي الإسلام وعنوانها « محمد » .

كتب فولتير مسرحية « محمد » فيما بين سنتي ١٧٣٩ و ١٧٤١ ، وهي مأساة من خمسة فصول تدور حوادثها في مكة ، وأشخاصها لا يتجاوزون ستة هم :

محمد وزبير « الذي يصفه المؤلف بأنه شريف مكة » وعمر « ويصفه فولتير بأنه نائب محمد أو وكيله » و « سعيد » و « بالمير » وهما عبدان ثم « فانور » وهو من شيوخ مكة ويضاف إلى هذه الأشخاص جموع من أهل مكة وجموع من المسلمين .

مثلت مسرحية محمد أول ما مثلت على مسرح مدينة ليل في أبريل سنة ١٧٤١ ، ولعل فولتير كان يستشعر ما ستثيره مسرحيته تلك من زوابع الانتقاد والمعارضة ، فأراد أن يجرب تمثيلها خارج العاصمة لينتقل بها بعد ذلك إلى باريس . وفي العام التالي أي في أغسطس سنة ١٧٤٢ انتقلت مسرحية « محمد » بالفعل إلى باريس حيث لم يستمر تمثيلها أكثر من ثلاث ليال ، ثم صودرت ومنع تمثيلها استجابة لرجال الكنيسة ، وعلى

رأسهم الكاردينال دى فلىرى ولغيرهم من ذوى النفوذ ممن ثاروا على تلك المسرحية مطالبين بحظر أداؤها على المسارح .

وللمرء أن يتساءل : فيم كانت ثورة رجال الكنيسة على مسرحية « محمد » ؟ وهل كان ذلك لأن مؤلفها قد اتخذ مسرحيته تلك وسيلة لتمجيد الإسلام والإشادة بنبيه ؟ الواقع أن قارئ المسرحية يصدمه لأول وهلة التحامل الظاهر على الإسلام ، وعلى النبي الذي يرميه فولتير بالتعصب والجمود وضيق الأفق ، مع ما يتبع تلك النقائص الجوهريّة من ذبول أهونها النفاق والغدر والظلم ، والمسرحية في الحق شنيعة الظاهر في حق النبي ودينه ، ولعل هذا هو سر إعراض أدبائنا عنها إذ لم يتناولها - فيما نعلم - أحد ممن كتب عن فولتير أو ترجم عنه إلى العربية .

على أن شيئاً من إمعان النظر في هذه المسرحية على ضوء المعروف من أفكار فولتير الحرة ، وحياته التي كرسها لمناهضة التعصب الديني الذميم يؤدي بنا إلى الجزم بأن لظاهر مسرحية « محمد » باطناً هو الذي قصد إليه فولتير : ويزداد الأمر وضوحاً إذا أضفنا إلى الدلالة المستمدة من محاربة رجال الكنيسة الكاثوليكية لهذه المسرحية .

إن خصومة فولتير للكنيسة بل مهاجمته للدين المسيحي أمر معروف في كتاباته ومن سيرته فهو لم يقتصر على الحملة على رجال الدين وتعصبهم في مؤلفاته وإنما كرس بالفعل حياته وجهوده لمحاربة نفوذ الكنيسة الكاثوليكية المتغلغل في جميع نواحي الحياة الفرنسية في عصره ، وليس يغيب عن الأذهان دفاعه عن جان كولا ، وعن

لابار وغيرهما من ضحايا الاضطهاد الدينى الذى كانت تضطلع به الكنيسة . فقد انتصب فولتير فى هذه القضايا محامياً عن التسامح وعن حرية الفكر ، بما جلب عليه سخط رجال الكنيسة الكاثوليكية . أما عن كتابات فولتير ضد الكنيسة بوصفها معقل التعصب الدينى الأعمى فلم يبق منها إلا بعضها ، ولم يصل إلينا جانب منها يبدو أنه كان أشد وأقصى مما نشره المؤلف ، أو أبقت عليه الأحداث ومن ذلك مسرحية ألفها فولتير سنة ١٧٢٢ أى وهو فى الثامنة والعشرين بعنوان « رسالة إلى جوليا » ، ولا نعرف اليوم عن هذه المسرحية إلا شهادة الشاعر جان بانست روسو الذى قرأ عليه فولتير المسرحية أثناء إقامتهما فى بروكسيل ، إذ يقول روسو : إن المؤلف قد تناول السيد المسيح فى تلك المسرحية بعبارات يشيب لها الولدان ، وبديهي أن فولتير لم يجرؤ على نشر تلك المسرحية الجريئة بل كتمها فيما كتم من آرائه ومؤلفاته . هذا وإن « الرسائل الفلسفية » التى أصدرها فولتير سنة ١٧٣٤ صودرت باعتبارها باعثة على التحلل الدينى المنطوى على خطر يهدد النظام الاجتماعى ، وأحرقت السلطات نسخ ذلك الكتاب فى أحد ميادين باريس ، كما حبست ناشره فى الباستيل ، أما المؤلف فقد تمكن حينئذ من الهرب إلى اللورين .

ومؤلف هذا شأنه ينبغى لنا أن نستبعد عن مسرحيته « محمد » ظاهرها المريب فهو بحكم حرية فكره لا يعقل أن يحمل على دين غير دينه تلك الحملات التى يطبعها فى الظاهر طابع التعصب المحض ، ثم هو فوق ذلك متهم عند رجال الكنيسة فى دينه ظنين فى ولائه ،

فلا يعقل أن ينساق وراءهم في تحقير الإسلام ونبيه إرضاء لإحساس لا يحسه هو نفسه ، وإن أحسه في نفوسهم رجال الكنيسة لذلك العهد وهو إحساس الكره الذي يبعثه التعصب في نفوس المتعصبين .

ولو كان مقصود فولتير من مسرحية « محمد » هو معناها الظاهر لكان رجال الكنيسة الكاثوليكية أول من يهال لها ويكبر ، ومن ثم فحملة رجال الدين على هذه المسرحية هي الدليل الكافي على أن فولتير إنما كان يهاجم في مسرحية « محمد » الكثرة لا الإسلام ، ويحمل على رجال الكنيسة الكاثوليكية لا على نبي الإسلام وأصحابه .

وليس غريبا عن الأدب الفرنسي في تلك الفترة اتخاذ الرموز سبيلاً إلى انتقاد ما لم يكن يسع الكتاب انتقاده صراحة ، وهذه الظاهرة - ظاهرة الاحتماء بالرمز - نجدها في أكثر من موضع عند فولتير نفسه وعند غير فولتير من كتاب القرن الثامن عشر في فرنسا .

فنحن نجد مونتسكيو المعاصر لفولتير يصطنع الرموز ، إذ يريد انتقاد الحياة السياسية والاجتماعية لوطنه فيكتب مؤلفه المشهور « رسائل فارسية » في شكل خطابات متبادلة بين اثنين من كبار الفرس ، تتضمن نقداً لاذعاً لسياسة (فارس) ولنظمها الاجتماعية والدينية ، والمؤلف في كل ذلك إنما يستعير (فارس) لفرنسا ويستتر خلف شخصيته الخياليين. ليتمكن من إبداء آرائه في شئون وطنه وهو آمن من العقاب . وقد ذاع هذا الكتاب عقب صدوره سنة ١٧٢١ أيما ذبوع ، وتلقفه الفرنسيون في شوق وإعجاب ، إذ لم يخف عليهم أن مونتسكيو إنما يعنى وطنهم وليس يعنى (فارس) ويعالج أدواء فرنسا السياسية والاجتماعية

والدينية تحت ستار الكتابة عن بلد شرقى ربما كان لا يعرف عنه الكثير .
وقد نسج فولتير على هذا المنوال نفسه فكتب في سنة ١٧٤٧ قصته
الشرقية المعروفة « زديج أو القدر » وقد ترجمها إلى العربية الدكتور
طه حسين ونشرتها مجلة الكاتب المصرى فى عدد خاص فى أغسطس
سنة ١٩٤٧ ولم يفت الأستاذ العميد أن ينوه فى مقدمته لرواية « زديج »
بحقيقة مقصود فولتير من روايته تلك فيقول :

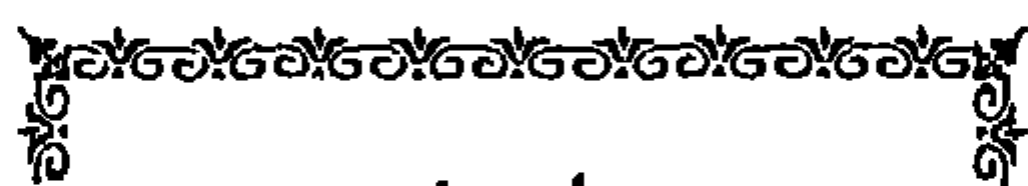
« . . وواضح جداً أن فولتير قد اتخذ قصته هذه كلها وسيلة إلى
نقد الحياة الأوروبية عامة ، والحياة الفرنسية خاصة . واتخذ مدينة
بابل رمزاً لمدينة باريس ، وقصر بابل رمزاً لقصر باريس »^(١)

ولنا على أساس ما تقدم كله أن نقول : إن فولتير فى مسرحية
« محمد » قد اتخذ الإسلام رمزاً للمسيحية ، واتخذ النبي وأصحابه
رموزاً لرجال الكنيسة الكاثوليكية ، فوجه إليهم مر الانتقاد ، وحمل
عليهم أشد الحملات تحت ستار انتقاد الإسلام والحملة على رجاله .
على أن حقيقة قصد المؤلف لم تخف على رجال الكنيسة الكاثوليكية
فى فرنسا ، فلم يلبثوا أن توصلوا إلى مصادرة المسرحية ومنع تمثيلها كما
سبق لنا القول . وإذ ذاك عمد فولتير إلى حيلة بارعة فأهدى مسرحية
« محمد » فى سنة ١٧٤٥ إلى البابا بنوا الرابع عشر متملقاً فيه حاسة
أدبية لانشك فى أن ذلك البابا لم يكن يتمتع بها ، وقد نجحت الحيلة
فقبل البابا بنوا الإهداء ورد على فولتير برسالة يشكره فيها ويبارك جهوده ،
ولم يفطن البابا إلى الباطن المستور الذى يخفيه ظاهر مسرحية « محمد » ،

ولا غرو فهو رجل إيطالى يعيش فى روما ، فلم ينكشف له من مقاصد المؤلف ما انكشف لرجال كنيسة فرنسا الذين كان فولتير يقصدهم قبل غيرهم بالهجوم الخفى الذى تتضمنه مسرحية « محمد » .

وقد لفت هذا الإهداء أنظار مؤرخى فولتير بوصفه عملاً لا يتفق ومواقف فولتير من الكنيسة الكاثوليكية ، ولم يفت أحدهم - وهو جوستاف لانسون - أن يسجل أن إهداء هذه المسرحية إلى رأس الكنيسة الكاثوليكية إنما رمى به فولتير إلى أن يبعد عن الأذهان التفسيرات الجارحة والصحيحة فى واقع الأمر التى تحتملها المسرحية .

وهكذا كان إهداء المسرحية إلى الرئيس الأعلى للكنيسة الكاثوليكية وقبول البابا بنوا الرابع عشر لهذا الإهداء جواز المرور لمسرحية « محمد » إلى مسارح باريس ، فلم تلبث السلطات الفرنسية أن أعادت النظر فى قرار المنع فأباحته تمثيل المسرحية وابتدأ تمثيلها بالفعل فى باريس منذ سنة ١٧٥١ .



تاریخ

أمير الشرق

كانت تدمر واحة صغيرة معزولة وسط الصحراء السورية ، تنزل بها بعض القبائل العربية ، ولكن موقعها عند تلاقى طرق التجارة العالمية جعل منها عاصمة خطيرة الشأن ، إذ كانت الممر الذى تعبره بضائع الشرق إلى الغرب ، من موانئ الخليج الفارسى إلى الموانئ الفينيقية ، كما كانت أيضاً محط رجال القوافل القادمة من اليمن إلى موانئ الشام ، حاملة منتجات بلاد العرب الجنوبية . وقد برع أهلها فى الاستفادة من مركزها الممتاز ، فلم تلبث مدينتهم أن ازدهرت بما كانت تجنيه من رسوم ، وما كانت تفيده من أرباح الوساطة فى البيع والشراء ، ومن أجور حراسة القوافل ، فتحولت من واحة صغيرة إلى مدينة كبيرة رائعة العمران ، حيرت آثارها من بعد عقول الناس فنسبوا بناءها إلى الجن وإلى سليمان كما قال نابغة بنى ذبيان :

إلا سليمان إذ قال الإله له قم فى البرية فاحدها عن الفند
ونحسّ الجن إني قد أمرتهم يبنون تدمر بالصفاح والعمد
وهكذا غدت تدمر عاصمة دولة وقفت على قدميها بين القوتين
العالميتين الكبيرتين حينذاك : فارس وروما .

* * *

ذلك أنه فى أواسط القرن الثانى قبل الميلاد امتدت الإمبراطورية

الفارسية شرقاً إلى الفرات ، وبعد ذلك بأقل من قرن زحف الرومان على سورية فضموها إلى إمبراطوريتهم ، وبذلك التقت القوتان العالميتان وجهاً لوجه في الشرق الأدنى - وكم يعيد التاريخ نفسه !

غير أن تدمير لتطرفها في الصحراء السورية ظلت بمنجاة من جيوش الفرس ومن فيالق الرومان ، وبقيت متمتعة بما كانت التجارة بين الشرق والغرب تحققه لها من خيرات ، بل حاول التدمريون أن يستفيدوا سياسياً من التنافس الحاد بين فارس وروما ، فلزموا الحياد في عراك الإمبراطوريتين الكبيرتين ، ساعين إلى تحقيق مصالحهم مع هذه أو تلك على مقتضى الأحوال . . .

على أنه كان من العسير على تدمير - في وضعها الجغرافي وبالنظر إلى ميزان القوى العالمى في ذلك الحين - أن تظل على حيادها ذاك ما شاءت أن تظل ، وإذ كانت فارس - لقرب عاصمتها ومركز قوتها من تدمير - تمثل في نظر التدمريين خطراً أكبر ، فقد اختاروا الانحياز إلى جانب روما محتفظين في الوقت نفسه باستقلالهم الداخلى ، وبذلك طلع العصر المسيحي على الشرق وتدمير داخلية في دائرة النفوذ الرومانى ، كما دخلت بعد ذلك - في القرن الرابع الميلادى - دولة عربية أخرى هي الحيرة في دائرة النفوذ الفارسى ، فأصبحنا نجد في كتابات مؤرخى الرومان إشارات إلى « عرب الرومان » و « عرب فارس »

* * *

في هذا الوضع الذى فرضته الظروف على تدمير ، برزت فيها أسرة تولت الحكم والمشيخة جيلاً بعد جيل منذ أواسط القرن الثالث

الميلادى ، وحصلت بفضل تأييدها للرومان على مركز مرموق لدى أباطرة روما ، فمن أفرادها من نال لقب « رأس تدمر » ومنهم من كان عضواً فى مجلس الشيوخ الرومانى ، وإلى هذه الأسرة ينتمى بطلنا « أذينة » ويطلق الإخباريون العرب على أسرته اسم « بنى السميدع » ، ولا يبعد أن يكون هذا الاسم تحويراً للاسم الرومانى الذى اتخذته لأنفسهم هؤلاء الرؤساء التدمريون كمظهر من مظاهر الاصطباغ بالصبغة الرومانية وكان كل منهم يقرنه باسمه العربى ، وذلك الاسم هو « سبتمتيوس » ، فكان منهم : سبتمتيوس خيران ، وسبتمتيوس أذينة صاحبنا الذى كان الرومان يحرفون اسمه إلى « سبتمتيوس أوديناتوس » Septemtius Odenatus وبهذه الصيغة يرد الاسم فى المراجع اللاتينية حتى لتكاد تختفى تحت هذا اللفظ الرومانى عروبة أذينة بن خيران .

* * *

فى خلال حكم أذينة لتدمر اصطدم الرومان بالفرس من جديد فى سنة ٢٦٠ م ، وكانت الدولة الساسانية الفتية قد خلفت فى فارس الدولة الفرثية العجوز ، فالتقت جيوش فارس بقيادة سابور الأول بجيوش روما يقودها الإمبراطور فالريان نفسه عند مدينة « الرها » ، فأوقع الفرس بالرومان هزيمة منكرة وسقط فالريان أسيراً فى يد عدوه ، اللدود سابور ، وعاثت جيوش فارس فى مدن سورية حتى بلغت أنطاكية فأعملت فيها النهب والقتل ثم قفلت راجعة إلى فارس .

وكانما أوجس أذينة خيفة من هذه الهزيمة التى نزلت بحليفته روما ، وخشى أن يطيح الفرس المنتصرون بدولته لما كان بينها وبين روما من

وثيق الصلات ، فبعث أذينة برسله إلى إمبراطور فارس الظافر يخطب
 وده ويعلن رغبته في محالفته . فلما بلغ رسل أذينة معسكر سابور وطلبوا
 مقابلته حملته سكرة النصر على رد الرسل على أعقابهم مطرودين ،
 مظهراً تعجبه من تجاسر شيخ مدينة صحراوية لا قيمة لها ولا وزن على
 الكتابة إليه وإيفاد الرسل للقاءه وهو ملك الملوك وإمبراطور فارس
 الذى يرسف فى قيود أسرة قيصر روما مهيناً ذليلاً ، يفاد فى أغلاله إذا
 رغب سابور فى الركوب فيطأ المنتصر هامة أسيره الإمبراطورى حتى يتمكن
 من اعتلاء فرسه !

* * *

وهنا تظهر عظمة أذينة وتتجلى القوة الكامنة فى شعب عربى صغير
 لم يشأ أن يذعن للقوة أو يستكين إلى الذل ، فسرعان ما جمع أذينة جنده
 وحشد معهم القبائل التى حول تدمر ، وضم إلى هؤلاء وأولئك ما كان لديه
 من فلول جيش فالريان ، وسار على رأس هذه القوات نحو عاصمة فارس
 قاصداً الانتقام من سابور ، معلناً عزمه على تخليص الإمبراطور الأسير .
 والتقى جيش أذينة بجيش سابور قبل أن يعبر الفرس نهر الفرات فى
 طريق عودتهم إلى عاصمتهم ، فدارت بين الفريقين معركة حامية انكشف
 غبارها عن هزيمة الجيش الفارسى شر هزيمة ، وعن فرار سابور ومن معه
 نحو عاصمته ، تاركاً خلفه حريمه وكنوزه ، فغنمها أذينة ، وأسر من جنود
 سابور من أسر ، على أنه لم يتمكن من إنقاذ فالريان من الأسر ، فقد كتب
 القدر لذلك الإمبراطور الشقى أن يظل أسير سابور إلى أن مات بعد
 ذلك فى الأسر ، فسلخ سابور جلده وحشاه ثم علقه فى بعض معابد فارس !

* * *

وتمكن أذينة بعد انتصاره ذاك من أن يحرر الجزيرة الفراتية من الفرس وفتح مدينة نصيبين ، كما فتح حران . وكان يستقبل هو وجيشه في كل مكان استقبال الأبطال . ولا غرو فقد كانت جيوش روما قد تركت هذه البقاع لقمة سائغة للفرس ، وها هو أذينة يحررها ويطردهم منها ، بل يسير بجيوشه حتى يبلغ أسوار عاصمة فارس طيسفون (المدائن) ويحاصرها وينصب عليها المجانق وآلات الحصار ، لولا أن فوجي بزحف القبائل القوطية القادمة مما وراء البحر الأسود على الأقاليم الشمالية لسورية ، فاضطر إلى ترك الحصار والتوجه لدفع الخطر الجديد .

فلا غرو إذن إن كانت مكافأة أذينة على هذه الانتصارات وعلى احتفاظه للإمبراطورية بأقطار الشرق أن أطلق الإمبراطور يده في أمور تلك الأقطار ولقبه بأمر الشرق *Dux Orientis* بل بإمبراطور الشرق كله - *Totius Orientis Imperator* على قول بعض المؤرخين ، ومهما يكن من شأن لقبه فقد أصبح أذينة شريكاً لإمبراطور روما مطلق اليد في أمور الأقطار الشرقية . وأصبحت تدمر عاصمة لدولة كبرى لا يشك كثير من المؤرخين في أنها كانت مستقلة بالفعل برغم مظاهر التبعية الشكلية لروما

* * *

على أن هذا المجد الباهر لم يطل به العهد ، فقد امتدت يد الغدر إلى أذينة فاغتالته سنة ٢٦٧ م وهو بمدينة حمص ، وكان في أوج سلطانه وقمة عظمته ، ولا يبعد أن يكون لروما يد في هذا الاغتيال لخشيته من استفحال

أمر أذينة أو لشكها في ولائه للإمبراطورية . وهكذا انتهت هذه الحياة العاصفة التي خلق صاحبها في آفاق المجد كل محلق : من رئيس في مدينة صحراوية ، إلى ملك على عرش مملكة . إلى أعظم قائد في أكبر إمبراطورية في ذلك الزمان ، إلى زميل وشريك للقيصر وعاهل على الشرق . ومن عجب أن أذينة صاحب هذه الشخصية الفذة لا يحظى من الشهرة بما كان خليقاً أن يحظى به ، في حين ظفرت زوجته زينب (زنوبيا) بذيوع الذكر وبعد الأحداث ، وهي التي تولت شئون تدمير بعد زوجها ، إذ كان ابنه وهب اللات قاصراً بعد ، ولعل صيت زنوبيا وما ظفرت به من اهتمام القصاص والإخباريين - فضلاً عن عامة الناس - قد نحسف إلى حد ما الشهرة التي هي في الواقع من حق أذينة .

ومهما يكن من أمر فقد انطبعت حياة أذينة الحافلة ومصرعه المفاجئ في العقلية العربية انطباعاً بعيد الأثر ، حتى إننا نجد صناجحة العرب (الأعشى) - بعد موت أذينة بثلاثة قرون - يذكر تصارييف الزمان وتقلبات القدر ويشير إلى الدهر القاسي . . الدهر الغشوم الذي أزال أذينة عن ملكه وأخرج من حصنه ذايزن

إمبراطور عربيّ على عرش رُوما

إذا كانت عظمة الأمة العربية قد تبلورت في الإسلام بعد أن اختارها الله لرسالته ، وبعث من بنينا خاتم رسله إلى الناس كافة - فإن الأمجاد العربية ترجع في الزمان إلى ما قبل الإسلام بقرون عدة . وما أحرانا في نهضتنا القومية الحاضرة وما نستهدفه فيها من جمع كلمة العرب أن نراجع تاريخنا لا في العصر الإسلامي الزاهر فحسب ، وإنما كذلك فيما قبل الإسلام ، وفي ذلك العصر الذي كان اسم (الجاهلية) مدعاة إلى ظن الكثيرين أنه عصر يخلو من كل مجد وعظمة ؛ والحق أنه عصر تجلت فيه عظمة الأقاليم العربية في مظاهر شتى كانت إرهاصات لما يحمله المستقبل للعرب من عز وسلطان تحققت لهم في ظل الإسلام ؛ إذ سيطروا على معظم المعمورة ، وحملوا مشعل الحضارة والتمدن غير منازعين قروناً مديدة .

* * *

وتاريخ العرب الجنوبيين ودولهم الزاهرة قبل الإسلام لم يعد الآن خافياً ، وحضارتهم القديمة وآثارهم الكثيرة - التي يرجع بها بعض الباحثين إلى ألفى سنة قبل الميلاد - أصبحت موضع اهتمام العلماء والمؤرخين . على أن شمالي الجزيرة العربية شهد كذلك دولاً عربية نشأت على حافة الصحراء في أطراف الجزيرة : إلى الغرب على تخوم سورية ، وإلى

الشرق على تخوم العراق : فكانت دولة الأنباط التي اتخذت عاصمتها سَلْع (بطرة) ، وكانت تدمر ، ثم كانت مملكة الحيرة ، وإمارة بني غسان التي ظلت قائمة إلى زمن ظهور الإسلام .

وموضوعنا هذا يتناول بطلاً عربياً نجّم في مشارف الشام في القرن الثالث الميلادي ، وتجاوز أفق آماله الدول العربية المحلية إلى الإمبراطورية التي كانت تبسط سلطانها في ذلك العصر على تلك الأصقاع ، فانخرط في سلك جيوشها ، ولم يقنع بدون تسنُّم عرش روما إمبراطوراً لأعظم إمبراطورية في ذلك الزمان !

ذلك هو ماركوس جوليوس فيليبوس Marcus Julius Philippus أو « فيليب العربي » كما يسميه المؤرخون . وقد جرى المعتاد في ظل الإمبراطورية الرومانية على أن يتخذ رعايا - وخاصة من يكون لهم في الدولة أو في الحكومة شأن - أسماء لاتينية تختفي تحتها قومياتهم المميزة .

* * *

ولد فيليب حوالي سنة ٢٠٤ ميلادية في نواحي بصرى بالشام في محلة أنشأ هو فيما بعد مستعمرة فيها سماها فيليبوبوليس ، وتعرف الآن باسم « شهبه » ، وكان أبوه شيخاً من مشايخ العرب بحوران اتخذ اسم جوليوس مارينوس ، إذ كانت عائلته قد حصلت على لقب مواطن روماني من بعض الأباطرة السابقين ، وانضم الشاب فيليب إلى صفوف الجيوش الرومانية ، كما كان يفعل الكثيرون غيره من العرب الذين لعبوا دوراً هاماً في الجيش الإمبراطوري في القرنين الثاني والثالث ،

كما كان لهم تأثير كبير في السياسة الرومانية ، بل إن جيوش الشرق لم يكن لها من الصبغة الرومانية إلا الاسم ، فكانت في حقيقتها شرقية الطابع ، واحتفظت العناصر المكونة لتلك الجيوش - ومن أهمها العرب - بطابعها القومي البحت طوال العهد الإمبراطوري (١) .

تدرّج فيليب في مراكز الجيش الروماني حتى كان في زمن حروب جورديان الثالث ضد الفرس أحد قواد الحرس الإمبراطوري أهم فرق الجيش ، وكان الإمبراطور جورديان يتولى شخصياً القيادة العليا للجيش ، غير أنه لحدثا سنة كان مطواعاً لحَمِيَّة قائد الحرس الإمبراطوري تيميسثيوس Timesitheus الذي كان يسير سياسته ، ويدبر كل أمره ، فلما استرد الرومان المدن السورية من أيدي الفرس ، واستعدوا للسير نحو ممتلكات فارس فيما بين النهرين سنة ٢٤٣ - مات تيميسثيوس - ويشك بعض المؤرخين ومنهم جييون في أنه مات مسموماً - فخلفه فيليب كقائد للحرس الإمبراطوري ، ووجد وهو في هذا المنصب الخطير السبيل ممهدة لتحقيق أهدافه البعيدة ومطامعه الكبيرة ؛ ولا غرو ؛ فلقد كان للحرس الإمبراطوري ماض طويل من التدخل في السياسة

(١) انظر الدور الهام الذي كان للجنود العرب في الجيش الإمبراطوري الروماني

Cheesman : The Auxilia of the Roman Imperial Army, 1914.

وخصوصاً ص ٨٨ وما بعدها وص ١٤٥ وما بعدها ومقالاً في مجلة «أرابيكا» المجلد

الثالث (سنة ١٩٥٦) ص ١٨١ - ٢١٣ .

Irfan Kavar : The Arabs in the Peace Treaty of A.D. 561, Arabica III (1956) pp. 181-213.

وعزل الأباطرة وتوليّتهم منذ الدور الذي لعبه في تولية الإمبراطور كلوديوس سنة ٤١ ، وتكرر بعد ذلك تدخل الحرس الإمبراطوري في أزمات الحكم ، وساعده على ذلك كونه المنفرد دون سائر فرق الجيش بالإقامة في العاصمة وما حولها .

وبتعيين فيليب قائداً للحرس أصبحت تلك الأداة الخطيرة طوع بئانه ، فلم يتردد في استخدامها للوصول إلى غرضه ، وانتهاز فرصة قلة المؤن والإمدادات ، فأثار الجنود على الإمبراطور مستغلاً صغر سنه ، وجعلهم يتناقلون بينهم أن المهمة العسيرة التي يضطلعون بها تتطلب قائداً له من الخبرة والحنكة ما ليس للشاب الصغير جورديان ! وما لبث الجند أن حملوا جورديان على إشراك فيليب معه في السلطة الإمبراطورية ، وسرعان ما وثب الجند بعد ذلك على الإمبراطور في أثناء الزحف على طيسفون عاصمة فارس ، فقتلوه عند التقاء نهر الفرات برافده (الخابور) ، وكان ذلك في شهر فبراير أو مارس سنة ٢٤٤ ، ونادوا بفيليب إمبراطوراً على روما .

بادر فيليب بإرسال كتاب إلى مجلس الشيوخ في روما عزا فيه موت جورديان إلى المرض ، وحيثاً ذكره ، فلم ير المجلس مناصاً من الاعتراف بفيليب إمبراطوراً ؛ إذ كانت السلطة الفعلية قد انتقلت منذ زمن إلى فيالق الجيش الروماني ، ولم يعد لمجلس الشيوخ من الأمر شيء في حقيقة الواقع ، ولم يكف فيليب يظهر باعتراف مجلس الشيوخ حتى عجل بإنهاء الحرب مع فارس ، ووقع صلحاً مع سابور الأول يعتبره بعض المؤرخين مجحفاً بمصالح الإمبراطورية ؛ إذ أسلم مملكة



تمثال نصفي للإمبراطور فيليب (من متحف الفاتيكان)

أرمينيا إلى النفوذ الفارسي بالرغم من احتفاظه للإمبراطورية بممتلكاتها فيما بين النهرين . ومهما يكن من أمر فقد أسرع فيليب بعد إبرام هذا الصلح إلى أنطاكية ، ومنها ركب البحر إلى روما ؛ ليبدأ حكمه الذى دام قرابة ست سنوات .

اختط فيليب العربى سياسة جديدة تخالف سياسة الأباطرة الذين سبقوه إلى الحكم فى ذلك العهد الذى يسميه المؤرخون عهد الملكية العسكرية ؛ إذ عمل على إعادة شىء من سلطان مجلس الشيوخ إليه ، فاكسب بذلك عطف المجلس وولاءه ، وكان يميل إلى الاعتماد فى حكمه على المجلس والشعب أكثر من اعتماده على فيالق الجيش الإمبراطورى ، واجتهد فى تغيير أسلوب الحكم الإرهابى الذى استنه الإمبراطور هادريان ، وبلغ أوجه فى عهدى الإمبراطورين ماكسيمينوس وسبتيموس ، فاكسب بذلك محبة سكان المدن والأقاليم على السواء ؛ إذ ألغى السخرة ، وخفف من حدة المصادرات التى كانت تتعرض لها أموال الأهلين ، وأصدر أمره بالعفو العام عن المسجونين السياسيين وبعودة من كان منهم منفياً فى أطراف الإمبراطورية ، ولم يعد يعير سمعه إلى الجواسيس والمخبرين الذين كان الأباطرة السابقون يثنونهم فى مختلف الأنحاء . وعلى الجملة فقد حاول فيليب جاهداً أن يحكم حكماً يتسم بالعدل والحرية والنظام ، فكان عهده القصير ردّاً فعل للملكية العسكرية التى كان طابعها الظلم والفضى وكبت الحريات .

وقد بقيت لنا وثيقة هامة من عهد فيليب تصور تلك السياسة الجديدة ؛ والوثيقة عبارة عن خطبة عنوانها « إلى الإمبراطور » ، ينسبها بعض المؤرخين

إلى الحكيم الأثيني المعروف نيكاجوراس (١) جاء فيها :

« وأما عن عدله فيكفى ما قد ذكرنا ؛ إذ أى إحسان أظهر »

« من ذلك وأعظم ؟ لقد كانت كل المقاطعات راسفة في أغلال الخوف ، »

« فكان العدد الجم من الجواسيس يجوبون أرجاء المدن لتسقط ما يتحدث »

« به الناس ، وكان من المستحيل أن يفكر المرء أو أن يتحدث في »

« حرية ؛ حتى لقد زال كل أثر لحرية القول في أكثر حدودها اعتدالا ، »

« وكان كل إنسان يرتعد فرقا من ظله ، فجاء (فيليب) ، وخلص »

« النفوس من هذا الرعب ، وأطلق إسارها ، وأعاد لها حريتها كاملة »

« غير منقوصة . »



عملة رومانية من عهد فيليب العربي منقوش
على أحد وجهيها صورته

(١) روستوفزيف ص ٣٩٧ وما بعدها .

ويستطرد كاتب تلك الوثيقة فيقول

« لقد كان كثير من الأباطرة السابقين شجعاناً في مواجهة العدو ،
ولكنهم كانوا خاضعين لسلطان جيوشهم ، أما هو فقد أمسك
« بيديه قياد الجيش في سهولة ، وأعاد الجند إلى النظام ؛ حتى لقد
« رقدت أطماعهم في اقتضاء أكثر مما كانوا يتقاضون من المبالغ ، وهو
« ليس بقليل . »

وهكذا تصور الوثيقة سياسة فيليب على النقيض من السياسة
التقليدية للملكية العسكرية ، فتقول : إنه لم يكن يضع أدنى ثقة في
الوشاة والجواسيس ، ولم يكن يسلب رعاياه أموالهم بالمصادرات والضرائب
الظالمة ، وكان قائداً حكيماً . وأكثر من ذلك كان سياسياً ودبلوماسياً
بارعاً ، ولم يكن عبد جنوده ، بل كان سيدهم . وتسبغ عليه الوثيقة في
مواضع متفرقة أوصاف التقى والحكيم والعاذل والمحسن ، ومع ما قد يكون
في هذا كله من بعض المبالغة فإنه يصور في الأقل اتجاه سياسة فيليب
وما كان يستهدفه ذلك الإمبراطور العربي من تجديد في أسلوب الحكم ،
وارتفاع بسياسة الدولة عما كانت قد تردت فيه من المظالم والمفاسد .

* * *

، وثمة وثيقة أخرى من عهد فيليب تبين بعض الأوضاع الاجتماعية
في عهده ، وتصور جهوده لإصلاح تلك الأحوال ، وهي عريضة من
فلأحي بعض الأراضي الحكومية في آسية الصغرى يقولون فيها ^(١) :
« بينما يحظى سائر الناس في أيام حكمك السعيدة - يا أكثر »

« الملوك تقي وبركة - بحياة آمنة لا يكدر صفوها مكدر ؛ إذ قد »
« انتهى الفساد ، وانقطع تماماً الاستغلال - مازلنا وحدنا نقاسي »
« من المساوي ما لا يتفق مع عهدكم السعيد ؛ ولذا نرفع إلى مقامكم »
« هذا الالتماس نحن فلاحو الأباطرة الأقدمين ؛ وبهذه الصفة »
« نلتجئ إلى جلالكم ؛ فنحن نعاني الظلم وابتزاز الأموال من أولئك »
« الذين واجبهم أن يحموا الشغب فهؤلاء الرجال من ضباط وجنود »
« وحكام وكذا مندوبوكم التابعون لكم . . . يجيئون إلى قريتنا ويسوقوننا »
« بعيداً عن أعمالنا ، ويستولون على مواشينا التي نستخدمها في الحرث ، »
« ويبتزون منا ما ليس من حقهم ؛ فنحن نعاني ظلماً واستغلالاً »
« غير عاديين ! » .

هذا وقد كان للزراعة نصيب كبير من اهتمام فيليب . فقد اجتهد في إعادة زراعة الأراضي الكثيرة التي تركت بوراً سواء من أملاك الدولة أو من غيرها نتيجة للفوضى والظلم وعدم الاستقرار ، وفي سبيل ذلك شجع بيع الأراضي إلى الجنود المسرحين ، وغيرهم بأثمان زهيدة أو اسمية ، وأصدر أوامره بحماية الزارعين وتشجيعهم على الاستمرار في فلاحه أراضيهم . وهناك وثائق أبقت عليها الأيام من عهد فيليب تثبت جهوده تلك لإحياء الأرض الموات وتشجيع الزراعة في مصر بالذات ، منها وثيقة مؤرخة سنة ٢٤٦ (مجموعة برديات المتحف البريطاني ج ٣ ص ١٠٩) هي عقد بيع وردت فيه الإشارة إلى الإعلان الذي أصدره حاكم مصر لتشجيع الإقبال على شراء الأراضي وحماية صغار الملاك تنفيذاً لسياسة الإمبراطور فيليب لا في مصر وحدها ، بل في سائر أنحاء الإمبراطورية .

وتجدر الإشارة بهذه المناسبة إلى أن القرن الثالث الميلادي يمثل في تاريخ الإمبراطورية الرومانية مرحلة تدهور اقتصادي عام شمل الزراعة والصناعات والتجارة ؛ ومع ذلك فيبدو أن مصر في القرن الثالث لم تشارك فيما حلَّ بسائر أنحاء الإمبراطورية من ملومات فبالرغم من انتشار الركود في بعض المراكز الصناعية - كانت مصر أولاً وقبل كل شيء بلداً زراعياً ، وقد احتفظت الأرض بخصبها ولم ينل منها النهب والسلب على أيدي الغزاة البرابرة ، كما حدث في أنحاء أخرى من الإمبراطورية ، ولم تتأثر مصر كثيراً بضروب المصادرات وابتزاز الأموال التي تصحب تنقلات الجيوش الكثيرة ذهاباً وحيث ، وكذلك لم ترتفع الضرائب العينية المفروضة على الزارعين ، وكان محصول القمح يزيد على حاجة الفلاح . كما كان سعره حسناً . وهكذا على حين يرسم لنا المؤرخون صورة قائمة للقرن الثالث تسودها الأزمة الاقتصادية والفوضى السياسية وهجمات البرابرة والحروب الأهلية في آسية الصغرى وفي البلقان وفي غيرها من أرجاء الإمبراطورية الرومانية - نجد مصر تبدو كبقعة مضيئة في تلك الصورة السوداء ، إذ يسودها نسبياً الرخاء ، ونجد المدن المصرية تقوم بتنفيذ أعمال عامة لا يكاد يكون لها مثل في المقاطعات الأخرى حتى في أكثر أيام الإمبراطورية ازدهاراً^(١).

كان من جرّاء السياسة التي سار عليها فيليب أن نعمت الإمبراطورية بهدوء تام في الداخل لم تعكر من صفوه إلا هجمات البرابرة على حدود الإمبراطورية ، فلم يتردد فيليب في التوجه بنفسه على رأس الجيش

(١) جونسون ص ١٥٨ .

لرد الغزاة من الجرمان والكاربيين في سنتي ٢٤٥ و ٢٤٦ ، وتكلفت تلك الحملات بالنجاح ، وارتد البرابرة على أعقابهم ، فاستحق فيليب بذلك لقب غازي الجرمان Germanicus Maximus ، وغازي الكاربيين Carpicus Maximus ، وعاد إلى روما ليحتفل بتلك الانتصارات .

* * *

وفي ٢١ من أبريل سنة ٢٤٨ حلت الذكرى الألفية لتأسيس مدينة روما ، وهي الحدث البارز الذي يتميز به عهد فيليب العربي ، وقد احتفل فيليب بتلك المناسبة العظيمة احتفالاً جديراً بأهميتها التاريخية الكبرى ، وما زالت عظمة الاحتفالات التي أمر بها فيليب تتجلى لنا من خلال السطور في كتابات المؤرخين الأقدمين ، وكان من أهم مظاهر تلك الاحتفالات إحياء الألعاب الرياضية الكبرى التي كانت قد جرت عادة الرومان بإحيائها كل مائة عام ، وكان لتلك الألعاب شأن عظيم لدى الرومان لأهميتها ولتطاول الفترة بين دوراتها ، بحيث كان الأكثرون لا تتاح لهم في حياتهم مشاهدتها ، وكان من يشهدها في حياته مرة يُعتبر حسن الحظ ، وقلّ بل ندر من الناس من كان يشهدها أكثر من مرة ؛ لأن ذلك كان يقتضي أن يمتد به العمر أكثر من قرن .

وامتاز عهد فيليب بالتسامح الشديد نحو المسيحيين على خلاف ما كانت تجري عليه سياسة الأباطرة السابقين ، وعلى الضد كذلك مما أعقب عهد فيليب مباشرة من الاضطهاد الشديد للمسيحيين ، أما في عهد فيليب فقد ترك أتباع الدين الجديد وشأنهم ، بل كان يباح لهم الوعظ والدعوة إلى دينهم علناً ، وقد حدا هذا التسامح البين ببعض مؤرخي الديانة المسيحية

إلى القول بأن فيليب كان مسيحياً في الباطن ، وأنه لذلك يعتبر أول الأباطرة المسيحيين ؛ وبالرغم من أنه قد كُتبت في إثبات مسيحية فيليب كتب برمتها لم تثبت هذه الواقعة تاريخياً ، وفيما خلا تسامحه مع المسيحيين كان فيليب يتبع الدين الرسمي للدولة الرومانية .

وقد أصدر فيليب أمره بتأليه أبيه على نحو ما كانت تجرى به العادة في روما من رفع بعض الناس إلى مرتبة الآلهة ، كما أشرك ابنه الطفل معه في السلطان ، ومنحه لقب قنصل ، واستخدم أخاه المسمى بوليوس بريسكوس حاكماً على ما بين النهرين ، ثم حاكماً على المقاطعات الشرقية كلها Rector Orientis ، ثم قائداً للحرس الإمبراطوري ؛ وقد دعا هذا كله إلى الظن بأن فيليب العربي كان يسعى إلى إنشاء أسرة مالكة يتوارث أفرادها عرش الإمبراطورية . ومهما يكن من أمر صحة هذا الظن فقد أعجلت الأيام فيليب عن ذلك كله ، وأطاحت الأحداث به وبابنه في فورة من تلك الفورات التي اتسم بها تاريخ الإمبراطورية الرومانية لذلك العهد .

ذلك أن أخذ الجنود بالشدة ، وإعادة النظام إلى صفوف الجيش فضلاً عن محاولة إرجاعه سلطات مجلس الشيوخ إليه والاعتماد في الحكم على الجماهير الشعبية دون فيالق الجيش - هذا كله - كان له ولا شك أثره في ولاء الجند للإمبراطور وشعورهم له ، وهم الذين استمروا على مر السنين عزل الأباطرة وتولييتهم ، واعتادوا الفوضى والثورات ، ولم يعد بعيداً على أهوائهم - كما يقول المؤرخ جيون - رفع أصغر الجنود وأقلهم شأنًا إلى العرش ؛ فبدأت الاضطرابات في صفوف الفيالق الرومانية

المعسكرة في أنحاء مختلفة من الإمبراطورية ، ونودي بثلاثة من الأدعياء أباطرة ، كلٌ منهم يؤيده قسم من أقسام الجيش في جهة من الجهات . بدأت هذه الحركة عندما تمردت الفيالق المعسكرة في الدانوب مستعينة بقبائل القوط ، ونادت بضابط صغير هو طباريوس كلاوديوس مارينوس إمبراطوراً ، وما إن بلغ النبا سماع فيليب حتى فكر في اعتزال العرش حقناً للدماء ، وتجنباً للفوضى التي تمزق أوصال الإمبراطورية ، وأبلغ الأمر مجلس الشيوخ الذي سادته الوجوم ، وران عليه الصمت لدى سماع ما قاله الإمبراطور إلى أن وقف أحد الشيوخ وهو ديقوس ، فخطب المجتمعين في هدوء واتزان مندداً بالدعي مارينوس واصفاً تلك الحركة بأنها اضطراب عابر جدير بالاحتقار ومستحق للقمع ، وأضاف إلى ذلك أن مارينوس سوف تقضى عليه الفتنة التي أوجدته . وسرعان ما تحققت هذه التكهّنات ؛ فإن جيوش الدانوب التي نادت بمارينوس إمبراطوراً بالأمس أودت به الغداة ، فكان من أثر ذلك أن أعجب فيليب بحكمة ديقوس وبُعد نظره ، ورأى فيه الرجل الوحيد الذي يعتمد عليه في إعادة النظام إلى صفوف جيوش الدانوب المضطربة ، فعينه قائداً لها ، وبعثه إليها بالرغم مما يقال من تردد ديقوس في قبول هذه المهمة ونصيحته للإمبراطور ألا يمنح الجنود المتمردين قائداً ماهراً .

وقد صحت تلك المخاوف التي ساورت نفس ديقوس ؛ إذ أنه بالرغم من نجاحه في حمل قبائل القوط على الارتداد قد اضطرب - بضغط الجنود في فيالق الدانوب - إلى قبول المناداة به إمبراطوراً ، ويقال : إنهم خيروا بين القتل والعرش ؛ فرأى أن يستجيب لهم ، وبعث في

الوقت نفسه كتاباً إلى فيليب يطمئنه فيه ، ويؤكد له ولاءه وترقبه أول فرصة تسنح للتزول عن المنصب الإمبراطوري الذي اضطره إليه الجنود الثائرون ، غير أن فيليب لم يركن إلى ما جاء في الكتاب ، ورأى الخطر محدقاً به ، فعمد إلى حشد جيش كبير لملاقاة فيالق الدانوب العاصية وعلى رأسها ديقوس ، فكان اللقاء بينهما قرب فيرونا في شمالي إيطاليا في شهر سبتمبر أو أكتوبر سنة ٢٤٩ ، ودارت رحى معركة سقط فيها فيليب قتيلاً ، وانهزم جيشه ، وما كاد الخبر يصل إلى رومة حتى بادر رجال الحرس الإمبراطوري بقتل ابن فيليب الطفل منضمين إلى الإمبراطور الجديد ديقوس .

وهكذا انتهت تلك الحياة العجيبة التي ارتفعت بعربي من أبناء الصحراء السورية إلى عرش أعظم إمبراطوريات العالم في سلسلة سريعة من الأحداث التي إن تكن من طابع العهد فإن نصيب الجرأة والمواهب فيها ليس بقليل .

Enciclopedia Italiana Vo. Filippo.

Rostovtzeff : The Social and Economic History of the Roman Empire, 1926.

Cheesman : The Auxilia of the Roman Imperial Army, 1914.

Gibbon : The History of the Decline and Fall of the Roman Empire, Vol. I.

Johnson : Roman Egypt in the Third Century, in "The Journal of Juristic Papyrology" (Warsaw), Vol. IV. (1950), pp. 151—158.

Kawar : The Arabs in the Peace Treaty of A.D. 561, in "Arabica", Vol. III (1956) pp. 181—213.

الأهرام .

فى كتب المؤرخين العرب وحل رموز الهير وغليفية

شغلت أهرام الجيزة أذهان الناس ، واستأثرت باهتمام العلماء والباحثين جيلاً بعد جيل منذ بنائها حتى اليوم ، على وجه يبعد أن يكون قد حظى به أثر آخر من آثار حضارة الإنسان على الأرض . ولا غرو فالأهرام فى ضخامتها وروعها وفى شكلها الفريد وهندستها العجيبة جديرة بكل ذلك الاهتمام ، كما أن قربها من عواصم مصر المتتالية على مر القرون جعلها قبلة كل زائر للبلاد ولو كان عابر سبيل ، فطبقت بذلك شهرتها الآفاق ، وأصبحت عند الجميع أولى عجائب الدنيا السبع .

ومن الطريف المفيد أن نرجع إلى ما أوردته كتب المؤرخين والرحالة العرب الأوائل عن أهرام الجيزة ، تلك الآثار الخالدة التى لم يفت أحد ممن كتبوا عن مصر أن يتناولها .

ولما كان علم الآثار بشكله الحديث مجهولاً لدى القدماء كانت كتاباتهم عن الأهرام تقتصر على وصفها وسرد بعض ما يتناقله الناس عن أخبار بنائها ، والغرض من إنشائها ، وهى أخبار تختلط فيها الأسطورة بالتاريخ . على أن لوصف قدامى مؤرخى العرب للأهرام قيمة تاريخية كبرى

في التعريف بما كانت عليه الأهرام في عهودهم ، وما طرأ عليها من تغييرات بحكم الزمن وفعل عوامل التعرية .

ولعل أقدم ما وصل إلينا من كتابات قدامى المؤرخين عن الأهرام ما أورده أبو الصلت أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت الأندلسي ، الذي أقام في مصر من سنة ٤٨٩ إلى سنة ٥٠٦ هجرية . فقد كتب « الرسالة المصرية » في وصف رحلته إلى مصر وإقامته فيها : وكان مما قاله عن الهرم إنه : جسم جسم من أعظم الحجارة ، مربع القاعدة ، مخروط الشكل ، ارتفاع عموده ثلثمائة ذراع ، ونحو سبعة عشر ذراعاً ، يحيط به أربعة سطوح مثلثات متساويات الأضلاع ، طول كل منها أربعمئة ذراع وستون ذراعاً ، وهو مع هذا العظم من إحكام الصنعة وإتقانها في غاية من حسن التقدير بحيث لم يتأثر بعصف الرياح وهطل السحاب وزعزعة الزلازل ، وهذه صفة كل واحد من الهرمين الكبيرين المحاذيين للفسطاط على ما شاهدناه منهما » ويستطرد فيصف الأهرام وصف شاهد عيان يعطينا صورة دقيقة عن عصره فيقول : « واتفق أن خرجنا يوماً إليهما فلما طفنا بهما واستدرنا حولهما كثر تعجبنا منهما . . . »

« ورأينا سطوح كل واحد من هذين الهرمين مخطوطة من أعلاها إلى أسفلها بسطور متضايقة متوازية من كتابة بانيها ، لا تعرف اليوم أحرفها ، ولا تفهم معانيها . »

وفي هذه الرواية ما يؤيد الرأي القائل بأن أهرام الجيزة كانت في الأصل مغطاة بطبقة من الجص الأملس عليها كتابات هيروغليفية

وقد أتت الأيام على هذه الطبقة الخارجة التي يدل على وجودها كذلك قول الشاعر القديم :

حسرت عقول أولى النهى الأهرام
واستصغرت لعظيمها الأجرام
ملس موثقة البناء شواهدق
قصرت لعال دونهن سهام

فقوله « ملس » دليل على بقاء كسائها الخارجى لعصر هذا الشاعر ، وقد زالت هذه الطبقة الآن بحيث لا يسوغ لواصل اليوم أن يصف أهرام الجيزة بأنها ملس .

هذا ويبدو أن الهرم الأصغر « هرم منقرع » كانت طبقة الخارجية ملونة بالأصباغ المختلفة ، إذ نجد جلال الدين السيوطى فى « حسن المحاضرة » يتكلم عن الهرمين الكبيرين « والهرم الصغير الملون » فى أكثر من موضع من الفصل الذى عقده عن الأهرام فى الجزء الأول من كتابه . وهذا التلوين كان ملحوظاً فى أبى الهول كذلك ؛ إذ يقول السيوطى فى وصفه إنه : « صنم بقرب الهرم الكبير فى وهدة » منخفضة ، وعنقه أشبه شئ برأس راهب حبشى على وجهه صباغ أحمر ، لم يحل على طول الأزمان » فإذا ذكرنا أن السيوطى من أبناء القرن العاشر الهجرى « السادس عشر الميلادى » علمنا أن نصول ألوان أبى الهول والهرم الثالث إنما كان فى عهد قريب نسبياً .

ومن خلط فى كتابته عن الأهرام الحقائق بالأساطير السبط ابن الجوزى صاحب كتاب « مرآة الزمان » إذ يقول :

« إن لكل هرم روحانياً موكلًا به ، وإن الروحاني الموكل بالهرم البحري في صفة امرأة عريانة ولها ذوائب إلى الأرض ، وقد رآها جماعة تدور حول الهرم في وقت القيلولة والموكل بالهرم الذي بجانبه في صورة غلام أصغر أمرد عريان ، وقد رأى بعد الغروب يدور حول الهرم ، والموكل بالثالث في صورة شيخ في يده مبخرة وعليه ثياب الرهبان ، وقد رأى يدور ليلاً حول الهرم » .

على أن المؤرخين القدماء لم يفهم أن يحدسوا حقيقة المقصود ببناء الأهرام فنجد السيوطي يقول :

« والظاهر أنها قبور ملوك الأوائل وعليها أسمائهم وأسرار الفلك والسحر » .

كما قال من قبله أبو الصلت :

« وزعم قوم أن الأهرام قبور ملوك عظام آثروا أن يتميزوا بها على سائر الملوك في مماتهم كما تتميزوا عنهم في حياتهم » .

وقال مثل ذلك جمال الدين أبو جعفر الإدريسي المتوفى سنة ٦٧٦ هـ وهو الوحيد الذي نعرفه ألف عن الأهرام مؤلفاً خاصاً هو رسالة صغيرة الحجم ، جملة الفائدة ، عنوانها : « أنوار علو الأجرام في الكشف عن أسرار الأهرام » ألفها للملك الكامل محمد الأيوبي .

وكان طبعياً . وقد لفتت الأهرام أنظار القوم بعجائبها واستهوتهم بأسرارها أن يحاول ذوو القدرة منهم الولوج إلى داخلها ؛ ولعل من أوائل من فعل ذلك الخليفة العباسي المأمون في زيارته لمصر سنة ٢١٧ هـ ، إذ نجد في « الرسالة المصرية » وفي « حسن المحاضرة » وفي « أنوار علو

الأجرام » وغيرها من المصادر أن ذلك الخليفة أمر بنقب الهرم الكبير .
 وأنهم دخلوه بعد جهد شديد وعناء طويل فوجدوا داخله مهاوى ومراق
 يهول أمرها ، ويعسر السلوك فيها ، ووجدوا في أعلاها بيتاً مكعباً طول
 كل ضلع من أضلاعه نحواً من ثمانية أذرع ، وفي وسطه حوض رخام
 مطبق ، فلما كشف غطاؤه لم يجدوا فيه غير رمّة بالية . يقول صاحب
 الرسالة المصرية : « فعند ذلك أمر المأمون بالكف عن نقب ما سواه
 ويقال إن النفقة على نقبه كانت عظيمة والمؤنة شديدة » . فهل كانت تلك
 الرمّة البالية مومياء الملك خوفو ؟ وترى ما كان مصيرها ؟

ومن طريف ما نجده في كتاب الإدريسي أن المأمون عندما زار
 الأهرام ورأى ما عليها من نقوش وكتابات رغب في ترجمتها « فلم يجد
 مترجماً يترجم له عنها ، ويعرب عن معجم ما استعجم منها غير أيوب
 ابن سلمة ؛ وهو شيخ من شيوخ المصريين ، دلت المأمون الحكماء
 عليه ، وأشاروا بأجمعهم إليه في معرفة حلّ أشكال حروف الأقلام
 البرباوية (وهو الاسم الذي يطلقه قدامى المؤرخين على القلم الهيروغليفي)
 فترجم للمأمون ما كان على الهرمين وعمودى عين شمس ، وما كان
 على حجارة كانت بمدينة منف وبيوسير وبسمنود ، وجميع ما ترجمه من
 ذلك في الكتاب المعروف بكتاب الطلسمات الكاهنية » .

ولئن صحت رواية الإدريسي فإن معناها أن الحروف الهيروغليفية
 كانت مقروءة ولو لواحد من العلماء إلى عصر المأمون ، وأنها لم تستعجم على
 جميع الناس إلا بعد ذلك ، إلى أن حل رموزها من جديد شميليون
 في العصر الحديث . ولئن صحت روايته كذلك لكان ضياع كتاب

« الطلسمات الكاهنية » خسارة لعلم الآثار لا تعوض .

ولقد اقترن اسم شمبليون في أذهان الناس بحجر رشيد ، واحتكر في اعتقاد الجمهور فضل حل طلاسم الخط الهيروغليفي ، وبلغ ذلك عند الكثيرين مبلغ اليقين .

وإذا طرحنا جانباً أقوال قدامى مؤرخي العرب التي تقع على الحد الفاصل بين الأسطورة والتاريخ ، وقصرنا بحثنا على العصر الحديث بعد اكتشاف حجر رشيد ، تعين أن نذكر أن شمبليون المولود سنة ١٧٩٠ كان عند كشف ذلك الحجر سنة ١٧٩٩ في التاسعة من عمره ، وأن العلماء لم يقفوا أمام ذلك الكشف مكتوفي الأيدي إلى أن شب شمبليون عن الطوق ، بل بذلوا الجهود بذلك السبيل التي بلغ غايتها شمبليون بعد كشف حجر رشيد بأكثر من عشرين عاماً .

احتفظت الحكومة الفرنسية بنسخ عديدة من نقوش الحجر الذي اضطرت لتسليمه إلى الإنجليز عند رحيل الحملة الفرنسية عن مصر ، وسرعان ما نشرت الحكومة الفرنسية الدعوة في أوساط العلماء إلى حل رموز النقوش الواردة في ذلك الحجر ، وتلقى المستشرق المشهور سلفستر دي ساسي سنة ١٨٠٢ تكليفاً من وزير الداخلية شابتال - بأمر القنصل الأول بوناپرت - بدراسة الحجر ومحاولة فك طلاسمه فعكف دي ساسي على ذلك ولكنه لم يصل إلى نتيجة تذكر ، فكتب إلى وزير الداخلية يقول : « إن شخصاً أكثر مني إماماً باللغة القبطية قد يكون أقدر على المضي في هذه الأبحاث إلى غايتها » ونشرت الصحف هذا الخطاب فتلقف المهمة العالم السويدي المستشرق آكر بلاد الذي

كان يعمل في باريس أستاذاً بمعهد اللغات الشرقية ، وبعد شهرين من المقارنة الدقيقة بين النصين اليوناني والديموطيقي توصل إلى قراءة أسماء الأعلام وبضع كلمات من بينها « يونان » و « معابد » وكذا بعض الضمائر ، كما توصل إلى أبجدية تكاد تكون كاملة ، ونشر نتيجة أبحاثه سنة ١٨٠٢ في صورة خطاب إلى مسيو دي ساسي .

ويقول السير آلان جاردنر أستاذ اللغة المصرية المعروف ومؤلف كتاب « الأجرومية المصرية » : إن خطاب آكربلاد إلى دي ساسي هو « أول وأهم خطوة في سبيل الهدف الذي وصل إليه شمبليون بعد ذلك بعشرين سنة » (كتاب الأجرومية المصرية ص ١٢ طبعة ١٩٥٠) كما أن شمبليون نفسه قد نوه بجهود آكربلاد في مقدمة أول كتاب له وهو المعنون « مصر تحت حكم الفراعنة » المطبوع سنة ١٨١١ أى قبل وصول شمبليون إلى النتائج النهائية في حل رموز حجر رشيد تلك النتائج التي لم تنشر إلا سنة ١٨٢٢ .

اسم آكربلاد السويدي هو إذن أول اسم ينبغي أن يذكر إذا ذكر حجر رشيد . وثمة اسم آخر سبق صاحبه شمبليون إلى محاولة حل رموز الهيروغليفية وقطع في ذلك السبيل خطوات وهو عالم الطبيعيات توماس يونج الذي لم يمنعه تخصصه وشهرته في البصريات من الاهتمام باللغات القديمة ، فقد تمكن من الحصول على نسخة من نقوش حجر رشيد سنة ١٨١٤ وتنبه إلى حقيقة هامة غفل عنها آكربلاد ، فتعذر عليه لذلك المضي في حل رموز النص الهيروغليفي إلى النهاية ، تلك الحقيقة هي أن الكتابة الديموطيقية ليست كلها أبجدية ،

بل تشمل رموزاً لا يمكن أن تكون حروف هجاء . ومن ثم تنبه يونج إلى الصلة الوثيقة بين الكتابتين الديموطيقية والهيروغليفية .

وإلى جانب عمله في قراءة النص الهيروغليفي في حجر رشيد قام يونج بقراءة كتابات هيروغليفية أخرى ، منها خراطيش تحوى أسماء بعض ملوك مصر القدامى كانت على المسلات التى نقلت إلى إنجلترا ، ومنها فقرات من أوراق البردى التى تكون ما يعرف بكتاب الموتى . وتضمنت نتائج هذه الأبحاث المقالة التى كتبها يونج عن مصر للدائرة المعارف البريطانية سنة ١٨١٨ ، أى قبل نشر نتيجة بحوث شمبليون بسنوات ، وقد خلط يونج فى نتائجه الصواب بالخطأ ، غير أن منهجه فى البحث كان سليماً ، وهو المنهج الذى أدى فى النهاية إلى ما وصل إليه شمبليون من حل رموز الخط الهيروغليفي كلها .

فإذا كان شمبليون قد قطع آخر خطوات هذا الطريق الشاق واشتهر من أجل ذلك بأنه أول من قرأ الكتابة الهيروغليفية فإنما يصح ذلك على التقريب لا على التحديد ، إذ أن من حق من مهدوا له هذا الطريق أن يكون لهم من ذلك الفضل نصيب .

البيروني

ومكانته في تاريخ العلم

علوم العرب في عصرهم الذهبي هي حلقة الوصل بين مدنيات العالم القديم والمدنية الحديثة التي بدأت بالنهضة الأوربية في القرن الخامس عشر الميلادي ، تلك النهضة التي أشعل جذوتها احتكاك الأوربيين بالعرب وأخذهم عنهم علومهم ومعارفهم ؛ ومن ثم كان للعلوم العربية - أعني مختلف العلوم التي حمل العرب مشعلها في إبان نهضتهم العظمى - أهمية كبيرة في دراسة تاريخ العلم ، وكان من غير المتيسر إدراك الصورة الصحيحة لما قطعه العلم الحديث من مراحل وما وصل إليه من نتائج دون الإلمام بتاريخ علوم العرب وما حققوه على عهدهم من كشوف في ميادين العلم المتنوعة ؛ إذ بغير ذلك تنفرج بين علوم القدماء والعلم الحديث ثغرة يتعذر على العقل أن يصل بين جانبيها . وإذا آثرنا التواضع فلم نذهب مع كاتب غربي مثل بريفو إلى أن « العلم الغربي الحديث يدين بوجوده للحضارة العربية » (١) فإن علوم العرب هي - في القليل - أساس من أهم الأسس التي يقوم عليها العلم الحديث .

وإذ كانت هذه هي أهمية العلوم العربية في تاريخ العلم فإن العقول

Briffault : The Making of Humanity, London 1919 p. 191. (١)

الكبيرة التي رفعت راية تلك العلوم لها في تاريخ العلم مكانة مرموقة أصبحت أسماؤهم بفضلها كالصوى في الدرب الطويل ، أو كالدرارى في السماء المظلمة . ومن أضوء تلك النجوم اللامعة في سماء العلوم العربية - البيرونى .

* * *

ولد أبو الريحان محمد بن أحمد البيرونى في ضواحي خوارزم في شهر ذى الحجة سنة ٣٦٢ هـ (سبتمبر سنة ٩٧٣ م) وتدلُّ نسبته على أنه من ضواحي خوارزم لا من المدينة نفسها ؛ لأن « بيرون » بالفارسية تعنى الضاحية . وقد وهم ابن أبى أصيبعة حين ترجم للبيرونى في « عيون الأنباء » (ج ٢ ص ٢٠) إذ قال :
« هو الأستاذ أبو الريحان محمد بن أحمد البيرونى منسوب إلى بيرون وهي مدينة بالسند » (١) .

والواقع خلاف ذلك ؛ إذ لم يكن أبو الريحان سندياً ، كما لا تُعرف مدينة في السند تسمى بيرون . وفي تفسير نسبة أبى الريحان يقول ياقوت :

« وهذه النسبة [البيرونى] معناها البرانى ؛ لأن بيرون بالفارسية معناه « برا » . وسألت بعض الفضلاء عن ذلك فزعم أن مقامه بخوارزم كان قليلاً ، وأهل خوارزم يسمون الغريب بهذا الاسم ، كأنه لما طالت غربته عنهم صار غريباً . وما أظنه يراد به إلا أنه من أهل الرستاق » (٢) .

(١) وتابعه في ذلك الأستاذ أحمد أمين (ظهر الإسلام ١ / ٢٨٧)

(٢) الرستاق - السواد والقرى المحيطة بالمدينة .

وحيث بلغ أبو الريحان العشرين من عمره كان قد عبَّ من بحر العلوم وتفتح عقله على شتى مجالاتها ، فرحل إلى جرجان ، والتحق ببلاط أميرها قابوس بن وشمكير الملقب بشمس المعالي ، وكان بلاطه في تلك الحقبة يحفل بالعلماء الأعلام ، ومنهم ابن سينا الذي اتصل بينه وبين أبي الريحان منذ ذلك الوقت حبلاً الود والتعاون في العلم . وفي بلاط جرجان كتب البيروني كتابه المعنون « الآثار الباقية من القرون الخالية » . وأهداه إلى شمس المعالي . وهو كتاب يبحث - أكثر ما يبحث - في تقاويم الأمم القديمة وأعيادها ومواسمها ومقارنة ذلك بما كان على عهد المؤلف ، وتتخلل هذا كله بحوث كثيرة فلكية ورياضية وطبيعية .

وحوالي سنة ٤٠٠ هـ (١٠١٠ م) عاد أبو الريحان إلى مسقط رأسه في خوارزم ، فاستخلصه لنفسه أميرها أبو العباس المأمون بن محمد خوارزمشاه ، وأصبحت له عند هذا الأمير الحظوة التي ما بعدها حظوة والقدر الذي لا يدانيه قدر ؛ إذ عرف الأمير للعالم مكانته من العلم ، فاتخذته مستشاراً له ، وأسكنه معه في قصره ، وكان يبدى له من مظاهر الاحترام والتقدير ما لا مزيد عليه :

يروى ياقوت عن محمد بن محمود النيسابوري « أن خوارزمشاه دخل قصره يوماً وكان يشرب على دابته ، فأمر باستدعاء أبي الريحان من حجرته ، ولما أبطأ عليه قليلاً تصور خوارزمشاه الأمر على غير صورته ، فثنى عنان فرسه نحو حجرة أبي الريحان ، ورام النزول ، فسبقه أبو الريحان إلى الخروج ، وناشده الله ألا يفعل ، فتمثل خوارزمشاه :

العلم من أشرف السلايات

يأتيه كلُّ الورى ولا يأتى

ثم قال : لولا الرسوم الدنياوية ما استدعيتك ، فالعلم يعلو ولا يعلى (١) .

* * *

على أن أيام أبي الريحان في بلاط خوارزم لم تدم ، فسرعان ما اضطربت فيها الأمور ، وقتل خوارزمشاه ، وسادت بعده فوضى مكنت سلطان غزنة محمود بن سبكتكين من الاستيلاء على خوارزم ، فكان أبو الريحان في جملة الأسرى هو وآخرون من العلماء الذين اتهمهم السلطان محمود - على عاداته من التشدد في الدين - بالكفر والزندقة ، وأعمل في بعضهم السيف ، وكاد أبو الريحان يهلك في غمرة تلك الأحداث لولا أن أسعف العلم - سبباً خلّصه من القتل ، إذ قال بعض مراقبي السلطان : هذا إمام وقته في علم النجوم ، وإن الملوك لا يستغنون عن مثله ، فأبقى عليه محمود ، وأخذته معه إلى بلاده (٢) . ودخل أبو الريحان الهند مع السلطان محمود في فتوحه المظفرة في تلك البلاد التي استمرت إلى سنة ١٠٢٤ م ، واستحق من أجلها لقب « الغازي » ، ولعله أول من لُقّب بذلك في الإسلام .

وطالت إقامة البيروني في بلاط غزنة مع محمود وخلفائه ، وكانت

(١) معجم الأدباء ١٧ / ١٨٢ - ١٨٣ .

(٢) ينقل الأستاذ أحمد أمين (ظهر الإسلام ١ - ٢٨٦) رواية أخرى عن

سبب انتقال البيروني من بلاط خوارزم إلى بلاط غزنة ، فلتراجع .

هذه الفترة أبرز فترات نشاطه العلمى وأحفلها بالإنتاج الغزير . ويبدو أن أبا الريحان بعد أن رجع إلى غزنة من الهند لم يغادر تلك المدينة منقطعاً إلى الدرس والبحث والتجربة والتأليف إلى أن توفاه الله فى الثالث من رجب سنة ٤٤٠ هـ (١٣ من ديسمبر سنة ١٠٤٨ م) (١) .

* * *

ولعل الطابع المميز لأبى الريحان بين العلماء العرب هو تنوع اهتماماته العلمية ، واتساع آفاق دراساته مع الإتيقان التام - بل التقدم والتبريز فى كل باب يطرقه من أبواب العلوم المختلفة ؛ فلقد كان البيرونى طبيباً ، فلكياً ، رياضياً ، جغرافياً ، مؤرخاً ، وعالماً بالطبيعات ؛ وكانت له اليد الطولى فى كل علم من هذه العلوم مع مشاركة فى الفلسفة والعلوم اللغوية والأدب والشعر والفقه . ولئن كانت سعة الأفق طابع الكثرين من علماء العرب فى عصرهم الذهبى ، لقد بزَّهم البيرونى

(١) هذا هو تاريخ وفاة البيرونى المتعارف عليه بين مؤرخى العلم ، غير أن المستشرق ماكس مايرهوف لاحظ - بحق - أن البيرونى لا يمكن أن يكون قد مات قبل سنة ١٠٥٠ م ، أى سنة ٤٤٢ هـ ، لأنه يقول فى مقدمة كتاب : « الصيدنة فى الطب » إنه نيف على الثمانين سنة (هجرية) ؛ فإذا صح ميلاده فى سنة ٣٦٢ هـ تعين أن يكون على قيد الحياة فى سنة ٤٤٢ هـ ، وتكون وفاته فى تلك السنة أو بعدها . (انظر مجلة المجمع العلمى المصرى سنة ١٩٤٠ ص ١٣٨) . هذا ويسوق المستعرب السوفيتى كريموف أدلة أخرى على أن وفاة البيرونى كانت فى سنة ١٠٤٨ م لا سنة ١٠٥٠ م وذلك فى مقال له بعنوان « حول تاريخ وفاة البيرونى » فى مجلة « العلوم الاجتماعية فى أوزبكستان » العدد ٨ لسنة ١٩٧٠ (بالروسية) ، وهكذا يستمر الخلاف حول تحديد السنة التى توفى فيها البيرونى .

جميعاً في هذه الناحية ، لا من حيث تعدد فنون العلم التي تناولها فقط ، بل كذلك من حيث مساهمته مساهمة بناءة في تقدم كل علم من تلك العلوم وتطوره على وجه لا يتأتى إلا لعالم فذ ، وأستاذ راسخ القدم .

كما امتاز البيروني بين العلماء العرب - سواء من معاصريه أو سابقيه أو لاحقيه - بأنه كان حريصاً على الاطلاع على ثقافات الأمم الأخرى من مصادرها الأصلية غير معتمد على الترجمات التي شاعت في وقته في العالم العربي ، فدرس أبو الريحان لهذا الغرض السريانية والعبرية ، واهتم بوجه خاص باللغة السنسكريتية ، وعن طريقها تمكن من أن يتعمق في دراسة الثقافة الهندية التي لم تكن حتى عصره محل الاهتمام الأول من العلماء العرب . وقد ظهرت نتائج تلك الدراسات العميقة في كتابه الكبير عن الهند المعنون « تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مردولة » والذي يعد نسيجاً وحده في موضوعه وفي مادته ، وقد ترجم هذا الكتاب إلى الإنجليزية في القرن الماضي (١) ، ومازال حتى اليوم كبير الفائدة لطلاب الدراسات الهندية بما حواه من معلومات واسعة ونظرات تقديرية صائبة عن ثقافة الهند القديمة الفلسفية والعلمية ، وقد اشتمل هذا الكتاب على معلومات وبيانات لولا مجهود أبي الريحان لكان مصيرها النسيان والضياع .

ولقد تغلغل حب العلم في نفس أبي الريحان حتى كان العلم محور

(١) كما ترجم إلى الروسية في سنة ١٩٦٣ ونشرت تلك الترجمة في مدينة طشقند في ٧٢٧ صفحة ، وهي المجلد الثاني من مجموعة الأعمال المختارة للبيروني التي لا تزال تصدر منها مجلدات جديدة في الاتحاد السوفيتي .

وجوده وهدف حياته ، فعاش يطلب العلم للعلم ، مُكبّاً على تحصيل العلوم ، منصرفاً إلى تصنيف الكتب . . « لا يكاد يفارق يده القلم ، وعينه النظر وقلبه الفكر » كما يقول فيه النيسابورى . وكان يضع في أبحاثه العلمية روحه كلها ، ولم يكن يقوم بعمل من الأعمال إلا مخلصاً فيه الإخلاص كله لوجه الحق والعلم ، وحسبك دليلاً على مقدار تشبّع هذا العالم النادر المثال بحب العلم ما يرويه ياقوت عن النيسابورى من أن قاضياً من أصحاب أبي الريحان قال :

دخلت على أبي الريحان وهو يجود بنفسه وقد حشرج نفسه وضاق به صدره ، فقال لى فى تلك الحال :

كيف قلت لى يوماً حساب الجدات الفاسدة ؟

فقلت له إشفاقاً عليه : أفى هذه الحالة ؟

قال لى : يا هذا ، أودّع الدنيا وأنا عالم بهذه المسألة ، ألا يكون خيراً من أن أخليها وأنا جاهل بها ؟ فأعدت ذلك عليه ، وحفظه ، وعلمنى ما وعد ، وخرجت من عنده وأنا فى الطريق فسمعت الصراخ (١) ، فما ظنك برجل يحتضر على فراش الموت ، فلا يلهيه ما هو فيه عن العلم ، ولا يدع زائره دون أن يسأله عن مسألة من مسائل علم المواريث ، وعنده أنه إن يودّع الدنيا وهو عالم بتلك المسألة خيراً له من أن يموت وهو جاهل بها ، فيشرحها له صاحبه ، وما إن يخرج من عنده حتى ترتفع إلى خالقها تلك الروح المولّهة بحب العلم ، فيسمع صاحبه الصراخ عليه وهو فى الطريق . .

ومن كانت هذه حاله مع العلم فإنه ولا شك لا يمارسه ليتقرب به إلى الملوك ولا ليكتسب به الجاه عند الناس ؛ وهكذا كان أبو الريحان مستغنياً عن الملوك وما عندهم من جهة ، غير مبال بأن يفوز بالحمد من سواد الناس ، أو يشتهر عندهم بالعلم من جهة أخرى .

فأما استغناؤه عن الملوك وزهده فيما لديهم فحسبك ما جرى له مع السلطان مسعود بن محمود حين ألّف له كتابه المحيط بأوائل علم الفلك وأواخره والمعنون بـ « القانون المسعودي في الهيئة والنجوم » ، فلقد أجازته السلطان بحمل فيل من نقده الفضي ، فلم يقبل أبو الريحان تلك الصلة السنية التي تتناهى دون بعضها آمال الكثيرين ، وردّ المال إلى الخزانة بعذر الاستغناء عنه (١).

وأما عدم اكتراث أبي الريحان بقالة الناس عنه ما دام قد أَرْضَى ضميره وأخلص لوجه العلم فشاهدنا عليه ما رواه أحد تلاميذه قال : « كان من عادة شيخنا الأستاذ الرئيس رحمه الله إذا أمر في كتبه من مؤامرات الأعمال لم يجئ بالمثال ، وإذا جاء على التزر اليسير منه جاء بالطرق المنغلقة والألفاظ الفصيحة البعيدة عن التفهم ، وسألته عن ذلك فقال رحمه الله : سبب ذلك أني أخلى تصانيفي عن المثالات ليجتهد الناظر فيما أودعته فيها متى كان له دربة واجتهاد وهو محب للعلم ، ومن كان من الناس على غير هذه الصفة فلست أبالي به فهم أم لم يفهم فعندى سواء (٢) » .

(١) معجم الأدباء ١٧ / ١٨١ ، وبغية الوعاة ص ٢٠ - ٢١ .

(٢) « الآثار الباقية » نشرة ساخاو ص ٧١ من مقدمة الناشر .

والبيروني - بالرغم من العرق الذي كان يمتُّ به إلى الفرس - كان عربياً الثقافة ، عربياً الروح ، عربياً العصبية ، لا يدين بالولاء إلا لعروبته ولا يرضى أن ينسب إلى غير العرب . وهو القائل في مقدمة كتابه « الصيدنة » : « الهجو بالعربية أحبُّ إلى من المدح بالفارسية » ، وفيها يقول أيضاً : « ديننا والدولة عربيان توءمان ، يرفرف على أحدهما القوة الإلهية وعلى الآخر اليد السماوية . وكم احتشد طوائف من التوابع وخاصة منهم الجبل والديلم في إلباس الدولة جلايب العجمة فلم تنفق لهم في المراد سوق . وما دام الأذان يقرع آذانهم كل يوم خمساً ، وتقام الصلوات بالقرآن العربي المبين خلف الأئمة صفّاً صفّاً ، ويخطب به لهم في الجوامع بالإصلاح كانوا للدين وللفهم ، وحبل الإسلام غير منفصم ، وحصنه غير منثلم » (١)

ويعلق الأستاذ لويس ماسنيون على تعصب البيروني للغة العربية فيقول (٢) :

« لقد فهم البيروني تمام الفهم الدور العالمي للغة العربية بوصفها - بين اللغات السامية - أهم لغة حضارة ، وأدرك مقدرتها على التركيز والتجريد وتراكيبها عن طريق الاشتقاق بدلاً من الزوائد وقيمتها في

(١) ولا تقدم نرى أنه لا يمكن أن يصح ما قاله الأستاذ فليب حتى في كتابه « تاريخ العرب » (ص ٤٠٢ من الطبعة الثالثة الإنجليزية) من أن البيروني كان ممن تزعموا معسكر الشعوبية ضد المعسكر العربي .

(٢) المجلد التذكاري : ص ٢١٨ .

توحيد المتكلمين بها .

ولا نشك - وهذا هو موقف البيروني من العربية والعروبة - في أنه لو كان قد عاش إلى أيامنا لكان يدهش من تنازع الأمم إياه وتنافسهم على ادّعائه : فالترك يعدونه تركياً ، والإيرانيون يحتفلون به بوصفه منهم ، والروس لزماننا هذا يرون أنه ينتمي إليهم بحكم مولده في خوارزم التي هي اليوم في جمهورية أوزبكستان السوفيتية . .

وقد عرف معاصرو البيروني فضله ، وقدروا سبقه في مختلف العلوم حق قدره ، فذاعت شهرته في حياته ، وصار يُعرف بين علماء العصر باللقب الذي انفرد به ، وهو « الأستاذ » ، كما كان معاصره وقرينه في الشهرة العلمية ابن سينا يعرف بلقب « الرئيس » ، وهما لقبان إذا أطلقا من غير إضافة كانا كافيين للدلالة على شخصي البيروني وابن سينا كدلالة الأسماء سواء بسواء . وكما كان البيروني يعرف في الشرق بلقب الأستاذ كان يعرف لدى الغربيين في القرون الوسطى باللقب نفسه مضافاً إلى اسمه محرفاً فهو عندهم « الأستاذ أليورون » Master Aliboron كما نجده في الكتب اللاتينية لذلك العهد .

* * *

وعالمٌ مثل أبي الريحان في سعة آفاقه وتعدد مناحيه يصعب في عجلة كهذه الإلمام بما أحرزه العلم على يده من تقدم وما حقق في مختلف الميادين من سبق علمي ، على أنه لا بأس بإشارات قليلة تدل على ما وراءها من كنوز خبيثة في مؤلفات البيروني - ما نشر منها وما لا يزال ينتظر النشر - والحق ما قال المستشرق ساخاو - ناشر كتب

البيروني في القرن الماضي - من أن تقدير أبي الريحان حق قدره والاعتراف له بكل فضله يحتاج إلى عمل أجيال من الباحثين ينكبون على تراثه العلمي بحثاً ودراسة وتحقيقاً .

« قفى علم الفلك : قام البيروني بعمل جداول فلكية دقيقة بناء على أرصاده ، ونقد وعدّل الجداول التي كان قد صنعها سابقوه ومعاصروه ، كما ابتكر الاصططلاب الأسطواني الذي لم يقتصر استعماله على رصد الكواكب والنجوم ، وإنما كان يستخدم كذلك في تحديد أبعاد الأجسام البعيدة على سطح الأرض وارتفاعاتها ، وصنع أبو الريحان كذلك جهازاً يمثل حركات الشمس والقمر .

وقد اشتمل على الجانب الأكبر من أبحاثه الفلكية كتاباه « القانون المسعودي » و « التفهيم لأوائل صناعة التنجيم » . وقد قامت بطبع أولهما لجنة دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن في الهند^(١) في طبعة محققة صدر منها الجزء الأول في سنة ١٩٥٤ ، والثاني في سنة ١٩٥٥ ، والثالث في سنة ١٩٥٦ .

أما كتاب « التفهيم » فقد نشر نصّه العربي مع ترجمة إنجليزية في لندن سنة ١٩٣٤ بواسطة رامزاي رايت .

« وأما في الرياضيات : فتشمل ابتكارات البيروني - المتواليات

(١) لهذه الهيئة العلمية اهتمام مشكور بآثار البيروني : فقد طبعت فضلاً عن القانون المسعودي « مجموعة رسائل البيروني » الحاوية لعدد من مؤلفاته القصيرة ، وطبعت كتاب « الجماهر في معرفة الجواهر » سنة ١٩٣٦ ، كما أنها بصدد طبع كتابه الكبير عن الهند . وقد ظهر الجزء الأول من هذه الطبعة سنة ١٩٥٧ .

الهندسية ، وتثليث الزوايا ، وحلّ كثير من مسائل الهندسة التي لا يكفي في حلّها المسطرة والفرجار وحدهما ، وهي المسائل التي أصبحت تعرف في علم الهندسة منذ ذلك الوقت باسم « المسائل البيرونية » Alberunic problems ، فضلاً عن مساهمة البيروني في تطور حساب المثلثات .

* وفي العلوم الطبيعية : كانت للبيروني نظرات صائبة سبق بها عصره : فمن ذلك أنه أدرك أن سرعة الضوء تزيد على سرعة الصوت زيادة هائلة ، وأنه شرح القوانين المائية التي تحكم العيون والآبار الارتوازية ، كما شرح بعض حالات شذوذ الخلقة في النبات والحيوان بما فيها حال التوائم الملتصقة التي يسميها الغربيون اليوم بالتوائم السيامية ، وتعرّض لشرح ظاهرة الزوجية في عدد أوراق الأزهار ، إلى غير ذلك من ملاحظاته وتجاربه الدقيقة في شتى فروع العلوم الطبيعية .

على أن أبرز سبق علمي أحرزه البيروني في هذا الميدان يتمثل في تحديده الثقل النوعي لعدد من المعادن والأحجار تحديداً دقيقاً لا يكاد يذكر الفرق بينه وبين التحديد الحديث للثقل النوعي لتلك المواد .

ولبيان ذلك نورد فيما يلي جدولاً يبين الثقل النوعي كما حدده البيروني ، والثقل النوعي المعروف لعلمائنا المعاصرين :

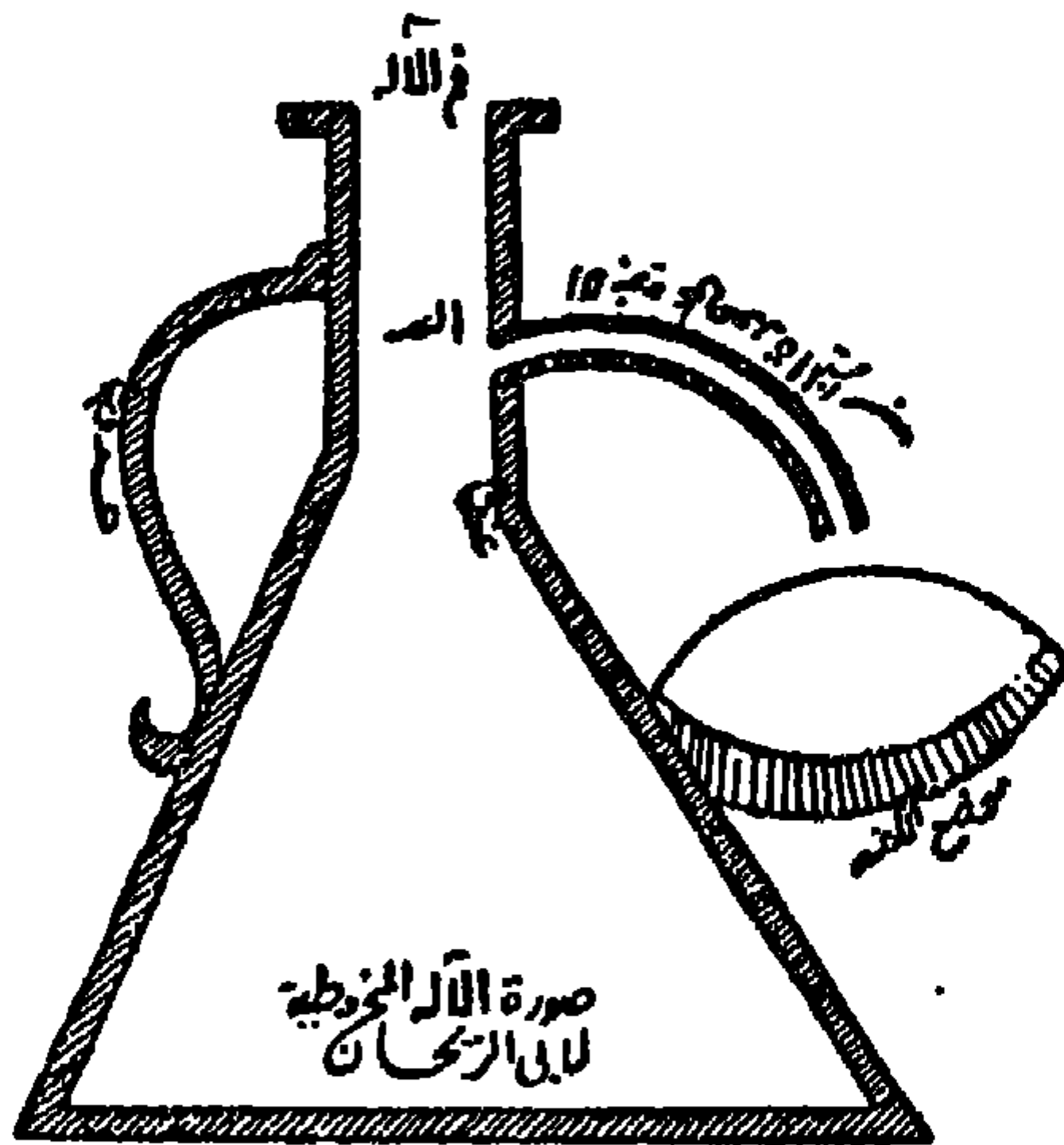
المادة	الثقل النوعي لدى البيروني	الثقل النوعي لدى المحدثين
الذهب	١٩,٠٥	١٩,٢٦
الزئبق	١٣,٥٩	١٣,٥٩

المسادة	الثقل النوعى لدى البيرونى	الثقل النوعى لدى المحدثين
النحاس	٨,٨٣	٨,٨٥
الضفر	٨,٥٨	٨,٤
الحديد	٧,٧٤	٧,٧٩
الصفائح	٧,١٥	٧,٢٩
الرصاص	١١,٢٩	١١,٣٥
الياقوت الأزرق	٣,٧٦	٣,٩٠
الياقوت الأحمر	٣,٦٠	٣,٥٢
الزمرد	٢,٦٢	٢,٧٣
اللؤلؤ	٢,٦٢	٢,٧٥
البلور الصخرى (الكوارتز)	٢,٥٨	٢,٥٨

وعند تقدير هذه النتائج المدهشة التى توصّل إليها أبو الريحان ينبغي أن نستحضر فى الذهن أن ألفاً من السنين تفصل بين زماننا وزمانه ، وأن نذكر أن عُدّته من الأدوات والأجهزة لم تكن لتقارن بما لدى علماء اليوم ؛ ومع ذلك فقد وصل أبو الريحان إلى نتائج لا تختلف كثيراً عما وصل إليه المحدثون بعد كل هذا التقدم الذى حققته العلوم .

هذا وقد ضمن أبو الريحان خلاصة أبحاثه فى الثقل النوعى كتابه المعنون « مقالة فى النسب التى بين الفلزات والجواهر فى الحجم » ، استعمل فى تجاربه العلمية لاستخراج الثقل النوعى « آله المخروطية » التى صنعها والتى يرى القارئ صورتها مع هذه السطور وطريقة استعمالها

أن تملأ بالماء إلى حدٍّ معين ، ثم يوضع فيها مقدار معلوم الوزن من المادة المراد معرفة ثقلها النوعي ، فيخرج بدخولها قدر من الماء من خلال أنبوبة الجهاز ، ويسقط في الكفة ، ويوزن ، فتعطينا النسبة بين وزن الجسم ووزن الماء الثقلي النوعي للمادة التي هي موضوع البحث .



رسم يبين « الآلة المخروطية » التي كان البيروني يستعملها في استخراج الثقل النوعي

* وفي الجغرافيا : انفرد البيروني بالسبق إلى وصف بلاد الهند وسكانها ، على أن ميدان تفوقه لم يكن الجغرافيا الوصفية بقدر ما كان الجغرافيا الرياضية - وبخاصة تحديد خطوط الطول والعرض ومسافات البلدان - وله فيها عشرة مؤلفات ، وعلم هيئة الأرض وقد كتب فيه

أربعة كتب ، ثم فن رسم الخرائط ؛ وله فيه مبتكرات كثيرة في كيفية نقل صورة الأرض الكروية إلى الورق المسطح ، وكذا في كيفية رسم الخرائط الفلكية للسموات ، مما جعل فضل البيروني على فن رسم الخرائط cartography غير منكور . وقد خصَّ أبو الريحان بهذا الفن عدداً من مؤلفاته ، أهمها كتاب « تسطيح الصور وتبطيح الكور » ، وكتاب « تحديد المعمورة وتصحيحها في الصورة » ثم « تكميل صناعة التسطيح » ، عدا فصول متفرقة في « القانون المسعودي » وغيره من كتب أبي الريحان الكبار .

وجدير بالذكر أن البيروني بنظرته النقدية النفاذة لم يسلم تسليماً أعمى بما كان الإغريق يعتقدونه من أن المعمور من الأرض هو أحد الربعين الشماليين من كرة الأرض فقط ، وبذلك لم يستبعد البيروني - من الوجهة النظرية - احتمال أن يكون النصف الغربي من الكرة الأرضية معموراً ، وذلك قبل اكتشاف الدنيا الجديدة بقرون طوال .

وفي ذلك يروي أبو الريحان أن الهنود يرون « أن على ترابيع خط الاستواء أربعة مواضع هي : جمكوت الشرقى ، والروم الغربى ، وكنك الذى هو القبة ، والمقاطر لها ؛ فلزم من كلامهم أن العمارة في النصف الشمالى بأسره » .

ثم ينتقل إلى ما كان الإغريق يقولون به ، فيستطرد : « وأما اليونان فقد انقطع العمران من جانبهم ببحر أوقيانوس ، فلما لم يأتهم خبر إلا عن جزائر فيه غير بعيدة عن الساحل ، ولم يتجاوز المخبرون عن الغرب ما يقارب نصف الدور ، جعلوا العمارة في أحد الربعين

الشماليين ، لا أن ذلك موجب أمر طبيعي ، فمزاج الهواء الواحد لا يتباين ، ولكن أمثاله من المعارف موكول إلى الخبر من جانب الثقة .
ثم كان أن جاءنا ذلك الثقة بالخبر اليقين بعد زمان أبي الريحان بأكثر من خمسة قرون في شخص كريستوف كولبس حين ألقى مرساه في جزر الهند الغربية ، وتطلع من ورائها إلى القارة الأمريكية ، وعرف العالم كله أن النصف الغربى من الكرة الأرضية معمور شأنه شأن النصف الشرقى .

* وفى الجيولوجيا وعلم المعادن : كان البيرونى من الرواد الأولين ، قدّرس ووصف عدداً جماً من المعادن والأحجار من النواحي الطبيعية والطبية - ومن ناحية استغلالها الصناعى ، وأهم مؤلف له فى هذا الباب هو كتاب « الجواهر فى معرفة الجواهر » الذى فى مكتبة الأسكوريال نسخة مخطوطة منه وأخرى فى المكتبة التيمورية بالقاهرة ، والذى طبع فى الهند سنة ١٩٣٦ كما تقدم .

وفى هذا الكتاب - فضلا عن المعلومات الموضوعية الثمينة - نظرات نقدية كالتى تحفل بها سائر مؤلفات « الأستاذ » وفقرات كثيرة تدلنا على المنهج الذى كان يسلكه وهو منهج علمى تجريبى تتوافر له كل مقومات المناهج العلمية الحديثة ، فلم يكن البيرونى يتخذ أقوال المتقدمين حجة ، ولم يكن يكتفى بالاستنتاج النظرى المجرد ، وإنما كانت التجربة العلمية الدقيقة مدار استنباطاته وأساس نتائجه العلمية ، فكأنه سبق بذلك فرنسيس بيكون - المحدود فى الغرب أبا المنهج التجريبى - بستة قرون : ففى كتاب « الجواهر » يعرض البيرونى

في وصفه لنزمد إلى إطباق علماء السلف على القول بأن من خصائص الزمرد سيلان عيون الأفاعي إذا وقع بصرها عليه ، فلا يقبل هذا القول على علاقته بالرغم عن إجماع المؤلفين عليه ، وبالرغم عن انتشاره لدى الجمهور إلى درجة اعتبارهم إياه حقيقة لا جدال فيها ، وإنما يعمد البيروني إلى التجربة العملية ، فقرأه يقول :

« ومع إطباقهم على هذا فلم تسفر التجربة عن تصديق ذلك ، فقد بالغت في امتحانه بما لا يمكن أن يكون أبلغ منه في تطويق الأفاعي بقلادة من زمرد ، وفرش سلتها به ، وتحريك خيط أمامها منظور منها مقدار تسعة أشهر في زمانى الحر والبرد . لم يبق إلا تكحيلها به ، فما أثر في عينها شيئاً أصلاً إن لم يكن زادها حدة بصر » .

وفي شأن تكوين القشرة الأرضية وما طرأ على اليابسة والماء من تطورات خلال العصور تنبّه البيروني إلى حقائق لم تكن معروفة لأهل زمانه ، وهى اليوم من مسلّمات علم الجيولوجيا ، ومن ذلك قوله في كتاب « تحديد نهايات الأماكن وتصحيح مسافات المساكن » (١) .

« ينتقل البحر إلى البر ، والبر إلى البحر في أزمنة إن كانت قبل كون الناس في العالم فغير معلومة ، وإن كانت بعده فغير محفوظة ،

(١) مخطوط بمكتبة جامع القاتح باستانبول منسوخ في حياة المؤلف ، ولعله بخطه ، نقل عنه بعض الفقرات المستشرق كرنكو في « المجلد التذكاري » ص ٢٠٤ وما بعدها . وقد نشر النص العربى لهذا الكتاب بتحقيق المستعرب السوفيتى بولجاكوف فى المجلد الثامن من « مجلة معهد المخطوطات العربية » التابع لجامعة الدول العربية - القاهرة سنة ١٩٦٢ .

لأن الأخبار تنقطع إذا طال عليها الأمد ، وخاصة في الأشياء الكائنة جزءاً بعد جزء ، بحيث لا تظن لها إلا الخواص : فهذه بادية العرب وقد كانت بحراً ، فانكبس حتى إن آثار ذلك ظاهرة عند حفر الآبار والحياض بها ؛ فإنها تبدى أطباقاً من تراب ورمال ورضراض ، ثم فيها من الخزف والزجاج والعظام ما يمتنع أن يحمل على دفن قاصد إياها هناك ، بل تخرج منها أحجار إذا كسرت كانت مشتملة على أصداف وودع وما يسمى آذان السمك : إما باقية فيها على حالها ، وإما بالية قد تلاشت ، وبقي مكانها خلاء متشكلاً بشكلها .

كما يلاحظ البيروني في موضع آخر أن وادي نهر السند كان في الزمن البعيد بحراً طمرته المواد الغرينية التي يحملها النهر .

والجدير بالملاحظة في الفقرة التي نقلناها فيما تقدم أمران :

١ - أن البيروني كان يعلم أن تغيرات القشرة الأرضية كانت تحدث ببطء شديد « جزءاً بعد جزء » خلال ما نسميه اليوم بالعصور الجيولوجية « قبل كون الناس في العالم » .

٢ - وأنه كان يدرك حقيقة الحفريات التي يكشف عنها التنقيب في الطبقات الأرضية ، وأنها تمثل كائنات حية كانت تعيش في الأزمنة القديمة .

وهذان الأمران كانا مجهولين في العصور الوسطى ، بل ظلاً في أوربا محل أخذ وردٍّ إلى عهد غير بعيد ؛ ففكرة التطورات الأرضية البطيئة كانت تقابلها النظرية القائلة بأن كل تغير في ظاهر الأرض إنما كان ينتج عن حادثة مفاجئة أو « كارثة » مثل زلزال أو

بركان أو فيضان يمحو القديم ويحل محله الجديد ما بين يوم وليلة ،
وهى النظرية التى عاشت إلى زمن العالمين الطبيعيين الفرنسيين بوفون (١٧٠٧ -
١٧٨٨) وكوفيه (١٧٦٩ - ١٨٢٣) وكانا من معتقياها . أما الحفريات
فقد كانت حقيقة أصلها مجهولة ، وكانت الفكرة السائدة عنها فى أوربا
مجرد أحجار من نوع خاص إلى أن لاحظ ليوناردو دافنشى فى القرن
السادس عشر أنها لا بد أن تكون فى الأصل كائنات حية كانت تعيش
فى الزمن القديم . ومن بعده سار علم الحفريات فى الطريق الصحيح ،
وبدأ يأخذ شكله الحديث على يد المدرسة الإيطالية - وبخاصة أنطونيو
فاليسيرى - فى القرن السابع عشر وما بعده .

* * *

وعالمٌ هذه بعض أوجه سبّقه فى بعض أبواب العلوم الكثيرة التى
طرقها لا بد أن تكون قائمة كتبه حافلة بالعدد الجَم من المؤلفات ، وفى
هذا يقول ياقوت - بعد أن يمهد بتبرير لإدراجه ترجمة هذا العالم فى
« معجم الأدباء » ما يلى :

« وإنما ذكرته أنا ها هنا لأن الرجل كان أديباً أريباً لغوياً له تصانيف
فى ذلك . . . وأما سائر كتبه فى علوم النجوم والهيئة والمنطق والحكمة
فإنها تفوق الحصر ، رأيت فهرستها فى وقف الجامع بمرو فى نحو الستين
ورقة بخط مكتر » .

وقد استأنف فى عصرنا هذا حصر كتب أبى الريحان ومؤلفاته .
الأب جاك بوالو الدومنى ، فتتبعها فى مظانها ما بين مطبوع ومخطوط ،
وما بين موجود ومفقود ، فخرج بقائمة تحوى مائة وثمانين عنواناً ، ووصف

كل مؤلف منها مشيراً إلى موضوعه ومكان وجوده إن كان مخطوطاً ، وطبعاته إن كان مطبوعاً ؛ وسرد المراجع التي تشير إلى كل كتاب منها أو تناوله بالشرح أو الترجمة أو التعليق ، وختم هذه القائمة الحافلة بجداول صنف فيها كتب أبي الريحان بحسب فنون العلم المختلفة التي تناولها ، وحصر المخطوطات وأماكن وجودها إلى غير ذلك من الجداول المفيدة . وقد طبع هذا البحث بالفرنسية في « مجموعة معهد الدراسات الشرقية للآباء الدومنيكين » بالقاهرة سنة ١٩٥٥ ، وشغل من تلك المجموعة تسعين صفحة ونيفاً (١) .

وفي ضوء ما تقدم جميعه لا عجب إذا رأينا اسم البيروني قمة شامخة في تاريخ العلم ترنو إليها الأبصار ، وتقر بفضلها الألسنة ، ولا مبالغة إذن في قول المستشرق إدوار ساخار عن أبي الريحان : إنه من أضخم العقول التي ظهرت في العالم ، وإنه أعظم علماء عصره ، ومن أعظم العلماء في كل العصور ؛ ولا في قول مايرهوف : إن اسم البيروني أبرز اسم في موكب العلماء الكبار الواسعي الأفق الذين

(١) Boilot : L'Oeuvre d'Al-Beruni : Essai Bibliographique, dans Mélanges de l'Institut Dominicain d'Etudes Orientales, (Le Caire) 1955, pp. 161-256.

وصاحب هذا العمل القيم هو رئيس دير الرهبان الدومنيكين بالقاهرة ومدير معهدهم للدراسات الشرقية وهو مؤلف مقالة « البيروني » في الطبعة الجديدة من دائرة المعارف الإسلامية وفيها يقول : « إن وفاة البيروني كانت بعد سنة ١٠٥٠ م استناداً إلى مثل الحجة التي سبق أن ساقها مايرهوف ، وأشارنا إليها في حاشية صفحة سابقة » .

يُمَاز بهم العصر الذهبي للإسلام ، وكذلك قول الأستاذ فيليب حُتَّى :
إن البيروني يعتبر أعمق المفكرين المسلمين وأكثرهم أصالة في ميدان
العلوم الطبيعية والرياضية .

وقد لخص الأستاذ جورج سارتون مكانة البيروني العلمية في
عبارة وجيزة إذ قال في كتابه المعروف « المدخل إلى تاريخ العلم » :
إن النصف الأول من القرن الحادي عشر (الميلادي) يمثله - من وجهة
نظر العلم العالمي - البيروني أكثر مما يمثله ابن سينا .

ويقول المستشرق الأمريكي آرثر إيهام بوب :

« في أية قائمة تحوى أسماء أكابر علماء الدنيا يجب أن يكون لاسم
البيروني مكانه الرفيع ، وغير ممكن أن يكتمل أى تاريخ للرياضيات
أو الفلك أو الجغرافيا أو علم الإنسان أو مقارنة الديانات دون الإقرار
بمساهمته العظيمة في كل علم من تلك العلوم . ولقد كان البيروني
من أبرز العقول المفكرة في جميع العصور ، وكان يتميز بالصفات
الجوهرية التي تخلق العالم ؛ فالبيروني بذلك مظهر من مظاهر الشمول
وعدم التقيد بالزمن شأن العقول العظيمة ، وإنه لفي الإمكان تجميع عدد
كبير من الاقتباسات عن مؤلفات البيروني كتبها منذ ألف سنة ، وهي
تسبق كثيراً من المناهج ومن المواقف العقلية التي يفترض اليوم أنها
حديثه » (١) .

* * *

هذا التقدير العالي الذي يتمتع به البيروني لدى العلماء ومؤرخي



تمثال البيروني المعرض في متحف جامعة موسكو
(تصوير المؤلف)

العلم - وتلك بعض آياته لا كلها - تجلى في صورة مجسمة على يد جامعة موسكو التي يضم متحفها الجيولوجى تمثالاً نصفياً للبيرونى مع تماثيل سائر العلماء الكبار الذين ساهموا في خلق ذلك العلم . وقد كنت في زيارة تلك الجامعة في مبناها الفخم المطل على مدينة موسكو عبر نهر الموسكفا ، فطالعتني في المتحف الذى في الطبقة الثامنة والعشرين صورة البيرونى في تمثاله الذى يرى القارئ رسمه مع هذا الفصل ، وهذه علامة تقدير جديدة تضاف إلى كل ما سبق أن ناله أبو الريحان من إقرار العلماء له بالفضل في مشارق الأرض ومغاربها .

* * *

وفي الخمسينيات من هذا القرن كان تراث البيرونى العلمى محلَّ اهتمام خاص من المحافل العلمية في مختلف البلاد ، وذلك بمناسبة مرور ألف سنة هجرية على مولده ، فكان أن أصدرت أكاديمية العلوم في الاتحاد السوفيتى مجلداً بعنوان « البيرونى » يحوى مجموعة أبحاث ومقالات لعدد من الكتاب تحت إشراف المستشرق س . ب . تولستوف ، وقد نشر هذا المجلد في كلٍّ من موسكو وليننجراد سنة ١٩٥٠ في ١٣٩ صفحة (١) .

كما صدر في الهند مجلد آخر سنة ١٩٥١ بعنوان « المجلد التذكارى للبيرونى Al Biruni Commemoration Volume » نشر في كلكتا

(١) وانظر ثبناً بالكتب والبحوث التي نشرها المستعربون السوفيت عن البيرونى ومؤلفاته يحوى ٨١ عنواناً - في مجلة « أرابيكا » الجزء الأول من المجلد ٢٣ (فبراير ١٩٧٦) ص ٧٧ - ٨٣ .

حاوياً واحداً وعشرين بحثاً بلغات مختلفة (الإنجليزية والفرنسية والإيطالية والأوردية) لعدد من العلماء الشرقيين والمستشرقين ، وتتناول هذه الأبحاث جهود البيروني وأثره في علم الهيئة والجغرافيا الوصفية والدراسات الهندية والكيمياء ومقارنة الأديان وحساب المثلثات والجغرافية الرياضية والفلك ، فضلاً عن ترجمة حياة البيروني ، وبيان مكانته في تاريخ العلم بصفة عامة .

وانعقد في باكستان في أواخر سنة ١٩٧٣ مؤتمر دولي بمناسبة الذكرى الألفية للبيروني ، حضره علماء كبار من عدد من الدول الإسلامية ، وقدموا فيه أبحاثاً هامة عن تراث البيروني العلمي .

وفي يونيو ١٩٧٤ أصدرت هيئة اليونسكو عدداً خاصاً من مجلتها عن البيروني ، حوى ثمانى مقالات عن مختلف نواحي ذلك العالم الفذ ، ومن أهم ما اشتمل عليه ذلك العدد ترجمة فرنسية لمقتطفات تزيد على الثلاثين منتقاة من ستة من كتب البيروني ، وقد قامت بترجمتها عن النص العربي بتكليف من اليونسكو الدكتورة هيام أبو الحسين .

ابن بطوطة في الأندلس

يحتلُّ ابن بطوطة ، عن جدارة ، المكانَ الأول بين رحَّالي عصره ، فقد جاب من آفاق الأرض ما لم يَجِبْهُ غيره ، وقضى عمره في أسفار متواصلة ما بين المشرق والمغرب عني بتدوينها وتسجيل خط سيره فيها ، وإثبات أوصاف البلاد والشعوب التي زارها ، وملاحظاته عنها ، مما يعتبر إلى اليوم مرجعاً تاريخياً وجغرافياً لا غنى عنه للباحث .

وقد ذاع بين الناس من أخبار ابن بطوطة ، ذلك الجانب الخاص برحلته في بلاد الشرق : كالهند وجزر المحيط الهندي وإندونيسيا (بلاد الجاوه) والصين ، كما اشتهرت بينهم رحلته إلى إفريقية الغربية التي كانت أول نافذة أطلَّ منها سائر العالم على تلك البلاد المجهولة .

على أن رحَّالتنا قد وطأً بقدميه أرض بلاد كثيرة أخرى ، منها : إيران وأفغانستان وتركستان وروسيا وتركيا ، فضلاً عن أرجاء شبه الجزيرة العربية والعراق والشام ومصر والشمال الإفريقي ، حيث رأى رحَّالتنا النور في طنجة سنة ١٣٠٤ م وحيث مات في فاس سنة ١٣٧٧ م .

ومن عجب أن ذلك الرحالة المولع بالأسفار ، لم يفكر في زيارة الأندلس إلا بعد ربع قرن كامل من بدء تطوافه بالآفاق ، مع أنه وهو وليد طنجة ، كان يرى البرَّ الأندلسي على مرمى بصره خلال طفولته وصباه ، لكن شاءت الظروف ألا يرحل ابن بطوطة إلى الأندلس إلا متأخراً ولمدة

قصيرة بين رحلتيه الكبيرتين : الرحلة الشرقية التي دامت خمسة وعشرين عاماً من سنة ١٣٢٥ م إلى سنة ١٣٤٩ م ، والرحلة الإفريقية التي طاف فيها أرجاء السودان الغربي ، واستقرَّ به المطاف بعدها في مدينة فاس إلى أن لقي ربه .

ولم تظهر رحلة ابن بطوطة الأندلسية بمكان ملحوظ ، لا في كتاب رحالتنا الذي لا تشغل تلك الرحلة منه إلا بضع صفحات ليس لها في النسخ المطبوعة عنوان خاص بها ، ولا لدى القراء والباحثين الذين لم تسترع تلك الرحلة أنظارهم ، ولم تحظ باهتمامهم ، مع أنها لا تخلو من أهمية بالنسبة لتاريخ الأندلس في مراحلها الأخيرة قبل سقوط غرناطة ، وانسحاب العرب النهائي من إسبانيا .

ولا يحدد الشيخ أبو عبد الله تاريخ سفره إلى الأندلس ، لكنه يقول : « كان ذلك إثر موت طاغية الروم ألفونس » ، والمقصود هنا ألفونسو الحادي عشر : ملك قشتالة الذي مات سنة ١٣٥٠ م وهذا يتفق وما قرره ابن بطوطة في موضع آخر من رحلته ، إذ حدّد تاريخ وصوله إلى فاس ، وهو شعبان سنة ٧٥٠ هـ الموافقة لسنة ١٣٤٩ م . ومن سياق رحلته ؛ نعرف أنه سافر إلى الأندلس بعد أن قضى شهوراً ، قد تبلغ العام أو تزيد - متنقلاً بين فاس وطنجة وسبّطة ؛ فهو إذن لا يمكن أن يكون قد وصل إلى الأندلس قبل سنة ١٣٥٠ م التي مات فيها ألفونسو بالوباء ، وهو يحاصر جبل طارق .

* * *

ولكي ندرك الجوّ التاريخي الذي تمت فيه زيارة ابن بطوطة للأندلس ، ينبغي أن نذكر أنه في تلك الفترة كانت سياسة الاسترداد الإسباني للأندلس

العربية في عنفوانها ، وكانت أهداف مملكة قشتالة في القضاء على الحكم العربي في الأندلس ، وتوحيد إسبانيا قد تحددت ووضعت موضع التنفيذ ؛ فصارت المدن والحصون تسقط واحدة بعد الأخرى في يد القشتاليين ، وظلت رقعة الأندلس العربية تقلص ، ورقعة مملكة قشتالة تتسع حتى اقتصرت الأندلس ، آخر الأمر ، على غرناطة وحوزتها .

وكان العرب منشغلين بانقساماتهم الداخلية ، عاجزين عن ردّ الإسبان ؛ اللهم إلا بالاستعانة بإخوانهم عرب « العدو » في المغرب الأقصى .

فقد كان بنو نصر حكام غرناطة على صلات وثيقة ببني مرّين : سلاطين فاس ، وكثيراً ما تضافر عرب العدوتين على دفع الخطر القشتالي عن الأندلس العربية . فكان بنو مرّين ينجدون بني نصر بالجيوش تعبر إلى الأندلس من المغرب ، كما كان المرابطون والموحّدون من قبلهم ينجدون عرب الأندلس على عهدهم .

وكان آخر تلك المحاولات العربية المشتركة لإنقاذ ما بقي من الأندلس العربية ما وقع سنة ١٣٤٠ م أي قبل زيارة ابن بطوطة بسنوات معدودات . إذ عبر السلطان أبو الحسن المرّيني « الزقاق » بجيشه قاصداً نصرة سلطان غرناطة أبي الحجاج يوسف النصري ، فالتحمت الجيوش الأندلسية المغربية المتحدة بجيوش ألفونسو الحادي عشر ملك قشتالة في معركة طريف التي تعرف عند الإفرنج باسم : معركة ريوسالادو (٣٠ من أكتوبر سنة ١٣٤٠ م) فدارت الدائرة على العرب ، وكانت تلك الهزيمة آخر العهد بالتناصر بين عرب العدوتين على دفع تيّار الاسترداد الإسباني المستمر .

ولمعركة « ريوسالادو » عند الإسبان شأن عظيم وما زال بين الذخائر

التي يحتفظون بها إلى اليوم في كنيسة طليطلة الكبرى رايتان للسلطان أبي الحسن المريني كانتا من بين غنائم ملك قشتالة في تلك الحركة .

* * *

وبعد انتصار ألفونسو على العرب في معركة ريوسالادو بسنوات قلائل ، استولى على مدينة « الجزيرة الخضراء » بعد حصار طويل ، اشتركت فيه مع جيش ألفونسو قوات من المتطوعين من مختلف الممالك الأوربية من بينهم : الإيمل أف دربي الإنجليزى حفيد الملك إدوارد الثالث . وفى هذه الظاهرة - التى لا يفوتنا تسجيلها - ما يدل على طبيعة عملية الاسترداد الإسبانى فى نظر دول أوربا كلها ، فقد كانت حروب قشتالة ضد العرب تعتبر فى نظر الأوربيين امتداداً للحروب الصليبية التى لم تكذب أوزارها فى المشرق ؛ ففى كل من الشرق والغرب كانت أوربا تواجه العرب . وإذ كانت كفة العرب هى الراجحة فى الشرق فى تلك الفترة ، كانت كفة أعدائهم هى الراجحة فى الغرب ، وقد دام حصار الجزيرة الخضراء عشرين شهراً .

ويروى المؤرخون أن العرب استعملوا فى دفاعهم عن تلك المدينة البارود لأول مرة فى الحروب فى أوربا ، وتطلق المصادر الأندلسية على الآلات التى كان يستعمل فيها البارود اسم : « الأنفاط » ؛ وليس من المستبعد أن تكون تلك الأنفاط نوعاً من المدافع البدائية . ومما يرجح هذا الفرض أن إسبانيا ، وخصوصاً جنوب الأندلس ، هى من الأماكن القليلة فى العالم التى يوجد فيها ملح البارود على سطح الأرض ، ومن ثم فليس من المستبعد أن يكون العرب الأندلسيون قد صنعوا البارود ، واستعملوا

قوّته الدافعة في توجيه قذائف الحديد أو الحجر إلى العدو .

وبسقوط الجزيرة الخضراء في يد الإسبان - ومن قبلها طريف في سنة ١٢٩٢ م - أصبح جبل طارق هو الثغر الوحيد الباقي في يد العرب من ثغور الأندلس الجنوبية التي كانت مراكز للاتصال بين الأندلس والمغرب .

وقد كان لاستيلاء الإسبان على طريف ، ثم على الجزيرة الخضراء ، رنة أسف في العالم الإسلامي . وقد وصفه ابن بطوطة نفسه بأنه « صدع في الإسلام » وذلك قبل رحلته إلى الأندلس ؛ إذ يقول عن وصوله إلى بغداد : « وصلت في سنة ثمان وأربعين (وسبعمائة) ولقيت بها بعض المغاربة فعرفت بكائنة طريف ، واستيلاء الروم على الجزيرة الخضراء ، جبر الله صدع الإسلام في ذلك » .

ولا عجب فإن سقوط هذين الثغرين كشف عن فشل مملكتي غرناطة وقاس في توحيد قواتهما بصورة مُجدية لمواجهة الخطر الإسباني كما أدّى استيلاء الإسبان على طريف والجزيرة الخضراء إلى فقدان الموانئ المغربية في الجانب الجنوبي للمضيق لقيمتها ، حتى إن البرتغاليين لم يعجزوا عن الاستيلاء عليها بعد ذلك ، وعزّ على قوّات المغرب الدفاع عنها والاحتفاظ بها .

* * *

في هذا الجو من الكفاح بين العرب والإسبان ، غادر ابن بطوطة ميناء سبتة بحراً ، فوصل إلى جبل طارق ليصف ما أقامه فيه السلطان : أبو عنان المريني ملك المغرب ، وسلفه السلطان أبو الحسن من منشآت عسكرية هامة فيقول :

« وأول بلد شاهدت من البلاد الأندلسية جبل الفتح ، فلقيت به خطيبه الفاضل أبا زكريا يحيى بن السراج الرندى وقاضيه عيسى البربرى . وعنده نزلت وتطوفت معه على الجبل ، فرأيت عجائب ما بنى به مولانا أبو الحسن رضى الله عنه ، وأعد فيه من العدد وما زاد على ذلك مولانا (أبو عنان) أيده الله . ووددت أن لو كنت ممن رابط به إلى نهاية العمر . ويبدو أن أبا عبد الله لم يطل المكث في جبل طارق^١ ، بل سافر منها قاصداً غرناطة عاصمة مملكة بنى نصر - وهى البقية الباقية من الأندلس العربية - فسار أولا إلى مدينة رُنْدَة التى تقوم وسط منطقة تشتهر بزراعة الزيتون ، وكانت معقلاً هاماً يحمى مدينة مالقة من جهة الغرب . ويقول ابن بطوطة إنها : « من أمتع معاقل المسلمين وأجملها وضعاً » .

ويعدُّ أبو عبد الله كعاداته أسماء العلماء والفضلاء الذين زارهم في رُنْدَة ومن بينهم ، ابن عمه الفقيه أبو القاسم محمد بن يحيى بن بطوطة قاضى رُنْدَة . ولم ينزل ابن بطوطة في ضيافة ابن عمه هذا ، بل أضافه في رُنْدَة : « الفقيه القاضى الأديب أبو حجاج بن موسى المنتشاقرى »

ولم يشر ابن بطوطة إلى الطريق الذى سلكه من جبل طارق إلى رُنْدَة ، وهو مظهر من مظاهر الإيجاز الشديد الذى نلاحظه في وصف الرحلة الأندلسية أكثر من أى موضع آخر من كتاب « تحفة النظّار » ، لكنه لا بد أن يكون قد سلك الطريق الذى لم يزل مطروفاً حتى اليوم ، ويمر ببلدة « كنانة » المعروفة الآن باسم خيمانا Jimena مخترقاً في سيره غابات البلوط التى تشتهر بها تلك الأصقاع .

كانت إقامة ابن بطوطة في رُنْدَة ، قصيرة لم تزد على خمسة أيام استأنف بعدها سفره إلى مَرْبَلَة « والطريق فيما بينهما صعب شديد الوعورة . ومربلة بلدة حسنة خصبة » ، وهي ميناء على البحر الأبيض المتوسط ، وكانت في ذلك العهد تتبع مملكة المغرب بالرغم من وقوعها على شاطئ الأندلس ، شأنها في ذلك شأن جبل طارق ، ولم يقم ابن بطوطة فيما يبدو في مَرْبَلَة ، بل سار منها إلى مالقة ، وقد نجا في طريقه ذلك من خطر وقع فيه عدد من المسافرين كانوا قد تقدموه في الخروج من مربلة إلى مالقة ، فلقبهم بعض قراصنة الإسبان الذين نزلوا من سفنهم على الشاطئ ما بين مالقة ومربلة فقتلوا اثنين ، وأسروا باقي جماعة المسافرين هؤلاء ، واكتشف ابن بطوطة في طريقه فرسين مقتولين من خيل تلك الجماعة . وعند وصوله إلى حصن سهيل ، علم من قائده بخبر هذه الحادثة وما وقع فيها من قتل اثنين وأسر عشرة ، وأشار عليه القائد بالمبيت في الحصن حتى يتمكن في الغداة من توصيله إلى مالقة .

وكان ابن بطوطة يشاهد - من ذلك الحصن - سفن الإسبان - وهي أربع - راسية على الشاطئ ، وفي اليوم التالي ركب معه قائد الحصن إلى مالقة .

وهذه الحادثة التي تشهد بجرأة الإسبان على التزول إلى البر الأندلسي ، وارتكاب أعمال القتل والأسر فيه ، تقطع في الدلالة على أن السيطرة على « الزقاق » الفاصل بين المغرب والأندلس ، كانت قد انتقلت في ذلك الوقت نهائياً إلى أيدي الإسبان ، ولعل هذا هو السبب في أن ابن بطوطة قد اختار الطريق البري من جبل طارق إلى غرناطة دون الطريق البحري إلى

مالقة ، ثم منها إلى غرناطة ، وهو طريق أُيسر على المسافر ، ولكن خطورة الرحلة البحرية جعلته ولا شك يفضل الطريق الآخر .

ويقال ، وهو ما لم يذكره لنا أبو عبد الله ؛ على عادته في الإيجاز في هذه الرحلة الأندلسية : إن حصن سهيل الذي بات فيه رحالتنا ، سُمي بذلك الاسم لأنه يقع على جبل كان هو الموقع الوحيد في الأندلس الذي يمكن أن يرصد منه الكوكب سهيل ، أما حصن سهيل فلعله الحصن المعروف الآن باسم : حصن فنجرولا Fuengirola التي لا تزال بقاياها قائمة قرب الشاطئ في منتصف المسافة ما بين مربلة ومالقة .

وصل ابن بطوطة إلى مالقة^(١) ووصفها بأنها : « إحدى قواعد الأندلس وبلادها الحسان ، جامعة بين مرافق البر والبحر ، كثيرة الخيرات والفواكه . رأيت العنب يباع في أسواقها بحساب ثمانية أرطال بدرهم صغير ، ورومانها المرسى (نسبة إلى « مرسية ») الياقوتى لا نظير له في الدنيا . وأما التين واللوز فيجلبان منها ومن أحوازها إلى بلاد المشرق والمغرب . . وبمالقة يصنع الفخار المذهب العجيب ، ويجلب منها إلى أقاصى البلاد ، ومسجدها كبير الساحة شهير البركة ، وصحنه لا نظير له في الحسن ، فيه أشجار النارج البديعة (شأن معظم مساجد الأندلس) . ولما دخلت مالقة وجدت قاضيها . . قاعداً بالجامع الأعظم ، ومعه الفقهاء ووجوه الناس يجمعون مالا برسم فداء الأسارى الذين تقدم ذكرهم فقلت له : الحمد لله الذى عافانى ولم يجعلنى منهم ، وأخبرته بما اتفق لى بعدهم ، فعجب من ذلك ، وبعث إلى بالضيافة »

(١) في عصرنا هذا تحمل العبارة التي تنقل الركاب والسيارات بحراً بين مالقة

وطنجة اسم « ابن بطوطة » تخليداً لذكرى الرحالة العظيم وليد طنجة .

ولم يذكر لنا أبو عبد الله ، كم من الوقت أمضى في مالقة - تلك المدينة الكبيرة وميناء غرناطة - وكانت تستحق من رحالتنا أن يقضى فيها أياماً أو أسابيع ، ولكن يبدو أنه كان كعادته متعجلاً الوصول إلى مقصده ، فلم يمكث بمالقة ، كما لم يطل المكث بما مرَّ به قبلها من المدن ، بل سار منها إلى غرناطة وهي غاية رحلته هذه ، فمر مرور الكرام بمدينة بلّش Véloz ثم ببلدة الحمة (ألهاما Alhama) المشهورة - في ذلك الوقت ومن قبله ثم من بعده - بمياهها المعدنية التي يقصدها المرضى من مختلف أنحاء البلاد للاستشفاء في حماماتها .

وصل ابن بطوطة إلى غرناطة ، ووصف جمال موقعها وحسن بنيانها ، وذكر أنهارها وبساتينها ورياضها وقصورها ، لكن الذى يدهش له القارئ أنه لم يُشر بكلمة واحدة إلى درّة غرناطة وأعجوبتها التى لا تزال إلى اليوم تسترعى الأنظار ، وتجذب السائحين من أقاصى البلدان ، ألا وهى قصور الحمراء المشهورة . ولا نظن أن هذا الإغفال كان بدافع الإيجاز والاختصار ، إذ أن رحالة دقيق الملاحظة كابن بطوطة ، لا يمكن أن يفوته ذكر مثل تلك التحفة المعمارية ، ولعل سبب عدم ذكره للحمراء أنها لم تكن قد تجلّت في صورتها الأخيرة بعدُ في زمن زيارته : إذ أن كثيراً من معالم الحمراء - وبخاصة بهو السباع الذى لعله اليوم أشهر تلك المعالم - إنما بنى على عهد محمد الغنى بالله وهو الذى خلف يوسف أبا الحجاج ملك غرناطة الذى كان على العرش في زمن زيارة ابن بطوطة للأندلس .

ولعل هنالك سبباً آخر لما رأينا من إغفال ابن بطوطة وصف القصر الملكى في غرناطة وهو أنه فيما يبدو لم يدخل ذلك القصر إذ يقول : إنه لم يلق

السلطان أبا الحجاج يوسف « بسبب مرض كان به » .
 فلعل رحَّالتنا إذن لم يرَ الحمراء ، ولم يطرق « باب الشريعة » أشهر أبواب
 الحمراء ، الذى شيده أبو الحجاج يوسف فى سنة ١٣٤٨ م ، أى قبل
 وصول ابن بطوطة إلى غرناطة .

ولئن كان أبو عبد الله لم يدخل قصر الملك ، فإنه أقام فى صوامع
 النَّسَّاك : منهم شيخ المتصوفين : عمر بن محمد المحروق الذى أقام ابن
 بطوطة معه أياماً « بزايته التى بخارج غرناطة وأكرمنى أشد الإكرام » كما
 زار معه « الزاوية الشهيرة البركة المعروفة برابطة العقاب (وهو) جبل مطل
 على خارج غرناطة بأعلى ربض نجد من خارج غرناطة المتصل بجبل السبيكة »
 وهذا الجبل هو الذى تقوم عليه قصور الحمراء .

كما أقام رحَّالتنا يومين ليلة فى بستان الفقيه : أبى القاسم محمد بن
 أبى عبد الله بن عاصم (١) ، ويقول ابن جُزَيٍّ - كاتب ملك المغرب -
 الذى رافق ابن بطوطة فى هذه الرحلة فى الذهاب وفى العودة :
 « كنت معهم فى ذلك البستان ومتعنا الشيخ أبو عبد الله بأخبار رحلته ،
 وقيدت عنه أسماء الأعلام الذين لقيهم فيها ، واستفدنا منه الفوائد العجيبة » .
 وابن جُزَيٍّ كما هو معروف ، هو الذى كتب « تحفة النظَّار » من

(١) هذا الفقيه هو والد الإمام القاضى محمد بن محمد بن عاصم من أئمة
 المذهب المالكى ، ومؤلف « تحفة الأحكام فى نكت العقود والأحكام » وهى الأرجوزة
 المعروفة بالعاصمية ، ولا تزال من أهم متون المذهب ولها شروح أهمها : شرح التسولى
 وهو مطبوع فى مصر سنة ١٣١٧ هـ - وقد ترجمت العاصمية إلى الفرنسية أكثر من مرة ،
 وآخر ترجمة فرنسية لها نشرها معهد الدراسات الشرقية بمدينة الجزائر سنة ١٩٥٨ م .

واقع رواية ابن بطوطة بأمر ملك المغرب أبي عنان المريني .
وبعد فترة من الإقامة في غرناطة ، رحل عنها ابن بطوطة قافلاً إلى
المغرب ، متخذاً الطريق ذاته الذي سار فيه في قدومه إليها مع اختلاف
قليل . إذ مر في طريق العودة بحصن ذكوان بين مالقة ورندة ، كما مر
بقرية بني رياح بين رندة وجبل طارق ، ومنه ركب البحر إلى سبتة .

* * *

هذه هي رحلة أبي عبد الله محمد بن بطوطة الأندلسية ؛ والمطالع
لها لا بد أن يتساءل : لِمَ تأخرت هذه الرحلة وكان أولى أن يقوم بها رحالتنا
المغربي في أول عهده بالأسفار؟ كما أن ثمة سؤالاً آخر أكثر أهمية يخطر على
البال هو : ما هو الباعث على تلك الرحلة في ذلك الوقت ، وماذا كان غرض
ابن بطوطة منها ؟ .

يقول رحالتنا نفسه في صدر كلامه عن الرحلة إلى الأندلس :
« أردت أن يكون لي حظ من الجهاد والرباط فركبت البحر من سبتة . . .
إلى الخ .

غير أننا نكاد لا نصدق أن الباعث على هذه الرحلة ، كان رغبة ابن
بطوطة في أن يشترك بشخصه في جهاد أعداء العرب بالأندلس ، أو المراقبة
في الثغور والحصون الأندلسية ؛ فأبو عبد الله كان في زمن تلك الرحلة في
الخمسين من عمره ، والجهاد والرباط فرضٌ على الشباب قبل الشيوخ ؛
ثم إن مسلك أبي عبد الله في رحلته لا يتفق والعزم على الجهاد ، فهو لم
يمكث في ثغر جبل طارق إلا قليلاً ، ولم تتعدّ مرابطته فيه حدَّ التمني « ووددت
لو أُنّي ممن رابط به إلى نهاية العمر . . . » . ثم إنه لم يَبْتَ في حصن سهيل

إلا مضطراً خشية القراصنة الإسبان ، وطلباً للأمن في صحبة قائد الحصن الذى ركب معه في الغداة إلى مالقة ، وكان على الجملة في طول الطريق متعجلاً الوصول إلى غرناطة ، فلما وصلها أقام فيها أياماً ولم يلق ملكها « بسبب مرض كان به » فقفل عائداً من حيث جاء .

لنا إذن ألا نعلق كبير أهمية على ما صرح به أبو عبد الله من أن باعته على رحلته إلى الأندلس هو رغبته في أن يكون له نصيب من الجهاد والرباط ، ولنا على ضوء الظروف التاريخية التى تمت فيها الرحلة ، وعلى ضوء ظروف الرحلة نفسها ، أن نستنتج أن رحلة ابن بطوطة الأندلسية ، إنما كانت سفارة سياسية من ملك المغرب إلى ملك غرناطة بقصد توحيد الجهود العربية ضد الإسبان ، والدفاع عن كيان العروبة في إسبانيا ؛ ولكن تلك المحاولة فشلت ، بل لم يتمكن المبعوث من مجرد مقابلة ملك غرناطة بسبب مرض نكاد نظن أنه من نوع « المرض السياسى » .

وأدلتنا على هذا الفرض الذى نقول به كثيرة :

١ - إن ابن بطوطة لم يسافر وحده ، إنما صحبه كاتب ملك المغرب : ابن جُزَى وهو لم يحدث في أية رحلة أخرى قام بها الشيخ أبو عبد الله - وكان الاثنان معاً بمثابة وفد دبلوماسى من بلاط فاس إلى بلاط غرناطة .

٢ - لابن بطوطة سوابق في مثل هذا العمل السياسى بين دولة ودولة ، أو بين ملك وملك ؛ وسفارته لملك الهند لدى ملك الصين معروفة مشهورة .

٣ - كان ملك المغرب أبى عنان - ومن قبله لسلفه أبى الحسن - اهتمام بالغ بشئون الأندلس ، وقام كل منهما بأعمال هامة ، وشيّد منشآت كثيرة في جبل طارق ، ولا يمكن تفسير هذا كله إلا أنه تمهيد لعمل عسكرى

كبير في الأندلس ضد الإسبان .

وفي هذا الصدد يقول ابن جُزَيّ كاتب الملك وأمين سره والمطلع على دخيلة أمره :

« أظهر مولانا أيده الله من العناية ببلاد الأندلس ما لم يكن في حساب أهلها ، وبعث إلى جبل الفتح ولده الأسعد المبارك الأرشد : أبا بكر المدعو من السمات السلطانية بالسعيد أسعده الله تعالى ، وبعث معه أنجاد الفرسان ووجوه القبائل وكفاة الرجال ، وأدر عليهم الأرزاق ووسع لهم الإقطاع ، وحرر بلادهم من المغارم ، وبذل لهم جزيل الإحسان ، وبلغ من اهتمامه بأمور الجبل أن - أيده الله - ببناء شكل يشبه شكل الجبل المذكور ، فمثل فيه أشكال أسواره وأبراجه وحصنه وأبوابه ، ودور صنعته ومساجده ومخازن عدده ، وأهرية زرعه ، وصورة الجبل وما اتصل به من التربة الحمراء ، فصنع ذلك بالمشور السعيد فكان شكلاً عجباً أتقنه الصناع إتقاناً يعرف قدره كل من شاهد الجبل وشاهد هذا المثال ^(١) وما ذلك إلا لتشوقه أيده الله إلى استطلاع أحواله وتهممه بتحسينه وإعداده . والله تعالى يجعل نصر الإسلام بالجزيرة الغربية (إسبانيا) على يديه ويحقق ما يؤمله في فتح بلاد الكفار» .

وفي العبارة الأخيرة ؛ تصريح بما كان عزم أبي عنان قد انعقد عليه من قتال الإسبان ، ومحاولة إعادة فتح إسبانيا ؛ وفي صدور هذه العبارة من كاتب الملك نفسه ، ما يجعلنا لا نشك في أنها تصور ما كان يعتزمه الملك .

(١) قارن « نخبة الرمل » والمصورات المجسمة المستعملة في إعداد الخطط الحربية

٤ - إن موت ألفونسو الحادى عشر فجأة بالوباء بعد مثابرته على حصار جبل طارق عشرة أشهر ؛ قد أدّى بطبيعة الحال إلى رفع ذلك الحصار . ويحتمل جداً أن ذلك الظرف جعل ملك المغرب يقبل على اغتنام فرصة خلو الجو من العدو الذى انتصر على جيوش العرب المتحدة فى ريوسالادو قبل ذلك بعشر سنوات ، وكذا فرصة انشغال الإسبان بفترة انتقال بين ملك عظيم مات ، وملك جديد لم يعرف بعد من أمره شىء . فكل هذه ظروف من شأنها اعتبار ذلك الوقت وقتاً مناسباً للقيام بعمل عسكري مشترك بين عرب العدوتين ضد الإسبان .

أما إن أبا الحجاج يوسف ملك غرناطة لم يستجب لتلك اليد التى امتدت إليه عبر الزقاق ، بل تمارض كى لا يقابل مبعوثى ملك المغرب ، فأمرٌ يتفق وسياسة بنى نصر فى المدة الأخيرة من حكمهم ، وهى سياسة التذبذب بين المرينيين وبين الإسبان . إذ كانوا تارة يستنصرون بنى مرين على الإسبان ، وتارة يركنون إلى الإسبان ، ويدفعون لهم الجزية متجافين عن بنى مرين ؛ كل ذلك تبعاً لما كانوا يعتقدونه فى الإسبان من القوة أو الضعف ، وتحقيقاً لمصالحهم الشخصية العاجلة فى الاحتفاظ بعروشهم مهما كانت الوسيلة ، وهى سياسة وخيمة العقبي ، جرّت على بنى نصر وعلى العرب فى الأندلس الوبال فى نهاية الأمر .

ولعل أبا الحجاج يوسف ملك غرناطة ، كان قد لقي فى يوم طريف (ريوسالادو) ما جعله يخشى قتال الإسبان إلى آخر عمره ، أما أبو عنان ملك المغرب فلم يشهد ذلك اليوم ، إنما ولى العرش بعد سلفه أبى الحسن ، وكان ممتلئ النفس عزماً وتصميماً على جهاد العدو ، واسترداد ما كان قد

ضاع من أرض الأندلس العربية . وهكذا كان لكل من الملكين وجهة هو
 موليها ، فلم يكن من الميسور أن يلتقيا على أمر جامع .
 ولئن صحَّ الفرض الذى فرضناه ، وسُقنا على رجحانه القرائن المتقدمة ،
 تكون رحلة ابن بطوطة الأندلسية آخر محاولة لجمع شمل العرب فى المغرب
 وفى الأندلس ، فى عمل واحد ضد الإسبان ، وهى محاولة فشلت للأسف
 ولم يكتب لها التوفيق ، فكان آخر العهد بالتضامن العربى فى المغرب هو
 يوم « طريف » فى ٣٠ من أكتوبر سنة ١٣٤٠ م .
 ومنذ ذلك اليوم تُركت الأندلس وشأنها لتلقى مصيرها المحتوم إلى أن
 كان يوم سقوط غرناطة ، وخروج العرب نهائياً من إسبانيا سنة ١٤٩٢ م .

بين القاهرة وموسكو

١١٦٨ م ، ١٨١٢ م

سواء أكان التاريخ مجموعة أحداث تتلاحق على غير نظام معين ولا تربطها علاقة يمكن تبينها كما يرى المؤرخ هربرت فيشر ، أم كانت للتاريخ قوانين ثابتة تتوالى أحداثه على مقتضاها كما يرى شبنجلر وتوينبي ، فإن من حوادث التاريخ ما يتشابه - على تباعد الأزمنة وتباين الديار - تشابهاً لا يسع المتتبع لها إلا أن يلحظه ويسجله ، وإن كان خيراً له وأسلم أن يدع لفلاسفة التاريخ أن يقرروا : أصدقة بحثه لا ترجع إلى قانون أو نظام كان ذلك التشابه أم نتيجة قانون ثابت يوصل إلى النتيجة نفسها كلما اجتمعت لها الأسباب ، بحيث يكون شأن الأحداث التاريخية في ذلك شأن الظواهر الطبيعية التي يحكمها قانون السبب والمسبب .

فلنجنح إذن إلى ما فيه السلامة ، ولنترك مشكلة النظام التاريخي - أو الفوضي التاريخي - لفلاسفة التاريخ يتجادلون فيها إلى أن يقطعوا برأى ، ولنقتصر هنا على تسجيل حدثين هامين : أحدهما من تاريخنا القومي في العصر الوسيط ، والآخر من التاريخ الأوربي في العصر الحديث ، بينهما من التشابه ما لا يخفى على أدنى متتبع للتاريخ حظاً من قوة الملاحظة ، ومثل هذا التشابه هو الذي أوحى - ولا شك - بالقول الشائع : « التاريخ يعيد نفسه » .

في منتصف القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) كانت مملكة أورشليم اللاتينية تحتل جزءاً عزيزاً من الوطن العربي ، وتنظر بعين الطمع نحو مصر حيث كانت الدولة الفاطمية في دور الاحتضار ، على أن قوة عربية جديدة نامية كانت تقض مضاجع الصليبيين من الشرق والشمال ، تلك هي مملكة نور الدين محمود بن زنكي الذي تزعم في ذلك الحين المقاومة الإسلامية ضد الغزاة الدخلاء ، وكانت مصر بحكم موقعها وأهميتها وضعف الدولة الحاكمة فيها ميداناً لالتقاء هاتين القوتين في جولات متعددة انتهت بتوحيد الشام ومصر تحت سلطان واحد ، ما لبث أن امتد ، فشمّل غيرهما من الأقطار العربية ، وسرعان ما حانت على يديه بعد ذلك نهاية الصليبيين .

وفي نوفمبر ١١٦٨ م قدم ملك بيت المقدس آموري الأول مصر في محاولته الثالثة لغزوها ، والخليفة يومئذ العاضد الفاطمي ومتولى الأمر في مصر وزيره شاور ، ويبدو أن الملك الصليبي أقدم على حملته هذه في غير حماس متأثراً بضغط رجاله ومستشاريه الذين « أعلموه خلو مصر من الموانع ، وهونوا عليه أمرها ، فلم يجبههم ، فاجتمع إليه فرسان الفرنج وذوو الرأي فيهم ، وأشاروا عليه بقصدها وتملكها » ، غير أن الملك كان يخشى بأس جاره القوى نور الدين ، ولا يرى في الحملة على مصر في تلك الظروف مصلحة عاجلة ، وكان إلى ذلك يتوقع - خلافاً لرأي مستشاريه - مقاومة شديدة في مصر ، ليس من جيشها وحكومتها فحسب ، وإنما كذلك من شعبها وفلاحها ، كما كان يخشى أن يستعين المصريون عليه بإخوانهم السوريين ؛ إذ يروي ابن الأثير أن آموري قال لرجاله : « إن نحن

قصدها لتملكها فإن صاحبها وعساكره وعامة بلاده وفلاحها لا يسلمونها إلينا ، ويقاتلوننا دونها ، ويحملهم الخوف منا على تسليمها إلى نور الدين ، ولئن صار له فيها مثل أسد الدين (شيركوه) لكان هلاك الفرنج وإجلاؤهم من أرض الشام » فلم يقبلوا قوله ، وقالوا له : « إنها لا مانع فيها ولا حامى ، وإلى أن يتجهز عسكر نور الدين ويسير إليها نكون نحن قد ملكناها ، وفرغنا من أمرها ؛ حينئذ يتمنى نور الدين منا السلامة » فسار معهم على كره (١) . ومهما يكن من أمر فقد وصلت الحملة إلى بلبس في طريقها إلى القاهرة ، فاستولت عليها في الأول من صفر سنة ٥٦٤ هـ ، ٣ من نوفمبر ١١٦٨ م ، وأصاب أهل بلبس على أيدي الغزاة من القتل والفتك والأسر أهوال جسام ، وسار الجيش بعد ذلك حتى وصل إلى القاهرة ، فعسكر خارجها في بركة الحبش جنوبى الفسطاط بين جبل المقطم والنيل (منطقة أثر النبي الآن) ، واستعد الصليبيون للمعركة الفاصلة ، معركة الاستيلاء على عاصمة البلاد ومقر الخلافة ؛ وكان وصولهم في اليوم العاشر من صفر سنة ٥٦٤ هـ ، وعلى رأسهم الملك آمورى الأول Amaury 1er ، وتسميه الرواية العربية أحياناً « عمورى » وأحياناً أخرى « مرى » (بتشديد الراء) كما جاء في شعر عمارة اليمنى :

أخذتم على الإفرنج كل ثنية

وقلتم لأيدى الخيل مرى على مرى

لئن نصبوا فى البر جسراً فإنكم

عبرتم ببحر من حديد على الجسر

ويروى ابن الأثير هذين البيتين ، ويعقب عليهما بقوله : « ولفظة
 مرى في آخر البيت الأول اسم ملك الفرنج » (١) .
 نحشى شاور ألا يستطيع الدفاع عن الفسطاط وعن القاهرة معاً ؛
 إذ كانت الفسطاط خارج سور القاهرة وعلى مسافة منها إلى الجنوب الشرقى ؛
 فرأى أن يركز قواته في القاهرة ذاتها ، وألا يدع الفسطاط تسقط في أيدي
 الأعداء فيقوون بها وبما فيها من أقوات وأموال ؛ ولذا استقر الرأي على إحراقها
 ولا شك أن الوصول إلى ذلك القرار الخطير لم يكن أمراً هيناً ؛ إذ كانت
 الفسطاط أو « مصر » بالرغم من انتقال مقر الملك منها إلى القاهرة مدينة
 جليلة ذات أهمية تجارية كبيرة بوصفها أعظم ميناء نهري في مصر ، وكان
 الحرص على عمران الفسطاط وازدهارها والمحافظة عليها من الحريق بصفة
 خاصة مما يهتم له ولاية الأمور المصريون على توالى العصور وفي ذلك يروى لنا
 المقرئ في خطه : « أنه كان في مدينة الفسطاط في عهد والي مصر
 الأموي عبد العزيز بن مروان فرقة إطفاء من خمسمائة عامل لمكافحة
 حريق طارئ أوهدم ، وكانت أوامر الإضاءة أمام الدور والدكاكين

(١) قال الجواليقي في « المعرب » (ص ٦ - ٩) : « اعلم أنهم كثيراً ما يجترئون
 على تغيير الأسماء الأعجمية إذا استعملوها ، فيبدلون الحروف التي ليست من حروفهم إلى
 أقربها مخرجاً ، وربما أبدلوا ما بعد مخرجه أيضاً . والإبدال لازم لئلا يدخلوا في كلامهم
 ما ليس من حروفهم . . وربما خلطت العرب في الأعجمي إذا نقلته إلى لغتها . .
 وإذا كان حكى لك في الأعجمية خلاف ما العلامة عليه فلا ترينه تخطيطاً ؛ فإن العرب
 تخلط فيه ، وتكلم به مخلطاً ؛ لأنه ليس من كلامهم ؛ فلما اعتنقوه وتكلموا به ،
 خلطوا » .

منذ الدولة الفاطمية تشمل ضرورة وضع زير مملوء ماء أمام كل حانوت مخافة حدوث حريق في مكان ، فيطفأ عاجلاً بذلك الماء . ولما تعددت الحرائق في البيوت سنة ٤٠٥ هـ ، ١٠١٤ م أمر الحاكم بأمر الله باتخاذ القناديل على الحوانيت وأزيار الماء مملوءة وإزالة السقائف التي على أبواب الحوانيت وما يظلل الباعة ، فنفذت أوامره في الفسطاط والقاهرة . وفي سنة ٥١٧ هـ ، ١١٢٣ م أي قبل غزوة آموري أمر الوزير المأمون الوالين بمصر (الفسطاط) والقاهرة بإحضار رؤساء السقائين وأخذ التعهدات عليهم باستعدادهم للحضور كلما دعت الحاجة إليهم ليلاً أو نهاراً ، ورتب عدداً من العتالين لكي يبيتوا على باب كل معونة (مركز الشرطة) مع عشرة من الفعلة ومعهم الطوارق والقرب مملوءة بالماء على أن تتكفل الحكومة بنفقاتهم » (١) .

ذلك كان مبلغ حرص أولى الأمر على حفظ مصر من الحريق ، على أن الضرورات تبيح المحظورات ، وأن للحرب أحكاماً لا مناص من الجرى على مقتضاها تغلياً للمصلحة العليا على ما دونها ، وهكذا كان القرار التاريخي بإحراق الفسطاط . ولعل من تقرير الواقع أن يقال هنا : إن تلك المدينة العتيقة كانت قد فقدت من قبل غزوة الصليبيين الكثير من أهميتها الأولى ، وزال عنها ذلك الرونق والبهاء الذي تقرأه في أوصاف الرحّالين لها ، وآخرهم ناصر خسرو الفارسي الذي زارها قبل هذه الواقعة بأكثر من قرن ، والدليل على أن حال الفسطاط كانت قد بدأت في التدهور قبل حريقها في سنة ٥٦٤ هـ ماثل فيما يرويه ياقوت في معجم البلدان نقلاً عن

(١) حسن عبد الوهاب : « تخطيط القاهرة وتنظيمها منذ نشأتها » ص ٢١ .

ابن النحوى ، فهو يقول : « وكان السبب فى خراب الفسطاط وإخلاء الخطط حتى بقيت كالتلال أنه توالى فى أيام المستنصر بن الظاهر بن الحاكم سبع سنين أولها سنة ٤٥٧ إلى سنة ٤٦٤ هـ من الغلاء والوباء الذى أفتى أهلها ، وخرّب دورهم ، ثم ورد أمير الجيوش بدر الجمالى من الشام سنة ٤٦٦ هـ ، وقد عم الخراب جانبي الفسطاط الشرقى والغربى . وهنا تسرد الرواية أسماء الخطط والأحياء التى خربت واحداً واحداً ثم تستطرد : « فدخل أمير الجيوش مصر وهذه المواضع خاوية على عروشها ، وقد أقام النيل سبع سنين يمد ويتزل ، فلا يجد من يزرع الأرض ، وقد بقى من أهل مصر بقايا يسيرة ضعيفة كاسفة البال ، وقد انقطعت عنها الطرق وخيفت السبل . . . فلما دخل أمير الجيوش فسّح للناس والعسكر فى عمارة المساكن مما خرب ، فعمروا بعضه ، وبقى بعضه على خرابه ، ثم اتفق فى سنة ٥٦٤ هـ نزول الإفرنج على القاهرة ، فأضرمّت النار فى مصر لئلا يملكها العدو ، إذ لم يكن لهم بها طاقة » .

وعلى أية حال فإن أمر إحراق الفسطاط صدر فى التاسع من صفر قبل وصول الأعداء بيوم ، ونودى فى أهلها بالخروج منها إلى القاهرة ، فخرجوا فى لهفة وعجلة حاملين ما استطاعوا حمله من أثاثهم ومتاعهم تاركين ما عداه نهبة للغوغاء والبطالين . ويقال : إن أجرة الجمل بلغت فى ذلك اليوم المشهود ثلاثين ديناراً عن النقلة الواحدة من الفسطاط إلى القاهرة ، وإن أجرة الحمار بلغت عشرة دنائير ، وهكذا دخل أهل الفسطاط إلى القاهرة ، وآوتهم المساجد والحمامات والأسواق . ومن ضاقت عنهم تلك المنشآت باتوا فى الطرقات ، ثم أضرمّت النيران فى الفسطاط من كل

جانب ، واستعمل في ذلك عشرون ألف قارورة نפט وعشرة آلاف مشعل - وفي هذه الأرقام ما يدل على حجم تلك المدينة واتساعها بالرغم مما كان قد أصابها من تدهور واضمحلال - وهكذا ارتفعت ألسنة اللهب تأكل مدينة الفسطاط ، وتعالى الدخان في الجو حتى كان يرى على مسيرة ثلاثة أيام ، وإذا كان معسكر الأعداء إلى الجنوب من الفسطاط فقد اضطرتهم شدة النيران وتكاثف الدخان إلى الانتقال من ذلك المكان إلى جوار سور القاهرة عند باب البرقية - المنسوب إلى فرقة من جنود جيش المعز لدين الله أصلها من برقة - وكان المعسكر قريباً جداً من السور بحيث كانت سهام المدافعين عن المدينة تسقط في خيمة الملك آموري نفسه . ويشهد المؤرخون الإفرنج قبل العرب بأن القاهرة قاومت مقاومة عنيفة بأسلة بحيث لم يتسن للمهاجمين تحقيق غرضهم بالرغم من إحكام الحصار (١) ، ولا شك في أن الحريق كان له تأثيره في معنويات الجيش المهاجم ، إذ علموا ولا ريب أن قوماً يحرقون مدينة عزيزة عليهم حتى لا تقع في أيدي العدو هم قوم لا يسلمون عاصمة بلادهم أو يفنوا جميعاً دونها .

دمرت مدينة الفسطاط تدميراً في هذا الحريق الذي دام أربعة وخمسين يوماً ، فلم تحمد جذوته إلا في ٥ من ربيع الآخر سنة ٥٦٤ ٧ من يناير سنة ١١٦٩ (٢) ، وخربت النار معالم الفسطاط المشهورة ،

(١) شلومبرجر : حروب الملك آموري الأول - باريس سنة ١٩٠٦ ، ص ٢٠٤

وما بعدها .

(٢) ابن الأثير ج ١١ ، ص ١٣٦ ، وشلومبرجر ص ١٩٨ ، أما ابن إياس (بدائع =

وأهمها جامع عمرو ومسجد القرافة .

أما الأول فقد عمد صلاح الدين من بعد إلى ترميمه وإصلاحه ، ولكنه لم يلبث أن هجر وخرب من جديد لخراب المدينة التي كان جامعها ، إلى أن قام مراد بك في سنة ١٢١٢ م بإعادة بنائه - وهو البناء الذي لا يزال قائماً حتى الآن - وفي ذلك يقول الشاعر المعاصر متهمكاً بمراد بك :

ومسجد في فضاء ما عمارته

فوق الصيانة إلا لهو مختلق

كأن عمراً دعا : يا عاص هم به

ورمه رقعة في دينك الخلق

وأما مسجد القرافة فلم تقم له منذ ذلك الحين قائمة ، وكان من آيات العمارة العربية ، أنشأته زوج المعز لدين الله في سنة ٣٥٧ هـ ، ٩٦٦ م ، وقام برسمه حسن الفارسي ، وتولى زخرفته ونقشه جماعة من الفنانين من أهل البصرة ، وكان ذلك المسجد يفوق كل ما بنى في مصر قبله ، وكان مربع الزوايا ، وعلى جانبه أروقة كالجامع الأزهر ، غير أن النقوش التي على جدرانه كانت في غاية الإبداع ، وكانت المقصورة يدخل إليها من أربعة عشر باباً مربعة أمام كل باب قنطرة مقوسة على عمودين من رخام في ثلاثة صفوف ، وكانت الأبواب مدهونة بالأزرق والأحمر والأخضر ، كما

= الزهور ح ١ ، ص ٦٨) فيقول : « صارت النار عمالة في مدينة الفسطاط واحداً وخمسين يوماً » على أن رواية ابن إياس لا يوثق بها ؛ لأنه لم يكن معاصراً للأحداث ولا قريب العهد منها فضلاً عن أن في روايته أخطاء أخرى لا شك فيها سنشير إليها فيما يلي .

كانت السقوف ملونة بمختلف الألوان ، وكان أمام الباب الأوسط قنطرة على هيئة قوس ملونة بألوان مختلفة يكاد الناظر إليها يخالها شكلاً طبيعياً ، وقد حاول النقاشون أن يحاكوها فما استطاعوا^(١) ، وقد تلاشى ذلك كله فيما تلاشى من بدائع العمارة والفن في ذلك الحريق الهائل المروع .

وبينا كانت النار تلتهم مصر لم يكن المصريون يضيعون الوقت ، بل دخلوا مع العدو في محادثات تهدف إلى رحيله ، كما أرسلوا إلى نور الدين في الشام مستنصرين إياه على الأعداء ، ويبدو أن شاور كان يمد في حبال الأخذ والرد مع آمورى انتظاراً لورود الجواب من نور الدين ، ثم كسبا للوقت الذى يلزم لوصول الجيش السورى إلى مصر ، فظلت الرسائل والسفارات تروح وتجيء بين المدينة ومحاصريها ، ومن بين الرسائل التى بعث بها شاور إلى آمورى رسالة ذات مغزى احتفظ لنا بنصها صاحب «كتاب الروضتين في أخبار الدولتين» ، وفيها يقول شاور للملك الصليبي : «إن هذا بلد عظيم وفيه خلق كثير ، ولا يمكن تسليمه البتة ولا أخذه إلا بعد أن يقتل من الفريقين عالم عظيم ، وما تعلم أنت ولا أنا لمن الدائرة ، والرأى عندى أن تحقق دماء أصحابك ودماء أصحابى ، وتحصل شيئاً أدفعه لك ، فيحصل لك عفواً» .

ومضى شاور في سياسة إغراء آمورى على الجلاء بالمال ، فعرض عليه مائتى ألف دينار ، ولكن الملك الصليبي لم يكفه ذلك المقدار ، وحرضه كبار رجاله - وخاصة دى بلانسى Miles de Plancy على طلب المزيد ،

(١) ستانلى لينبول : «سيرة القاهرة» الطبعة الثانية ص ١٣٢ - ١٣٣ .

فتمسك بمبلغ ألف ألف دينار ، يعجل له منها مائتا ألف ، ويمهل هو المصريين بالباقي ، فتظاهر شاور بالقبول ، وهو - فيما يبدو - يضمّر عدم دفع شيء من ذلك المال ، وطلب إلى آمورى أن يتعد بجيشه عن القاهرة ليتمكن هو من جمع المبلغ المطلوب وتديره ؛ فانسحب الأعداء إلى المطرية ، وأقاموا بها ثمانية أيام فى انتظار ورود المال ، غير أن شاور زعم أنه لم يستطع أن يجمع أكثر من خمسة آلاف دينار ، وبعد تكرار السفارات بين الفريقين على غير طائل اضطر آمورى وجيشه إلى الانسحاب ، إذ علم بمقدم جيش نور الدين من سورية يقوده أسد الدين شيركوه ، ويصحبه ابن أخيه صلاح الدين ؛ ولم تكن هذه المرة الأولى ولا الأخيرة التى تتبادل فيها سورية ومصر النصرة والعون ضد العدو الغاصب والأجنبي الدخيل .

ومما أسهم فى حمل الأعداء على الانسحاب فشل الأسطول الذى كان إمبراطور القسطنطينية منويل كومنينوس قد أرسله لمساعدة الحملة الصليبية التى يقودها صهره آمورى ؛ إذ كان الأسطول قد وصل إلى مصب الفرع التنيسى - من فروع النيل القديمة ويسميه الجغرافيون العرب الأولون خليج سردوس ، وهو الآن ترعة البحر الصغير التى تتفرع عن النيل عند المنصورة ، وتصب فى بحيرة المتزلة - ودخلت سفن الأسطول النيل قاصدة الوصول إلى القاهرة لمعاودة الجيش المحاصر لها ، ونهب رجال الأسطول فى طريقهم مدينة تنيس ، غير أنهم لم يستطيعوا التقدم كثيراً بعد ذلك ؛ فقد تحققت مخاوف آمورى الأولى من المقاومة الشعبية المصرية ؛ وذلك إذ تعرض الفلاحون للأسطول ، وسدوا عليه مجرى النيل بكل ما وسعته أيديهم بما فى

ذلك مراكبهم الصغيرة بحيث تعذر على سفن الأعداء المرور ، وغرقت إحداها ، فلما علم آمورى بمحنة أسطوله أرسل فرقة من خيرة جيشه على رأسها همفري ذى تورون Humfroy de Toron نائبه فى قيادة الجيش وزوج ابنته إيزابيل ، بقصد احتلال ضفتى النهر أو إحداها على الأقل وتسهيل عبور سفن الأسطول ، ولكن قبل أن يتم شىء من ذلك بلغ آدان آمورى خبر قدوم جيش نور الدين ، فبادر بإصدار أوامره إلى سفن الأسطول بالرجوع القهقرى (١) وعاد هو نفسه على رأس جيشه الفاشل إلى مملكته عن طريق فاقوس التى مر بها المنشحبون فى ٢٤ من ديسمبر سنة ١١٦٨ م ،

(١) شلومبرجر ص ٢٠٨ - ٢١٥. قارن ابن إياس ح ١ ص ٦٧ - ٦٨ حيث يصور - على خلاف الواقع - أن الحملة الصليبية جاءت عن طريق البحر فالنيل ، وهى إحدى غلطات رواية ابن إياس التى قلنا إنها غير موثوق بها . وهالك عبارته الموجزة فى وصف هذه الحملة وحريق القسطنطين :

« ومن الحوادث فى أيام العاضد أن الفرنج استولوا على الديار المصرية ودخلوا بمراكبهم إلى بحر النيل ، ونزلوا على مدينة القسطنطين التى تقدم ذكرها ، لأنها كانت بالقرب من بركة الحبش من الرصد ، فأحاطت عساكر الفرنج بمدينة القسطنطين ، وأشرفوا على أخذها ، وكان ملك الفرنج يسمى مرى ، وكان معه نحو سبعين مركباً مشحونة بالمقاتلين ، فلما رأى الخليفة العاضد عين الغلب ، وصار الفرنج يأسرون جماعة من المسلمين وينهبون أموالهم ، وقرروا على أهل مصر والقاهرة أموالاً جزيلة ، وأخذوا فى أسباب جبايتها ، فعند ذلك أشار الوزير على الخليفة بحرق مدينة القسطنطين خوفاً من الفرنج أن يملكوها فأذن له الخليفة فى حرقها فجمع الوزير العبيد وأحرقوها . . . فلما أحترقت مدينة القسطنطين تحول الناس إلى القاهرة . قيل : بلغ كراء الجمل من مدينة القسطنطين إلى القاهرة عشرة دنائير لكل نقلة ، وصارت الناس عمالة فى مدينة القسطنطين واحداً =

ثم اجتازوا حدود مصر في ٢ من يناير سنة ١١٦٩ عائدين « بنحفي حنين » كما يقول ابن الأثير ، فلاهم استولوا على مصر ، ولا هم حصلوا المال الذي كانوا يوعدون .

هذه قصة حريق الفسطاط سنة ١١٦٨ م ، وعندى أن هذا الحدث الخطير لم يحتل في تاريخنا القومي مكانه اللائق به ، إذ لا يزال قليل الحظ من الذبوع والاشتهار ، والمؤرخون إن أشاروا إليه فإنما يسمونه « الحريق المشؤم » ، ويعتبرونه من مساوئ الوزير شاور وجنایاته على البلاد . والحق أنه مهما يكن الرأي في شخصية شاور وفي تذبذبه أول أمره بين نور الدين والصلبيين ، فإن إحراق الفسطاط كان ولا شك عملاً نادراً من أعمال الوطنية ، وتضحية اقتضاها - على جسامتها وفضاعتها - الدفاع عن كيان البلاد ، وليس كل شعب مستطیعاً الإقدام على تحريق بلده مفضلاً ذلك على تسليمه للأعداء ؛ فلنا إذن أن نعد هذا الحريق من أمجادنا الوطنية التي نباهی بها ، كما يباهى الروس بحريق موسكو الذي وقع في ظروف مشابهة بعد حريق الفسطاط بنحو سبعة قرون .

* * *

في أعقاب صيف سنة ١٨١٢ كان نابليون يسير على رأس جيشه الذي ضم جنوداً من كل دول أوربا التي أخضعها لسلطانه قاصداً مهاجمة

= وخمسين يوماً حتى صار الدخان يرى من مسيرة ثلاثة أيام ، فلما رأى الفرنج ذلك خافوا ورحلوا عن مصر .

روسيا ، وهى إحدى دولتين لم تحنيا الهامة للطاغية . ولا نطيل فى وصف سير « الجيش الأعظم » - كما كان يسمى - ولا فى تفصيل خطة الدفاع الروسية التى كان مبناهما أن الزمن والمسافة هما أهم سلاحين فى يد روسيا ؛ فليس هذا كله بيت القصيد ، وإنما نوجز فنقول : إن نابليون هزم الجيش الروسى فى معركة بورودينو - على بعد سبعين ميلاً من موسكو - فى يوم ٧ من سبتمبر سنة ١٨١٢ ، وهى معركة قاسية ، بل مذبة بشرية تحمل فيها كل من المنتصر والمهزوم أجسم الخسائر ؛ وبذلك أصبح الطريق إلى موسكو مفتوحاً أمام نابليون ، فسار إلى تلك المدينة التى طالما داعب فتحها خياله ، وأصبحت لجنوده الهدف المنشود والغاية الكبرى لزحفهم القاسى الطويل الذى نالهم فيه من الأهوال ما نالهم .

أنشئت موسكو كبلدة صغيرة متواضعة فى القرن الثانى عشر ، أى حوالى الوقت الذى وقع فيه حريق مصر ، ولكنها فى زمن الغزو النابليونى كانت قد غدت درة المدن الروسية ، مدينة زاهرة تمتد على مساحة من الأرض طول محيطها خمسون كيلومتراً ، وكانت تضم ٣٠٠ كنيسة ودير ، ويتردد عدد سكانها بين ٤٠٠,٠٠٠ فى الشتاء و ٢٥٠٠,٠٠٠ فى الصيف يقيمون فى ٩٢٥٧ بيتاً ، خمسها مبنى بالحجارة ، والباقى من الخشب ، وتشرف على بيوت المدينة المتسعة الأرجاء أبراج الكنائس الكثيرة ، وفوق ذلك كله قباب الكرملين مقر القياصرة العتيد الذى يحوى أغلى كنوز روسيا الفنية ، وتمثل فيه أبهة البلاط الروسى وفخامته . ويصف المؤرخ تير Thiers فى كتابه « تاريخ الإمبراطورية » مشهد وصول الجيش الفرنسى إلى موسكو وصفاً مؤثراً فيقول :

كان الجو صحواً ، وبالرغم من الحر فقد كان الجنود يبحثون الخطى لارتقاء تلك المرتفعات التي سوف تكتحل عيونهم من أعلاها بمنظر الحاضرة التي طالما ترقبوا فتحها ، وبمجرد وصولهم إلى قمة التل شاهد جنود الجيش الأعظم تحت أقدامهم فجأة مدينة ضخمة ، يتألق فيها ألف لون ، ويعلو بيوتها العدد الجم من القباب المذهبة التي تشع ضياء . . . شاهدوا خليطاً عجيباً من قصور وكنائس وأبراج وأشجار وبحيرات . . مدينة قوطية - بيزنطية ، يتمثل فيها كل ما يحكى عن عجائب الشرق وآسية ، وبينما كانت الأديرة ذات الأبراج تدور حول المدينة كان في وسطها على مرتفع من الأرض قلعة حصينة يجمع سورها في الوقت نفسه بين دور العبادة وقصور الأباطرة ، وتعلو الأسوار قباب فخمة ، تحمل في أعلاها الشعار الذي يتمثل فيه كل تاريخ روسيا وكل مطامحها « صليباً يعلو هلالاً منكساً » . هذه القلعة هي الكرملين مقام الأباطرة العتيد . وعند مشاهدة هذا المنظر الساحر استبد بالجنود الخيال ، وأخذتهم نشوة النصر ، فصاروا يصيحون كرجل واحد : موسكو . موسكو . . وإذ ذاك بادر زملاؤهم الذين كانوا لا يزالون عند سفح التل بارتقائه عدواً ، حتى لقد اختل نظام صفوفهم . وكان الجميع متطلعين إلى مشاهدة ذلك المنظر الآخذ بمجامع القلوب ، منظر تلك المدينة التي ساروا نحوها ذلك السير المضني الطويل الحافل بالأحداث ، ولم تكن نفوسهم لتشبع أبداً من ذلك المشهد المذهل الذي يثير فيها شتى المشاعر والانفعالات .

لم يكن لدخول نابليون إلى موسكو في ١٤ من سبتمبر ١٨١٢ شيء من سمات دخول الفاتحين ؛ فقد وجد المدينة العظيمة مهجورة ؛ إذ لم يبق

فيها من سكانها سوى ١٢,٠٠٠ إلى ١٥,٠٠٠ ، وانسحب منها الجيش الروسي ، كما هجرتها السلطات المدنية ، ونزل نابليون وأركان حربيه في الكرملين مقر القياصرة ، ولم يكد يستقر بهم المقام حتى شوهدت الحرائق في كل ركن من أركان المدينة ، ولم يلق الفاتح إليها بالاً أول الأمر ، ولكن سرعان ما تقاطر حملة الأنباء من كل صوب بصيحة واحدة ، هي أن موسكو تحترق

وقد ترك لنا الجنرال سيجور أركان حرب نابليون الملازم له وصفاً حياً لرد فعل هذا الحريق المفاجئ على سيده ؛ إذ يقول : « لقد كان يبدو على الإمبراطور أن النيران المحيطة بالكرملين تلتهم قواده ، فكان يهب بين لحظة وأخرى واقفاً ، ويمشي خطوات ، ثم يعود للجلوس ، وكان يخطو في أجنحة الكرملين بخطى سريعة ، وتتم حركاته عن قلق قاس . كان يترك عملاً عاجلاً ، ثم يعود له ، ثم يتركه من جديد ليسرع إلى النافذة يشاهد منها سير الحريق ، وكانت تند عنه صيحات مفاجئة قصار يتنفس بها عن مكنون صدره : أى منظر مرعب ؟ لقد فعلوها بأنفسهم . . كل هذه القصور ! أى إقدام غريب ؟ أى رجال هؤلاء ؟ إنهم إسقوتيون Scythes (١) لقد أحرق الروس مدينتهم المقدسة لعلمهم أن موسكو المخربة قبر لجيش الغزاة ؛ أما موسكو العامرة فهي - إن سقطت في أيديهم - سند لهم وقوة على الوطن الروسي ؛ ولذا نقلت القوات المنسحبة من موسكو معدات الإطفاء معها إلى خارج المدينة ، كما قام حاكم المدينة الكونت روستوبشين

(١) اسم القبائل التي كانت تقطن ما يسمى الآن « روسيا » قبل ظهور الأمة

الروسية الحديثة « يريد أن يصفهم بالهمجية والتوحش » .

Rostopchin بنقل محفوظات الدولة وكنوز القصور والكنائس إلى مدينة فلاديمير في روسيا الوسطى ، ثم جمع المواد الملتهبة ، وفتح أبواب السجون ، وأمر نزلاءها وغيرهم بإضرام النار في كل ركن من أركان المدينة ، بادئاً بقصره هو وبمخازن الخمر والكحول ، ثم بسائر نواحي موسكو حتى وصل مضرمو النار إلى الكرملين نفسه ، وقد ألقى الفرنسيون القبض في مكان من القصر على جندي بوليس روسي كان يقوم بإشعال النار ، وباستجوابه أجاب : بأنه إنما يتفد أوامر تلقاها من ضابطه ، فساقيه أمام نابليون الذي صرفه محققاً ، فلقاء الجنود الفرنسيون في ساحة القصر ، وقتلوه طعنًا بأطراف السنان . . .

دخل اسم روستوبشين التاريخ بوصفه مدبر حريق موسكو ، وليس معلوماً على وجه اليقين من دفعه إلى ذلك : أمن تلقاء نفسه أم لتنفيذ أوامر حكومته (١) ؟ . على أن روستوبشين حاول أن يبرئ نفسه في كتيب نشره في باريس سنة ١٨٢٣ بعد سقوط نابليون بعنوان : « الحقيقة عن حريق موسكو » ؛ ومع ذلك فإن من المؤرخين الفرنسيين من يقرر أن روستوبشين كان خلال إقامته في باريس كثير المباهاة بالدور الذي قام به

(١) دائرة المعارف الفرنسية : مادة « موسكو » - دائرة المعارف البريطانية : مادة روستوبشين - نورفان : تاريخ نابليون ج ٣ ص ٣١٥ وما بعدها (الطبعة الخامسة) - مادلان : القنصلية والإمبراطورية ج ٢ ص ١٥٩ . ويلاحظ أن دائرة المعارف البريطانية تحت مادة « موسكو » تقول : إن الحريق كان ناشئاً عن إهمال السكان ، وهو خلاف ما في سائر المراجع ، ويناقضه ما في مواضع أخرى من دائرة المعارف البريطانية نفسها .

في حريق موسكو (١) .

وبينما كانت النيران تأكل أعظم مدن روسيا ، وتعمل الرياح على نشرها في كل ناحية حتى غدت المدينة شعلة واحدة من نار ، كان موقف نابليون غاية في الحرج ، فالفتح الذي كان يظنه تنويجاً لحملته انقلب شركاً مميتاً له ولجيشه ؛ وهكذا حاول نابليون أن يحصل من القيصر ألكسندر على صلح ينهى به تلك الحرب التي كان فشلها يلوح في الأفق ، وتبدلت بين الطرفين مراسلات تذكرنا بالرسائل التي تبادلها شاور وآمورى في ظروف مماثلة قبل ذلك بقرون طوال ، ومن رسائل نابليون إلى ألكسندر واحدة يقول فيها :

« سيدى الأخ . . . إن موسكو الجميلة الفخمة لم يعد لها أثر ، وهذا عمل فظيع لا فائدة منه ؛ فهل أردت بذلك أن تقطع عني بعض الموارد ؟ لقد كانت المون في الأقبية التي لم تصل إليها النار ، فكيف أمكن أن تخربوا مدينة من أجمل مدن العالم ومن عمل القرون لغرض ضئيل كهذا ؟ لقد تسلمت المدينة التي تمخلى عنها الجيش الروسى مراعاة منى للإنسانية وإكراماً لجلالتكم ، وحرصاً على مصلحة المدينة نفسها ؛ وكان خليقاً على الأقل أن يترك فيها سلطات وشرطة كما حدث مرتين في فيينا ، ومرة في كل من برلين ومدريد ، كذلك في ميلانو سلكت فرنسا هذا المسلك لما دخلها سوفاروف . وقد حاربت جلالتيكم ، وليس في نفسى شئ منكم ، وإشارة منكم قبل المعركة الأخيرة أو بعدها كانت تكفى أن أوقف زحفى . . . فتقبلوا هذه الرسالة بقبول حسن ، وعلى كل فلعلكم تحمدون لى أنى أحطتكم

بالحوادث علماً» (١).

ولم يكن عند نابليون وهو محصور بين ألسنة اللهب في موسكو من يحمل رسالته هذه إلى القيصر سوى ضابط روسي صغير من الأسرى كان جوابه ، حين كلفه الإمبراطور تلك المهمة ، أن تنصل منها أولاً ، ثم انتهى إلى أن قال : « لا أستطيع أن أعد بشيء » .

على أن هذه الدعوة إلى الصلح لم تلق أذناً مصغية من الروس الذين كانوا قد صمموا على تطهير وطنهم من الغزاة ، فلم يجد نابليون بداً من مغادرة موسكو - أو ما تبقى منها - في يوم ١٩ من أكتوبر سنة ١٨١٢ والانسحاب من روسيا بقلوب « الجيش الأعظم » التي لاقت في أثناء سيرها الطويل - في الانسحاب التاريخي - من الأهوال ما سجلته صفحات التاريخ في صور حية لا ينساها العالم أبداً ، وكان هذا الانسحاب بداية النهاية لنابليون طاغية أوربا .

ولقد أتى حريق موسكو على تلك المدينة العظيمة ، فلم يبق من بيوتها الحجرية البالغة ٢٦٠٠ بيت سوى ٥٢٥ بيتاً فقط ، كما أنه لم يسلم من البيوت الخشبية إلا ١٧٩٧ بيتاً من مجموع ٦٦٠٠ بيت ، ودمرت النيران ما لا يحصى من القصور والكنائس والمنشآت العامة ، وقدرت خسائر الحريق بمبلغ ٣٢١ مليون روبل ، غير أن الغرض من الحريق قد تحقق ، إذ سلم الوطن الروسي من خطر الغزو والسيطرة الأجنبية ، واضطر المهاجمون إلى الانسحاب صاغرين .

* * *

(١) لودفيج : نابليون (ترجمة الأستاذ محمود الدسوقي) ج ٢ ص ٤٦ - ٤٧ .

هذان حدثان يفصل بينهما في الزمان ستائة عام ونيف ، وفي المكان ما بين مصر وروسيا ، على أن التشابه بينهما مع ذلك تام : ففي كل منهما نرى شعباً صمم على مقاومة العدو ، واسترخص في سبيل إنقاذ الوطن كل غال ، فضحى بماديات حضارته لكي تخلص له معنوياتها غير مشوبة بسيطرة دخيل أو تحكم أجنبي ، وهما مثالان غاليان سيخلدهما التاريخ بين أمثلة الوطنية السامية والفداء العظيم .

قنوات السويس القديمة

في صيف سنة ١٩٥٥ احتفل في إيطاليا بالذكرى المئوية لشق قناة السويس ، تنفيذاً للخطة التي وضعها المهندس الإيطالي لويجي نجريللي ، والإيطاليون قصدوا من وراء هذا الاحتفال ولا شك إلى تمجيد ذكرى مواطنهم الذي وضع خطة حفر القناة ، شعوراً منهم بأن دى لسبس قد احتكر كل فضل يتعلق بالقناة في أذهان الناس .

غير أن الصحيح أن هذه الذكرى المئوية كانت ذكرى انتهاء نجريللي من رسم الخطة لا ذكرى البدء بشق القناة ، فالمعروف أن العمل في شق قناة السويس قد بدأ في ٢٥ أبريل سنة ١٨٥٩ عند موقع بور سعيد الحالي ، وسار العمل فيها على أساس خطة نجريللي ، مع تعديلات طفيفة أدخلتها عليها لجنة دولية شكلتها شركة قناة السويس .

والعهد بفكرة وصل البحر الأبيض المتوسط بالبحر الأحمر قديم جداً ، غير أن نهر النيل لعب في العصور القديمة الدور الأول في وصل مياه البحرين ، أما فكرة القناة البحرية التي تشق رأساً برزخ السويس من البحر إلى البحر فلم تظهر كفكرة مجردة إلا في القرن السادس عشر ، وأصبحت قاب قوسين من التنفيذ على بدء الحملة الفرنسية ، غير أنه لم يكتب لها أن تظهر إلى حيز الوجود إلا في النصف الثاني من القرن الماضي .

وتعزى أول قناة وصلت بين البحر الأبيض والبحر الأحمر عن طريق النيل إلى الفرعون سبتى الأول أو إلى ابنه رمسيس الثانى ، وقد وردت الإشارة إلى هذه القناة فى كتابات الفيلسوف أرسطو والجغرافيين بلىنى وسترابو منسوبة إلى « سيزوستريس » ، وهو اسم كان يطلقه الإغريق على فرعون من فراعنة مصر لم تعرف شخصيته على وجه التحديد ، مما حدا ببعض المؤرخين إلى اعتباره شخصاً خرافياً ، على أن غالبيتهم تعتقد أن صاحب هذا الاسم هو رمسيس الثانى ، وعلى أية حال فالذى يتضح من بعض نقوش معبد الكرنك أن هذه القناة كانت موجودة أيام سبتى الأول أى حوالى سنة ١٣٨٠ ق . م .

ويبدو أنه قد طمرتها الرمال على توالى السنين ، إذ يذكر لنا المؤرخون أن الفرعون نخو ابن ابسماتيك قد أعاد حفرها سنة ٦٠٢ ق.م ويقول المؤرخ هيرودوت : إن مائة وعشرين ألفاً من المصريين قد هلكوا فى سبيل إنجاز هذا المشروع الذى لم يقدر له أن يتم ، إذ يقال : إن نخو سمع هاتفاً يحذره من إتمام حفر القناة حتى لا يستفيد منها الأعداء فعدل لهذا السبب عن إتمام ما كان قد شرع فيه .

وبعد غزو الفرس لمصر قام داريوس بحفر القناة من جديد ويقال إن عرضها كان ١٥٠ قدماً ، وعمقها ٢٠ قدماً ، وكانت تتسع لسفینتين كبيرتين ، إحداهما صاعدة والأخرى هابطة .

وكانت هذه القناة فى عصرها الأول تأخذ من الفرع البيلوزى ، وهو من فروع النيل القديمة التى تلاشت ، وكان أقصى تلك الفروع شرقاً ، فكان بدء القناة من هذا الفرع عند مدينة بوباستيس (تل بسطة)

قرب الزقازيق ومنتهاتها عند البحيرات المرة في موقع كان يسمى «هيروبوليس» عند الإغريق ويعرف اليوم «بتل المسخوطة» ومن هناك كانت السلع تنقل براً إلى السفن الراسية عند رأس خليج السويس ، فلم يكن الاتصال المائي بين البحرين كاملاً إلى أن عمد بطليموس فيلادلفوس سنة ٢٨٥ ق . م . إلى إيصال القناة للبحر الأحمر في موقع قريب من مدينة السويس الحالية ، وشيد عند التقائها بالبحر مدينة «ارسينوى» . وفي العصر الروماني تولى الإهمال على هذه القناة حتى طمت معظم أجزائها ، ولم يرو التاريخ طوال عصر الرومان من أعمال الاهتمام بهذه القناة إلا ما حدث في عهد الإمبراطور تراجان من مد القناة من مدينة بوباستيس إلى بابلون (مصر القديمة) ، وعرف هذا الجزء من القناة باسم «نهر تراجان» عند الرومان .

فلما كان الفتح العربي أعاد عمرو بن العاص حفر هذه القناة التي عرفت باسم خليج أمير المؤمنين ، ووضح أن القصد من حفرها هو تسهيل المواصلات مع الجزيرة العربية مركز الدولة . وينقل على باشا مبارك في خطته من أقوال المقرئى وغيرها أن هذا الخليج بعض من خليج قديم كان مستعملاً في الأزمان الغابرة في الملاحة ، وموصلاً بين النيل والبحر الأحمر ، وكانت بواسطته تدخل إلى مصر تجارة بلاد العرب والهند . ويروى السيوطى عن ابن عبد الحكم عن الليث ابن سعد : أن سبب حفر هذا الخليج على يد عمرو بن العاص أن الناس بالمدينة أصابهم قحط شديد فكتب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى عمرو يسأله الغوث من خيرات مصر ، ويستعجله إرسال الإمداد

فاستحسن عمرو أن يحفر هذه القناة ، للإسراع بإرسال الأطعمة إلى الحجاز على وجه لا يتيسر بوسائل النقل البرية . ومن أقوال المؤرخين ما يفهم منه أن هذا الخليج كان صالحاً للملاحة إلى عهد عمر بن عبد العزيز ويبدو أن الإهمال قد امتد إليه بعد ذلك ، فردمت بعض أجزائه على أن آثارها ظلت باقية حتى عصر الحملة الفرنسية ، وأثبتها علماء الحملة الذين كانوا يبحثون مشروع قناة السويس ، كما أن أجزاء أخرى من « خليج أمير المؤمنين » ظلت باقية إلى عصر محمد علي ، وكان الجزء من القناة القديمة بين موقع بوباستيس وبين القصاصين صالحاً للملاحة أيام فيضان النيل ، بل إن مبدأ القناة عند القاهرة ظل موجوداً إلى أن أزالته الحكومة سنة ١٨٩٧ ، وهو ما لا يزال يذكره ولا شك المعمرون من القاهريين ، وإن كان بعضهم لا يدرك أن ذلك « الخليج » كان البقية من خليج أمير المؤمنين الذي احضره عمرو بن العاص . وبرغم ظهور فكرة القناة البحرية المباشرة في العصور الحديثة ، فإن فكرة القناة النيلية لم تعدم الأنصار ، إذ قام المهندس الفرنسي تالابو سنة ١٨٤٦ بعمل مشروع لقناة تصل ما بين الإسكندرية والسويس عن طريق القاهرة ، وتستغل فيها فروع النيل في أغلب طولها ، وكان هذا المشروع محل بحث جدى إلى ما قبل تنفيذ مشروع نجريللى واختارته « جمعية الدراسات العلمية لقنال السويس » التى كانت مشكلة فى فرنسا من بين عدة مشروعات تقدم بها إليها المهندسون .

أما فكرة القناة البحرية التى تشق برزخ السويس فقد دأبت أفكار البنادقة خلال القرن السادس عشر ، بعد اكتشاف طريق رأس الرجاء

الصالح ، ويقال إنهم فاتحوا سلطان تركيا في ذلك المشروع فلم يجدوا منه
أذناً صاغية ومن الأغلاط الشائعة ما يقال من أن الفيلسوف الألماني لينتر
هو أول من نادى بإنشاء قناة تصل البحرين عبر برزخ السويس ، وذلك
في التقرير الذي رفعه إلى ملك فرنسا لويس الرابع عشر سنة ١٦٧١
والذي اشتهر بعنوان « النصيحة المصرية » *Consilium Aegyptiacum*
والحقيقة أن هذا التقرير لا يحوى أية إشارة إلى مثل هذا المشروع وإن
تضمن الإشارة بموقع مصر الجغرافى الممتاز والنصح لملك فرنسا بغزو مصر
وضمها إلى أملاكه ، ويرى الكثيرون أن لينتر كان يرمى بهذه النصيحة
إلى صرف نشاط لويس الرابع عشر الحربى إلى وجهة أخرى غير غزو
الوطن الألمانى ، وذلك تحت ستار المناداة بأن دول أوربا يجب ألا يعادى
بعضها بعضاً ، بل ينبغى أن تصرف جهودها إلى إخضاع العالم « غير
المسيحى » لسلطانها ! وغنى عن القول أن « النصيحة المصرية » لم تسفر
عن شىء سواء بشأن القناة أو بشأن غزو مصر .

وقد بدأ البحث الجدى فى شق قناة السويس البحرية مع أبحاث
علماء الحملة الفرنسية التى عاقها عن بلوغ غايتها الخطأ المعروف الخاص
باختلاف منسوبى البحرين ، إلى أن تم إعداد المشروع ثم تنفيذه فى
النصف الثانى من القرن التاسع عشر على ما هو معلوم ومشهور .

من مهمل تاريخ الإسكندرية

غزوة القبارصة سنة ١٣٦٥

(١)

في أواخر القرن الثالث عشر الميلادي . كان ظل الصليبيين قد تقلص عن الشرق ، وزالت من الوجود مملكة أورشليم وتوابعها في ديار الشام . . غير أن الحروب الصليبية تركت ذيولاً في بعض جزر الجانب الشرقي من البحر الأبيض ، فكانت جزيرة رودس معقلاً لفرسان القديس يوحنا - الذين عرفوا من ذلك الوقت بفرسان رودس - كما كانت جزيرة قبرص مقراً لمملكة يتولاها ملوك فرنسيون من أسرة لوزنيان ، التي كان مؤسسها جي دي لوزنيان قد اشترى الجزيرة من فرسان المعبد ، الذين كانوا بدورهم قد اشتروها من ريتشارد قلب الأسد ، الذي كان قد تملكها بالفتح في القرن الثاني عشر .

ومنذ سنة ١٣٦٠ كان بيير لوزنيان ملك قبرص يحاول أن ينفخ في رماد الحروب الصليبية . ويدعو دول أوروبا المسيحية إلى استخلاص الأراضي المقدسة من أيدي الدولة المصرية التي كانت تبسط سلطانها في عهد المماليك الأتراك على مصر والشام ، وبرغم أن معظم الدول الأوربية قد أصمت أذنًا عن دعوته ، فقد استطاع بيير لوزنيان أن يجمع حوله من المتطوعين والمرتزة من نواحي أوروبا ، وقام بعدة هجمات على شواطئ مصر والشام ، حاز في بعضها انتصارات وقتية غير ذات بال ، وانتهت

هذه المحاولات بالفشل التام وآل أمر بيير نفسه إلى الموت غيلة سنة ١٣٦٩ بتدبير من أخيه الذى أراد أن يخلفه على العرش . ويطلق بعض المؤرخين على هذه الهجمات وغيرها مما شهده القرن الرابع عشر من المحاولات الصليبية المتأخرة اسم « شبح الحروب الصليبية » .

(٢)

وكان للإسكندرية نصيب من هجمات الصليبيين القبارصة على سواحل مصر والشام ، إذ جاءوها غازين فى أكتوبر سنة ١٣٦٥ ، ولا غرو فإن للإسكندرية من موقعها الجغرافى وأهميتها التجارية ما كان حرياً أن يلفت إليها أنظار المهاجمين .

وتقول المصادر : إن بيير لوزنيان كانت له خطة من وراء غزو الإسكندرية ، مؤداها الاستيلاء على المدينة ، ثم المقايضة عليها بمدينة القدس ! وقد قام شخصياً بزيارة بلاط أكثر من ملك من ملوك أوروبا ، محاولاً إقناعهم بفكرته والحصول منهم على الدعم المالى والعسكرى ، ومن ذلك رحلته إلى لندن فى أكتوبر سنة ١٣٦٣ ، حيث استقبله ملك إنجلترا إدوارد الثالث وكان فى لندن وقتها جان الثالث ملك فرنسا ، ودافيد الثانى ملك إسكتلندة ، وكأن اجتماع هذا العدد من ملوك أوروبا للاستماع إلى ملك قبرص كان بمثابة « مؤتمر قمة » مصغر للتنسيق والإعداد للحملة الصليبية على الإسكندرية .

وهذه الحملة على طرائقها وأهميتها لم تظفر من المؤرخين بكبير عناية ، بل إن قلة ما وصلنا من أخبارها أدت إلى اختلاف بين المؤرخين ، سواء القدامى

أو المحدثين - في بعض تفاصيل هذه الغزوة التي تعتبر الغزوة الوحيدة التي تعرضت لها الإسكندرية من البحر طوال العصور الوسطى ، بل إلى عهد الحملة الفرنسية باستثناء محاولة فاشلة قام بها فرنج صقلية سنة ٥٦٩ هـ (١١٦٧ م) . . إذ قدموا الإسكندرية في أسطول كبير ، وتمكنوا من النزول إلى البر خارج الأسوار ، ولكنهم سرعان ما انقلبوا على أعقابهم مهزومين . وهناك لحسن الحظ مرجعان هاما لتاريخ غزوة القبارصة سنة ١٣٦٥ : أحدهما بقلم أجنبي ، والثاني بقلم مصرى ، وكلاهما معاصر . . بل إن أحدهما كان شاهد عيان .

وأول هذين المرجعين هو الملحمة الشعرية الطويلة التي نظمها جيوم دى ماشو شاعر ملك قبرص ، المعروفة باسم « الاستيلاء على الإسكندرية » . . . وهي منظومة بلغة فرنسية عتيقة لا تخلى الباحث من بعض المشقة في تتبعها وتفهم معانيها ، والظن الغالب أن شاعر ملك قبرص لم يكن مصاحباً للحملة ، وإنما نظم هذه الملحمة فيما بعد على أساس ما سمعه من الملك ورفقائه من روايات عنها . . . وقد طبعت هذه الملحمة في جنيف سنة ١٨٧٧ .

والمرجع الثاني هو لكاتب من أهل الإسكندرية ، هو محمد بن القاسم ابن محمد النويرى ، شهد غزوة القبارصة وكتب عنها كتاباً بعنوان : « الإلمام بما جرت به الأحكام المقضية في وقوع الإسكندرية » . . . ولا يزال هذا الكتاب مخطوطاً ، ومنه نسخة في مكتبة برلين ، توجد منها نسخة مصورة في كل من دار الكتب بالقاهرة والمكتبة البلدية بالإسكندرية ، وحبذا لو قبض لهذا الكتاب من الباحثين من يحقق نصه وينشره مطبوعاً حتى تعم به الفائدة ، فإن فيه مادة غزيرة ليس فقط عن هذه الفترة وإنما عن تاريخ

الإسكندرية وجغرافيتها في العصر الإسلامي عموماً ، وذلك لكثرة الاستطرادات التي عمد إليها المؤلف كعادة الكثير من الكتاب في ذلك العهد .

وأسلوب النويرى في هذا الكتاب ليس من الأساليب العالية ، فهو يعكس طابع العصر المملوكى من ضعف الديباجة وطغيان الصنعة الركيكة على الطبع السليم .

وسيكون جل اعتمادنا في هذا الفصل على هذين المرجعين ، إذ فيهما من التفاصيل عن غزوة الصليبيين القبارصة ما ليس في غيرها من المراجع ، ولا غرو فقد توفر للشاعر الفرنسى وللمؤرخ السكندرى ما لم يتوفر لغيرهما من العلم المباشر بالوقائع التي تناولها ، وسيبين من اتفاق هذين المرجعين في كثير من الحوادث ما وقع فيه سائر المؤرخين من أخطاء في بعض تفاصيل تاريخ هذه الغزوة وعلى الأخص مدة احتلال القبارصة لمدينة الإسكندرية .

(٣)

ولئن كانت حملة بيار لوزنيان على الإسكندرية - منظوراً إليها من المدى الزمنى الذى يفصلنا عنها - ذيلًا من ذبول الحروب الصليبية فإن النويرى وهو المعاصر لها يورد لها مقدمات لا يمكن اعتبارها أسباباً للحملة بالمعنى الصحيح ؛ إذ أغلبها أقرب إلى الظروف الثانوية المشجعة منها إلى الأسباب الأصلية المنشئة ، وها هى بالترتيب الذى أوردها به النويرى فى الأوراق من ٩٣ إلى ٩٧ من المخطوطة . .

١ - إن السلطان الصالح صلاح الدين بن الملك الناصر محمد بن الملك المنصور قلاوون كان قد منع النصارى من تولى الأعمال بالدواوين ، وألزمهم بلبس خشن الثياب ، وأن تلبس نساؤهم الأزرق تمييزاً لهن عن نساء المسلمين ، وقد أدى هذا المسلك نحو النصارى إلى تهجم عوام المسلمين عليهم بالضرب والإهانة ؛ يقول النويرى : « فكان ذلك - والله أعلم - سبباً لهيجان القبرسى وطوافه بأرض الرومانية وجمعه للصووص وحشره بهم إلى الإسكندرية » .

٢ - إن « بطرس صاحب قبرص » (كما يسميه النويرى) كان قد أرسل إلى السلطان الملك الناصر حسن يسأله السماح له بالتوجه إلى مدينة صور ليجلس على عمود بها كعادة كل من يملك جزيرة قبرص « لأنه لا يتم له ملكها بزعمهم إلا بالجلوس على ذلك العمود » فكان رفض هذا الطلب من البواعث على شن الحملة على الإسكندرية .

٣ - إن مركباً فيه لصووص من الإفرنج حضر إلى ميناء الإسكندرية في شوال سنة ٧٥٥ ، فاستولى على مشحونات بعض السفن الراسية في الميناء ، وعاد بغنيمته من غير أن يلقى مقاومة ، فكان ذلك مما شجع بطرس على غزو الإسكندرية .

٤ - إن مركباً آخر للإفرنج هجم على « الجزيرة المقابلة لرشيد » (لعلها في موقع القرية المعروفة الآن بالجزيرة الخضراء) ، وأخذ منها من المسلمين ٢٥ أسيراً ، ولم يلق أية مقاومة ، فأطمع ذلك ملك قبرص في أخذ الإسكندرية .

٥ - إن ثلاث سفن إفرنجية أتت إلى بوقير في ٢٧ شعبان سنة ٧٦٤ فأسر رجالها ستة وستين نفرًا من أهلها بين رجال ونساء ، ومضوا بهم إلى أن اقتداهم

المسلمون بالمال ، فرجعوا إلى أوطانهم ببوقير ، يقول النويرى : « فلما بلغ القبرسى فعلهم ذلك ببوقير ولم يجرّد أحد من أهلها فى وجوههم سيفاً واحداً طمع فى الإسكندرية » .

٦ - إن سبع سفن للإفرنج كانت تقصد بوقير كذلك فأخطأت سبيلها ليلاً ، ووصلت إلى رشيد حيث نزل من الفرنج جماعة كبيرة فطن لها المسلمون ، وأسفر اشتباك الفريقين عن انقلاب الإفرنج فى البحر فغرقوا لما كانوا يلبسونه من الدروع الحديدية ، وبعد أيام رمى البحر بجثثهم إلى الشاطئ وكانت عدتهم ثمانين رجلاً .

٧ - ما فعلته عوام المسلمين بالإسكندرية من قتلهم الفرنج البنادقة (وقد كان من أهل البندقية تجار يترددون على الإسكندرية ، وبعضهم يقيم فيها) « فلما هم القبرصى بالعمارة على الإسكندرية أعانته البنادقة بسبب قتل المسلمين لأصحابهم بالإسكندرية » .

٨ - إن الخبر كان يبلغ ملك قبرص عن ضعف حامية الإسكندرية وعدم استعدادها للحرب لطول ما ألفت السلم . وقد كانت توجد بالإسكندرية - وبغيرها من الثغور الإسلامية - قاعات بمثابة مخازن للسلاح تقيمها الدولة أو يقيمها الأغنياء تبرعاً وقربةً ، ولكل قاعة طائفة من المتطوعين مختصون بها ، ولكل طائفة من هذه الطوائف يوم يبيتون فيه على ساحل المدينة لحراستها غير أن بعد عهدهم بالحروب جعلهم غير أكفاء للأعداء . ويتهم النويرى بهؤلاء المتطوعين فيقول : « وكان الخبر يأتى إلى القبرصى أن الإسكندرية بها طوائف قاعات يبيتون بساحل مينتها لم يعرفوا الحرب ولا باسروها أبداً ، بل يخرجون مترينين بالملبوس ، وقد تطيلسوا من فوق العمايم التى على

الروس ، يتخطرون في مشيتهم ، ويتطيون بطيهم ، فترغرت لهم
النسوان ، ويصير كل منهم بزينة فرحان ، ومعهم الأسلحة الثقال ولكن
ليس تحتها لموقف الحرب رجال ، مع كل واحد منهم سيف تقلده ، مجوهر
النصل جيده ، مزخرف بالذهب كجمرة نارتلهب ، ومع ذلك حامله جبان
يفزع من نعيق الغربان »

هذه هي الأسباب المؤدية بملك قبرص إلى غزو الإسكندرية كما عدّها
النويرى في كتابه ، أما الغزوة نفسها فقد تتابعت وقائعها من وقت وصول
الأسطول الصليبي إلى حين إقلاعه راجعاً بعد إخلاء المدينة في سرعة غريبة ،
تجعل هذه الغزوة أقرب إلى أعمال السطو والقرصنة منها إلى الأعمال الحربية
بالمعنى الصحيح .

(٤)

في ٢٨ سبتمبر ١٣٦٥ أبحر بيار الأول ملك قبرص بالحملة قاصداً
الإسكندرية في سبعين سفينة ، جمعها من مختلف البلاد الأوربية ،
فكان من بينها أربع عشرة سفينة من البندقية ، وسفینتان من جنوة ، وعشر
سفن من رودس ، وخمسن سفن من فرنسا ، والباقي من قبرص . فوصل
إلى الإسكندرية يوم الخميس ٩ أكتوبر ١٣٦٥ الموافق ٢١ المحرم سنة ٧٦٧ ،
وكان على عرش مصر آنذاك الملك الأشرف شعبان ، وهو بعد طفل صغير ،
وأمر المملكة في يد مقدم الأمراء يلغا الخاصكى ، وكان نائب الإسكندرية
صلاح الدين بن عرام متغياً عنها للحج وقد أناب عنه أميراً يسمى جنغرا ،
وكان أهل الإسكندرية غير متوقعين هذه الغزوة حتى إنهم اعتقدوا عند رؤية

السفن أنها من سفن التجار البنادقة ، فلما لم ترس في الميناء تبينوا أنها سفن معادية ، واستعدوا لملاقاة العدو الذى لم يحاول التزول إلى البر طوال يوم الخميس ، فلما كان يوم الجمعة طلع الصبح على جموع غفيرة من أهل الإسكندرية وقد خرجوا إلى الجزيرة التى بها المنار (جزيرة فاروس) - ولم يكن الشريط من الأرض الذى يصل الجزيرة بالساحل ويطل على الميناءين الشرقى والغربى ، داخلاً فى ذلك العصر فى نطاق المدينة ، بل كان خارجاً عن أسوارها ولا عمران فيه . واستعان أمير المدينة بكثير من فرسان البدو من إقليم البحيرة ، فحضرُوا وانضموا إلى من كان بالجزيرة من قوات حامية المدينة .

ولاشك أن خروج الحامية من البلد لملاقاة العدو خارج أسوارها كان خطأ من وجهة نظر فن الحرب ، ويروى لنا النويرى كيف أن الكثيرين نصحوا لأمر المدينة بالتحصن داخل الأسوار ، والصمود للعدو حتى تحضر الأمداد من القاهرة ، غير أن رأى القائلين بالخروج إلى الجزيرة ومنع العدو التزول إلى البر أصلاً قد تغلب على رأى المخالف ، وفى ذلك ما يشير إلى استهتار المدافعين عن الإسكندرية بقوة العدو ، وثقتهم فى إمكان منعه من التزول إلى البر ، وهو ظن كشفت الحوادث عن عدم صحته .

أمر ملك قبرص بتزول القوات الصليبية إلى البر صباح يوم الجمعة فى الساعة التاسعة ، فتقدم قارب يحمل مقدمة الجيش يريد الوصول إلى البر ، فخاضت إلى الماء فرقة من المدافعين عن الإسكندرية ، ودارت بينهم وبين ركاب القارب معركة فى الماء نجد وصفاً مفصلاً لها لدى كل من النويرى وجيوم دى ماشو وانجلى هذا الاشتباك عن تغلب القوة الصليبية ، وما لبث

أن توالى نزول القوات الصليبية إلى البر ، ويقدر ماشو عددها بثمانية آلاف ، واشتبك الفريقان اشتباكاً كانت الغلبة فيه للمهاجمين ، إذ امتازوا بتنظيم دقيق كان يعوز المدافعين عن المدينة ، كما امتازوا باستكمال السلاح والعدة مما لم يكن للمدافعين عن الإسكندرية مثله . يقول النويرى « وكانت الفرنج لا بسين الحديد من الفرق إلى القدم ، والمسلمين كلهم على وضم ، فكيف يقابل اللحم الحديد ؟ وكيف يبرز العارى لمن كسى الزرد النضيد ؟ » فانحازت فلول القوات المدافعة إلى ناحية السور ، وتمكنت من دخول البلد من باب الخوخة ، وقفلت ذلك الباب قبل أن تتبعهم إلى الداخل قوات الأعداء .

(٥)

ولم يخل هذا الاشتباك الذى وقع خارج الأسوار من مواقف بطولة فردية نوه بها النويرى برغم ما يبيديه من سخط على خطة الدفاع فى مجموعها . ومن هؤلاء الأبطال أشخاص من عامة الشعب السكندرى ، هبوا للدفاع عن مدينتهم واستشهدوا فى سبيلها يذكر منهم النويرى جزراً اسمه محمد الشريف « هجم على الفرنج بساطور المجزرة وجعل عظام جماعة منهم مكسرة وهو يقول الله أكبر قتل من كفر إلى أن تكاثرت عليه منهم جماعة كبيرة ، فاستشهد رحمه الله بالجزيرة » ومن هؤلاء الأبطال المجهولين فى تاريخ الإسكندرية فقيه كتاب يقال له محمد بن الطفال رؤى « وهو قاصد الفرنج بسيفه ف قيل له تموت يا فقيه محمد فقال إذن أسعد وأصير مجاور النبى محمد ، وأى موة أحسن من الجهاد فى سبيل الله لأصير إلى الجنة ! وهجم فيهم فصار

يضر بهم ويضربونه إلى أن رزق الشهادة ، وختم له بالسعادة » . (الورقة ١٠٣ ب) . كما يشيد النويرى ببطولة جماعة من متطوعة قاعة القرافة ، كانوا مرابطين برباط ابن سلام ، وهو من الربط المقامة في الجزيرة لأغراض الدفاع فيروى كيف قاتلوا الفرنج حتى نفذت سهامهم ، فصاروا يخلعون أحجار شرفات الرباط ويضربون الأعداء بها إلى أن اقتحم عليهم الأعداء الرباط وأفنؤهم عن آخرهم ذبحاً بالخناجر ، « فصارت أدميتهم (دماؤهم) تجري من ميازيب الرباط المذكور كجرى الأمطار حين أبانها منها . » . انهزم المدافعون عن الإسكندرية إذن ولاذوا بأسوارها ، وأغلقوا أبوابها دون العدو ، فعقد بئر لوزنيان مجلس حرب على الشاطئ يدون خبره دى ماشو بالتفصيل ، واختلفت في ذلك المجلس الآراء بين معبذ للهجوم ومشير بالعودة ، وكانت الغلبة للرأى الأول الذى ناصره الملك ، وأعلن بئر عن ثلاث جوائز مالية للثلاثة من جنوده الذين يسبقون إلى اقتحام السور ، وحاول المهاجمون حرق باب البحر فردتهم سهام المدافعين من فوق السور ، فاتجهوا ناحية باب الديوان - وكان السور عنده خلواً من الرماة - فأحرقوه وتدفقوا إلى المدينة ، وكان ذلك في الساعة الثالثة من بعد ظهر يوم الجمعة ١٠ أكتوبر سنة ١٣٦٥ .

ولما أيقن أمير المدينة جنغرا أن الإسكندرية سقطت في يد الأعداء أخذ ومن معه إلى الفرار ، وتبعهم سكان الإسكندرية فارين من أبواب البر ، وأهمها باب السدرة وباب رشيد . ويصف النويرى من أهوال الفرع والازدحام لدى الأبواب والتهالك على الفرار ما يثير الأشجان ، وقد فر النويرى فيمن فر من سكان المدينة إلى القرى المجاورة ، ولذلك تنقطع أخبار الغزوة عند

النويرى ولا نراه يذكر شيئاً من التفاصيل اللهم إلا عن أعمال التخريب والنهب وصنوف القسوة التى عمد إليها الصليبيون ، وهى كلها مما شاهده المؤلف بعد عودته إلى المدينة أوسمعه ممن شهدوه ولكنه لم يكن شاهداً .
وتستغرق هذه التفاصيل المؤلة أوراقاً بأكملها من كتاب «الإمام» ويبدو منها أنه لم ينبج من التخريب فنادق تجار الإفرنج أنفسهم من البنادقة والكتلانيين والجنونيين ، فقد نهبا الصليبيون وخربوها فيما خربوا من منشآت المدينة .

غير أن ماشو يخبرنا عن الشيء الكثير مما دار فى المدينة بعد دخول الصليبيين إليها من المناوشات التى استغرقت نهار الجمعة كله ، ثم ليلة السبت ، كما يصف أعمال القتل والنهب والتخريب التى استفرغ فيها المهاجمون جهدهم ، ويقدر ماشو عدد القتلى بأكثر من عشرين ألفاً ، ويقول : إن الإسكندرية لم تشهد مذبحة كهذه من عصور الفراعنة » (البيت ٢٩٧٨ من الملحمة) .

على أن غزاة الإسكندرية لم يكونوا مجاهدين على طراز الصليبيين الأول ، فقد كانت شعلة الحرب الصليبية قد انطفأت وإنما كان هؤلاء خليطاً من المغامرين وطلاب المغانم . فبعد أن نقلوا إلى سفنهم كل ما وجدوه فى المدينة من المال والبضائع ذات القيمة تفرقوا عن قائدهم ، ورجعوا إلى سفنهم ، وطالبوا بالإقلاع عائدين . فشعر بير بأن الموقف يكاد يفلت من يده فاصطحب مندوب البابا المصاحب للحملة يطوف بسفينة يخطب الجنود ويحرضهم على البقاء ولكن دون أن يلتقى منهم أذنأ صاغية . ويورد ماشو هذه الخطب بالتفصيل فى الأبيات ٣٥٨٦ وما بعدها من ملحمة ضمن

حوادث يوم السبت ١١ أكتوبر سنة ١٣٦٥ ويقول : إن الملك ظل أياماً يحاول أن يقنع جنوده بالعودة إلى احتلال المدينة والبقاء فيها فلما لم يجد جدوى أقلع عائداً إلى قبرص والأسى ملء قواده .

(٦)

ويبدو أن هذا الانحلال الذى كان يسود صفوف الحملة الصليبية واختلاف الرأى بين الملك وبين جنوده لم يكن معروفاً لدى الجانب المصرى ، فالنويرى لا يشير إلى ذلك كله بشيء وإنما يعزو بقاء السفن فى البحر أمام الإسكندرية بعد انسحاب الجنود من البلد إلى أنهم كانوا يرقبون وصول المدد من القاهرة ، فلما أقبل المدد فى يوم الخميس ٢٨ محرم سنة ٧٦٧ (١٦ أكتوبر سنة ١٣٦٥) أقلعوا راجعين .

وهنا نصل إلى تحديد النقطة التى اختلف فيها قدامى المؤرخين ومحدثوهم وهى مدة احتلال الصليبيين القبارصة لمدينة الإسكندرية . فالمعروف أن سفنهم وصلت يوم الخميس ٩ أكتوبر ، وهاجموا المدينة ودخلوها يوم الجمعة ١٠ أكتوبر سنة ١٣٦٥ ، غير أن مدة احتلالهم الفعلى للمدينة لم يتفق عليها المؤرخون ، فابن كثير يقول إنها خمسة أيام ، وابن إياس يقول إنها أربعة أيام ، وهو يخطئ فوق ذلك فى تحديد يوم الموقعة فيقول إنها كانت يوم الجمعة ١٣ صفر سنة ٧٦٧ فيؤخرها عن تاريخها الصحيح قرابة شهر . أما المؤرخون المحدثون فسنهم من يحدد مدة الاحتلال بسبعة أيام (عطية) ، ومنهم من يذكر أنها كانت أربعة أيام (الشيال) ، ومنهم من يقول إنها ثلاثة أيام (على إبراهيم حسن) . .

على أن مراجعينا المعاصرين للحملة الذين توفر لهما من العلم بها ما لم يتوفر لسواهما يجمعان على أن مدة الاحتلال كانت أقل من يومين ؛ إذ بدأ بعد ظهر يوم الجمعة وانتهى بانتهاء يوم السبت ، فالنويرى يقول إن ملك قبرص جاء إلى الإسكندرية في يوم الجمعة الثانى والعشرين من المحرم سنة ٧٦٧ « فنال الخبيث قصده في ذلك اليوم والذي بعده » . ويقول في موضع آخر « القبرصى أتى بعمارته إلى الإسكندرية فظفر بها وتمكن جيشه منها من بعد صلاة الجمعة إلى آخر يوم السبت ثانية » . أما ماشو فصريح كذلك في أن نهاية يوم السبت ١١ أكتوبر ١٣٦٥ شهدت اعتصام الجنود بالسفن وإعلانهم الرغبة في العودة بعد أن نالوا ما كانوا يريدون من الأسلاب والمغانم ، وبذلك يحق القول بأن الصليبيين القبارصة لم يحتلوا الإسكندرية فعلاً إلا يومين أو أقل من بعد ظهر يوم الجمعة إلى نهاية يوم السبت . ولعل سبب الاختلاف في تحديد مدة الاحتلال هو بقاء الأسطول في البحر أمام المدينة أياماً بعد انسحاب الحملة من البلد فتوهم من بلغه ذلك من المؤرخين المعاصرين أن الاحتلال دام طوال تلك الأيام ، وعن هؤلاء انتقل الخطأ إلى المؤرخين المحدثين .

وهكذا عاد بيير لوزنيان بحملته وقد أخفقت بالنظر إلى أهدافها الصليبية غير أنها أوقعت بالإسكندرية كارثة تعتبر من أكبر ما نزل بها من كوارث في تاريخها الطويل . فقد تعرضت المدينة لما لا يوصف من التخريب والتدمير الذى لم تفق من عقابيله إلا بعد زمن مديد . غير أن هذه الغزوة كانت إيذاناً ببدء سلسلة من الأعمال الحربية التى قامت بها دولة المماليك ضد مملكة قبرص انتهت بزوال استقلالها ، إذ سقطت نقوسيا العاصمة في أيدي

القوات المصرية سنة ١٤٢٦ وأسر الملك جان لوزنيان الذى ظل فى القاهرة أسيراً إلى سنة ١٤٣٢ حين أعيد إلى عرشه بشرط دفع جزية سنوية لمصر قدرها ٥٠٠٠ دوكا ذهبية وظلت جزيرة قبرص تدفع هذه الجزية السنوية لمصر حتى بعد انقراض أسرة لوزنيان واستيلاء البندقية على الجزيرة ، واستمر دفع هذه الجزية إلى مصر حتى الفتح العثمانى سنة ١٥١٧ ، فصارت تدفع بعد ذلك إلى الباب العالى .

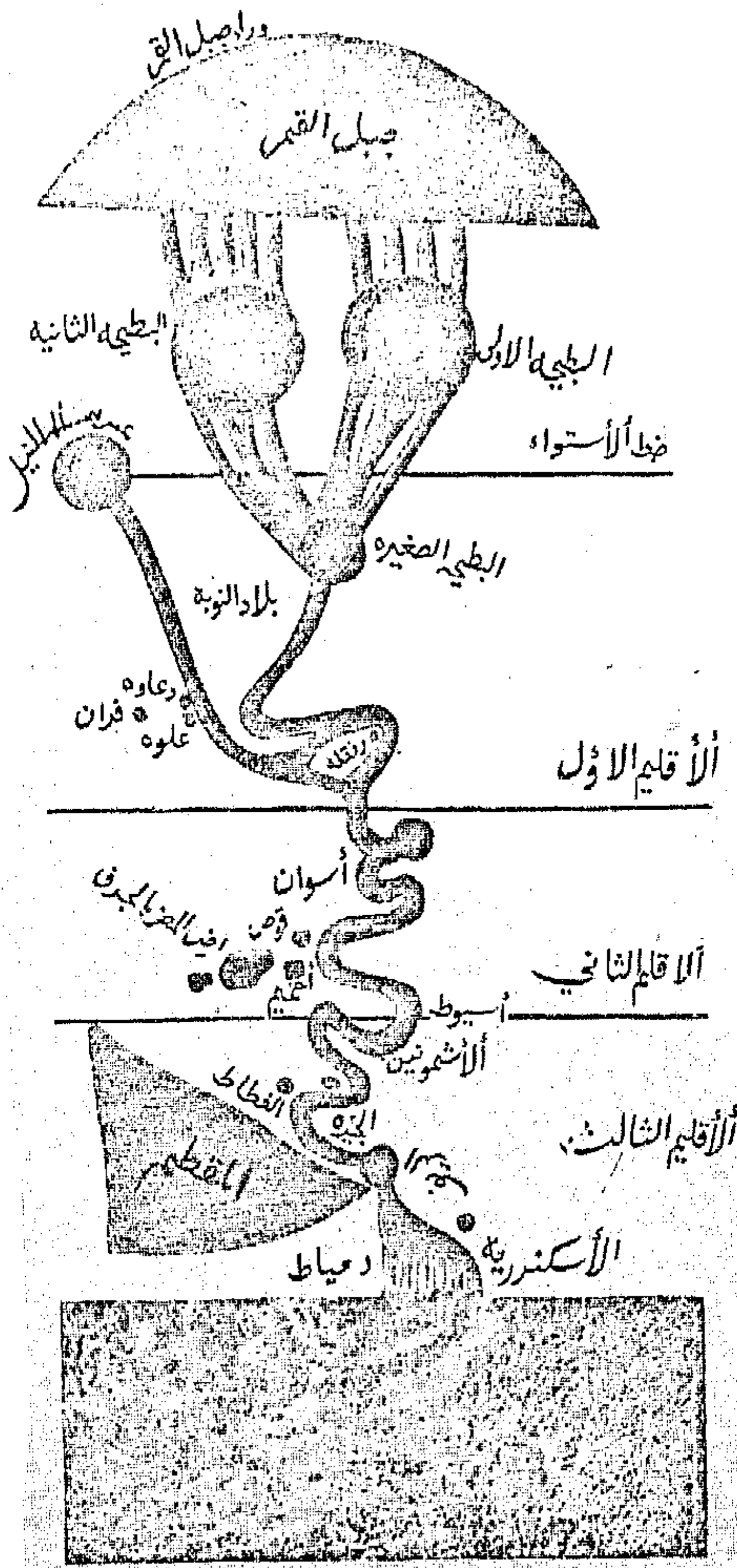
نهر النيل

في تاريخ الفكر الجغرافي

منذ وجد الإنسان على ظهر الأرض ، وكفى همومه العاجلة من غذاء وكساء ، شغل نفسه بعالمه الأرضي ، وكون في ذهنه صورة عن ذلك العالم ؛ لا شك في أنها كانت في البداية غامضة المعالم ، تغلب فيها الظلمة على النور ، ثم تدرجت تلك الصورة في الوضوح ، وتوالى انقشاع الظلام عن ركن بعد ركن من عالم الإنسان ، بقدر ما كان الإنسان يحرز نصراً بعد نصر في سعيه للسيطرة على بيئته ، فأصبحت الصورة التي في ذهنه عن الأرض تزداد وضوحاً ، وتتسع شمولاً على مر العصور .

ودراسة تاريخ الجغرافيا ، لتتبع تطور المعلومات الجغرافية على مدى الأزمان ، تعتبر من أمتع الدراسات وأكثرها طراقة ؛ إذ أنها تلقى الضوء على فكرة البشر عن هذا العالم ، كيف بدأت ؟ وأية صورة اتخذت ؟ وكيف خلصت على الزمن من الأغلاط والأوهام ، إلى أن أصبح علم الجغرافيا في عصرنا الحديث يعطينا صورة دقيقة لعالمنا الأرضي من مختلف نواحيه .

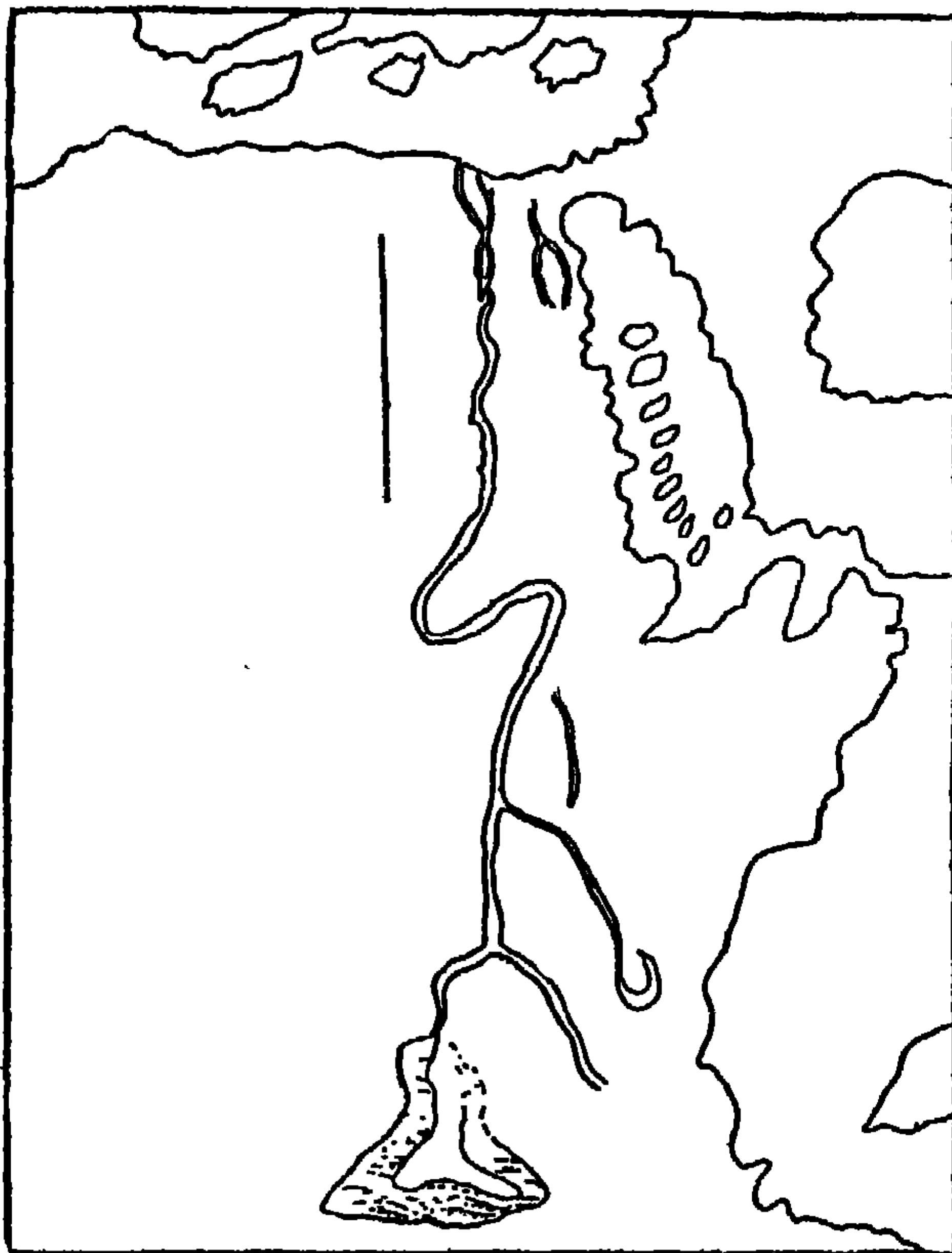
ومنذ تدفق النيل من منابعه إلى مصبه ، وتفتحت عليه أعين البشر ملأ ذلك النهر الدنيا وشغل الناس ، وكان من أسبق الموضوعات إلى استرعاء انتباه الجغرافيين الأقدمين . ولا غرو فعلى ضفتي النيل قامت حضارة من أقدم



خريطة النيل للخوارزمي المتوفى سنة ٢٠٥ هـ وهذه الخريطة شأنها شأن الخرائط العربية القديمة يجب أن ينظر إليها والصفحة معكوسة لأن اتجاه الشمال لأسفل

الحضارات التي شهدها العالم ، كما أن النهر نفسه بطوله العظيم وفيضانه الرتيب كان جديراً بأن يستلفت الأنظار ، وهكذا تساءل الناس عن نهر النيل - من أين ينبع ؟ وأي اتجاه يتخذ مجراه حتى يصب في البحر ؟ وما علة فيضانه السنوي المنتظم ؟ إلى غير ذلك من المسائل التي ظل بعضها من مشكلات علم الجغرافيا زمناً طويلاً ، وبخاصة مسألة منابع النيل التي لم ينقطع الجدل حولها إلا في القرن الماضي فقط عقب الكشف المعروفة . والمصريون القدماء كانوا - ولا ريب - أحق الناس بالبحث في أمر النيل ، ومحاولة الإجابة على ما يثيره النيل من أسئلة ، فكيف كان مرتبطاً بذلك النهر الذي ألوه عرفاناً بفضله عليهم ، وينقل إلينا العلامة ماسبيرو فكرة المصريين القدماء عن النيل ، وهي : أنه يتفرع من النهر السماوي الذي كانوا يتصورونه محيطاً بالعالم ليسبح فيه إله الشمس في رحلته اليومية حول الأرض ، فحيث يلتف هذا النهر السماوي حول العالم من الجنوب كانت مياهه تنحدر في شلال عظيم هو منبع نهر النيل ، وحلقة الاتصال بين ذلك النهر السماوي وبين النهر الأرضي الذي كان اسمه عند القدماء « حايي » أما اسم « النيل » فقد أطلقه الإغريق على النهر ، إذ كانوا يسمونه « نيلوس » ، وعندهم انتقل هذا الاسم إلى اللغات كافة ، واشتقاق اسم نيلوس في اللغة الإغريقية غير واضح ، ويرجعه بعض الباحثين إلى كلمة فارسية (نيل) بمعنى أزرق .

على أن « أبا التاريخ » هيرودوت ينقل لنا عن المصريين القدماء صورة أخرى ل منابع النيل ، تبين العقيدة الأولى التي أسلفنا بيانها ، وهيرودوت قد زار مصر سنة ٤٥٧ ق . م وتابع النيل جنوباً حتى قرب موقع



خريطة النيل لبطليموس السكندري من القرن الثاني للميلاد

أسوان ، ووصف مجرى النيل من مصبه إلى ذلك الموقع ، أما إلى الجنوب من ذلك ، فقد نقل هيرودوت ما سمعه في مصر من روايات عن مجرى النهر ومنابعه ، التي يقال إنها تقع في مناطق لم يصل إليها أحد ، لشدة الحرارة فيها ، وإن دونها مناطق حارة كذلك يسكنها قوم من الأقزام .

وقد كان هيرودوت شديد الحرص على معرفة كل ما كان يمكن معرفته في ذلك الوقت عن منابع النيل ، فسأل الكهنة والكتبة وغيرهم من أهل العلم ، فلم يظفر عند أحد منهم بطائل ، ولم يجد بغيته إلا عند كاتب بمدينة سايس ، ذكر لهيرودوت أن النيل ينبع من عين ماء تغذى بحيرة عميقة الغور تقع بين جبلين لهما قمتان مديبتان ، وأحد الجبلين يسمى « موفى » والآخر يسمى « كروفي » وأضاف الراوى أن الفرعون أبسماتيك حاول أن يسبر غور البحيرة فلم يتمكن من ذلك برغم استعماله أطوالاً كبيرة جداً من الحبال ، أما عن موقع تلك البحيرة بين الجبلين ، فقد قال محدث هيرودوت : إنها تقع إلى الجنوب من أسوان ، وإن مجرى آخر يصدر عن تلك البحيرة متجهاً إلى الجنوب .

ولم تلق هذه الرواية ذات المصدر الواحد اهتماماً كبيراً ، لا من هيرودوت ، ولا ممن جاء بعده من الجغرافيين . على أنه مما يناسب هذا الموضع أن نشير إلى أن جغرافياً معاصراً هو الدكتور نويل همفريس قام في سنة ١٩٣١ باستكشافات جديدة في جبال رويتزورى استعان فيها بالطائرات ، وبالتصوير الفوتوغرافى من الجو ووصل - ضمن نتائج استكشافاته - إلى ما اعتقد أنه تأييد لرواية الكاتب المصرى القديم لهيرودوت ، وهو يرى أن تلك الرواية تصور معلومات جغرافية قديمة

وصلت إلى ذلك الراوى ، الذى خلطها ببعض الحواشى كقصة محاولة أبسماتيك سبر غور البحيرة كما وقع فى بعض أغلاط أهمها تحديده موقع البحيرة والجبلين اللذين يحضان بها تحديداً خاطئاً إلى الشمال من موقعهما بكثير .

يقول الدكتور همفريس (١) : إنه إذا استبعدنا مما رواه لنا هيرودوت تلك الحواشى والأغلاط خلصت لنا حقائق طبوغرافية تؤيدها الاكتشافات الحديثة ، وتشير إلى علم قديم بتلك النواحي ، ربما كان قد وصل إلى المصريين القدماء عن طريق العرب السبئيين الذين كانوا منذ القدم يستعمرون ساحل إفريقية الشرقى ، وكانت لهم رحلات إلى الداخل ؛ لا يبعد أن يكونوا قد وصلوا فيها إلى منطقة البحيرات العظمى . أما التطابق بين ما يخلص من تلك الرواية القديمة وبين ما وصلت إليه الاكتشافات الحديثة فيراه الدكتور همفريس ماثلاً فى البحيرة الصغيرة التى تقع بين قمة جيسى وقمة أمين (٢) ، وهما القمتان الشماليتان لكتلة رويتزورى الجبلية .

(١) مجلة الجمعية الجغرافية الملكية - المجلد ٨٢ (سنة ١٩٣٣) ص ٥١٠ -

٥١١ وانظر الخريطة ص ٥٠٨ .

(٢) تحمل هاتان القمتان اسم اثنين من رجال الحكومة المصرية الأجانب اللذين خدما فى السودان ، وكان لهما شأن فى اكتشافات منابع النيل فى العصر الحديث ، أولهما - رومولوجيسى باشا الإيطالى ، وكان من قواد الجيش المصرى تحت قيادة جوردون . والثانى - أمين باشا الألمانى ، الذى كان يحمل قبل اعتناقه الإسلام اسم « إدوارشنيترر » وكان الحاكم المصرى على مقاطعة خط الاستواء .

وقد شاهد همفريس تلك البحيرة بين هاتين القمتين المدببتين ،
 فرأى أمام عينيه صورة مطابقة للوصف الذى نقله إلينا هيرودوت ،
 ولذا انتهى إلى أن الجبلين اللذين تسميهما الرواية المصرية القديمة
 « موفى » و « كروفى » هما جبلا « جيسى » و « أمين » وتقع بينهما
 بحيرة صغيرة تمتد نهر « روامولى » وهو من روافد نهر « سمليكى » الذى
 يصب فى بحيرة البرت .

ونعود إلى تتبع أفكار القدامى عن النيل ، فنجد أن « هيكاتيوس » -
 وهو من الجغرافيين الإغريق الأولين - يرى أن النيل يتصل فى الجنوب
 بالنهر الذى كانوا يتصورونه محيطاً بالمعمورة كالدائرة ، ويسمونه
 « أوقيانوس » أما فيضان النهر فقد أرجعه « تاليس » فى القرن السادس
 قبل الميلاد إلى هبوب الرياح الشمالية على سواحل مصر فى فصل الصيف ،
 فإنها كانت - فيما يرى - تمنع مياه النهر من أن تصب فى البحر المتوسط ،
 وبذلك كانت تسبب الفيضان . . .

وفى القرن الثالث قبل الميلاد كانت الإسكندرية ميداناً لنشاط
 علمى كبير ، وكان من بين علمائها أمين مكتبتها الشهيرة « إراطوسطين »
 الذى يلقب بأبى الجغرافيا العلمية ، وقد قام هذا العالم الرائد بعمل
 خريطة حوالى سنة ٢٥٠ ق . م ، رسم فيها مجرى النيل إلى جنوبى موقع
 الخرطوم الحالى (وهو الحد الذى كانت تقف عنده معظم الخرائط
 الجغرافية حتى سنة ١٨٣٩) رسماً قريباً من الصحة بوجه عام ، وأوضح
 فى هذه الخريطة نهري : عطبرة والنيل الأزرق ، وأشار إشارة عابرة
 فى بعض كتاباته إلى أن النيل ينبع من بحيرات تقع فى خط الاستواء ،

كما كان « إراتوستين » أول من أشار إلى أن فيضان النيل يرجع إلى هطول الأمطار في المناطق الاستوائية ، وهي الفكرة التي عاد إليها من بعده عالم سكندري آخر هو « أجاثاركيدس » (١٧٠ - ١٠٠ ق . م تقريباً) فحددها وزادها وصوحا . بأن قرر أن سبب فيضان النيل هو الأمطار الغزيرة التي تسقط صيفاً على جبال إثيوبيا ، وهو ما قرر من بعد الجغرافي الشهير « إسطرابون » (٦٣ ق.م - ٢٤ م تقريباً) أنه ثبت قطعاً بالمشاهدة والعيان للبعثات التي كان البطالسة يرسلونها إلى الحبشة لصيد الفيلة .

والذي لا شك فيه أن « إراتوستين » كانت لديه فكرة عن مجرى النيل ومنحنياته أصبح بكثير مما كان عند سلفه من الجغرافيين ، ولهذا العالم السكندري سبق علمي عظيم سيظل مقروناً باسمه مدى الدهر ، إذ كان أول من قدر محيط الكرة الأرضية بطريقة علمية سليمة ، وكان تقديره قريباً جداً من الصحة ، وقد كانت مصر ميداناً لهذا سبق العظيم الذي جرى ما بين الإسكندرية وأسوان على وجه لا نستطرد هنا إلى بيانه ، فهو يخرج عن موضوع بحثنا .

ولم يخل أمر الجدل حول منابع النيل في تلك العصور القديمة من منادين بآراء هي أقرب إلى الأساطير ، ومن ذلك ما يروى عن بعض المصاحبين لحملة الإسكندر الأكبر عند فتح الهند حوالي سنة ٣٢٦ ق . م ، من أنهم حين شاهدوا التماسيح في نهر السند سبق إلى أذهانهم أن ذلك النهر لا بد وأن يكون المجرى الأعلى للنيل ، لأن التماسيح في ظنهم ما كانت توجد إلا في النيل ، وهكذا توهموا أنهم أراحوا الستار عن منابع النيل الغامضة ، وذهبوا تبعاً لذلك إلى أن قارتى آسيا وإفريقية تلتقيان في مكان

ما من الجنوب ، وهكذا لا يكون المحيط الهندى إلا بحراً داخلياً تحيط به اليابسة من الجهات كافة .

ويقال إن الإسكندر أمر ببناء أسطول ضخم بقصد استعمال « النيل » كطريق للعودة إلى مصر فاليونان ، ثم عدل عن ذلك العزم حين سمع من بعض الأهلين الذين وصلوا إلى مصب النهر الهندي أن ذلك النهر لا يستمر في جريانه غرباً ، وإنما يصب في المحيط .

ويبدو أن الاتصال الموهوم بين النيل والسند ، والاعتقاد بأن النيل ينبع من الهند ، وأن نهر السند هو مجراه الأعلى كان له أصل عند الفرس من قبل زمن حروب الإسكندر ، إذ يروى عن أردشير الثالث (٣٥٩ - ٣٣٧ ق . م) أنه حين تملكت مصر تحت النير الفارسي ، وتالت فيها الثورات فكر في تحويل مجرى نهر السند ، ليمنع مياهه من أن تصل إلى مصر فيؤدب بذلك المصريين العصاة بحرمانهم من ماء النيل سر حياتهم (١) ، ولعل الأصل الفارسي لهذه الفكرة يفسر وجودها من بعد عند كاتب عربي مثل الجاحظ - كما سنرى - إذ يكون قد تلقاها ضمن ما انتقل إلى العرب من تراث الفرس ومعارفهم .

ومن الأحاديث التي كانت شائعة عن النيل ، وليست في التحقيق بشيء ما كان القدماء يظنون من وجود فرع جوفى لنهر النيل يتفرع عن مجراه الرئيسى جنوبى أسوان ، ويسير في جوف الأرض تحت الصحراء الغربية في خط يصل بين الواحات المتفرقة فيها ، وأن مياه الواحات هي من ذلك النهر الجوفى الذى يصب في البحر تحت الأرض أيضاً .

ويبدو أن الأساطير الشعبية لم تخل من أثر لهذا الفرع الجوفى للنيل ،
 إذ يحدثنا الدكتور هيرست فى كتابه « النيل » أن نوتياً من أهل النوبة
 حدثه عن تاجر كان مسافراً فى النيل ، ففرقت سفينته قرب أسوان ،
 وفقد أمتعته ، ومن بينها إناء من خشب كان يستعمله فى تناول طعامه ،
 وفى السنة التالية كان ذلك التاجر يحمل بضاعته إلى واحات الصحراء
 الغربية ، وبينما كان يملأ دلوه من بئر فى إحدى الواحات إذا به يرى
 إناءه بعينه طافياً على سطح ماء البئر ، وقد حمله إلى هناك تيار الماء
 فى فرع النيل الجوفى الذى يتفرع عن المجرى الرئيسى ، قريباً من المكان
 الذى غرقت فيه سفينة صاحبنا التاجر ، ويسير فى جوف الأرض
 تحت الصحراء خلال واحاتها المختلفة . . وقد كان هذا الفرع
 الجوفى الموهوم يظهر فى الخرائط الجغرافية القديمة ، وظل يصور فى
 بعضها إلى سنة ١٨٦٠ .

والواقع أن خرائط إفريقية حتى ذلك الوقت لم تكن تختلف كثيراً
 عن مثيلاتها قبل قرابة قرنين سابقين ، حين قال الشاعر الساخر جونatan
 سويفت فى جغرافى عصره أبياته المعروفة :

بملاً الجغرافيون

يصور الحيوانات المفترسة

فجوات خرائط إفريقية

وعلى النفسوح الموحشة

يضعسون الفيلة

إذ تعوزهم المدن .

ولعل أقرب معلومات القدماء عن النيل إلى الصحة ما كتبه بطليموس السكندري في القرن الثاني الميلادي ، فقد نقل بطليموس من كتابات جغرافي يسمى « مارينوس الصوري » من مدينة صور - اندثرت كتبه ، ولم يبق لنا منها إلا ما نقله بطليموس - نقل أن تاجراً يونانياً يدعى « ديوجين » كان يرتاد الساحل الإفريقي الشرقي ، وزنجبار حدثه أنه بالسير إلى الداخل غرباً لمدة خمسة وعشرين يوماً يصل الإنسان إلى بحيرتين عظيمتين وجبال تكللها الثلوج ، وأن هذه المنطقة هي منبع النيل ، ويستطرد بطليموس فيقول : إن مياه النيل مصدرها ذوبان ثلوج تلك الجبال التي يسميها « جبال القمر » ، ويحدد موقعها بجنوب خط الاستواء باثنتي عشرة درجة ونصف الدرجة ، ويصف مجرى النيل من منبعه إلى مصبه وصفاً يقرب من الصحة بوجه ملحوظ .

وقد أثبتت الأيام أن معلومات بطليموس صحيحة في مجموعها ، فيما عدا تحديده موقع البحيرتين العظيمتين إلى الجنوب من موقعهما الصحيح ، أما البحيرتان ذاتهما فيرى كثير من العلماء المحدثين أنهما بحيرتا فكتوريا وألبرت ، وأما جبال القمر فيرون أن المقصود بها كتلة روينزوري الجبلية تكللها الثلوج ، وتقع إلى الجنوب من بحيرة ألبرت . وقد سادت نظريات بطليموس طوال أربعة عشر قرناً بعد عصره ، وأثرت في الفكر الجغرافي في العصور الوسطى تأثيراً بالغاً ، سواء عند العرب الذين كانوا يعتبرون « صاحب المجسطى » أستاذاً وإماماً ، أو عند الأوربيين الذين نقل إليهم العرب أفكار بطليموس ، ولئن كانت كتابات جغرافي العصور الوسطى من العرب وغيرهم لا تخلو

من فائدة وطرافة ، فإن تراث بطليموس كان قطب الرحى الذى تدور حوله تلك الكتابات ، ولا يعدو الصواب من يقول : إن صورة نهر النيل لم يكد يطرأ عليها تغيير جوهري منذ عصر بطليموس إلى زمن الاكتشافات الحديثة .

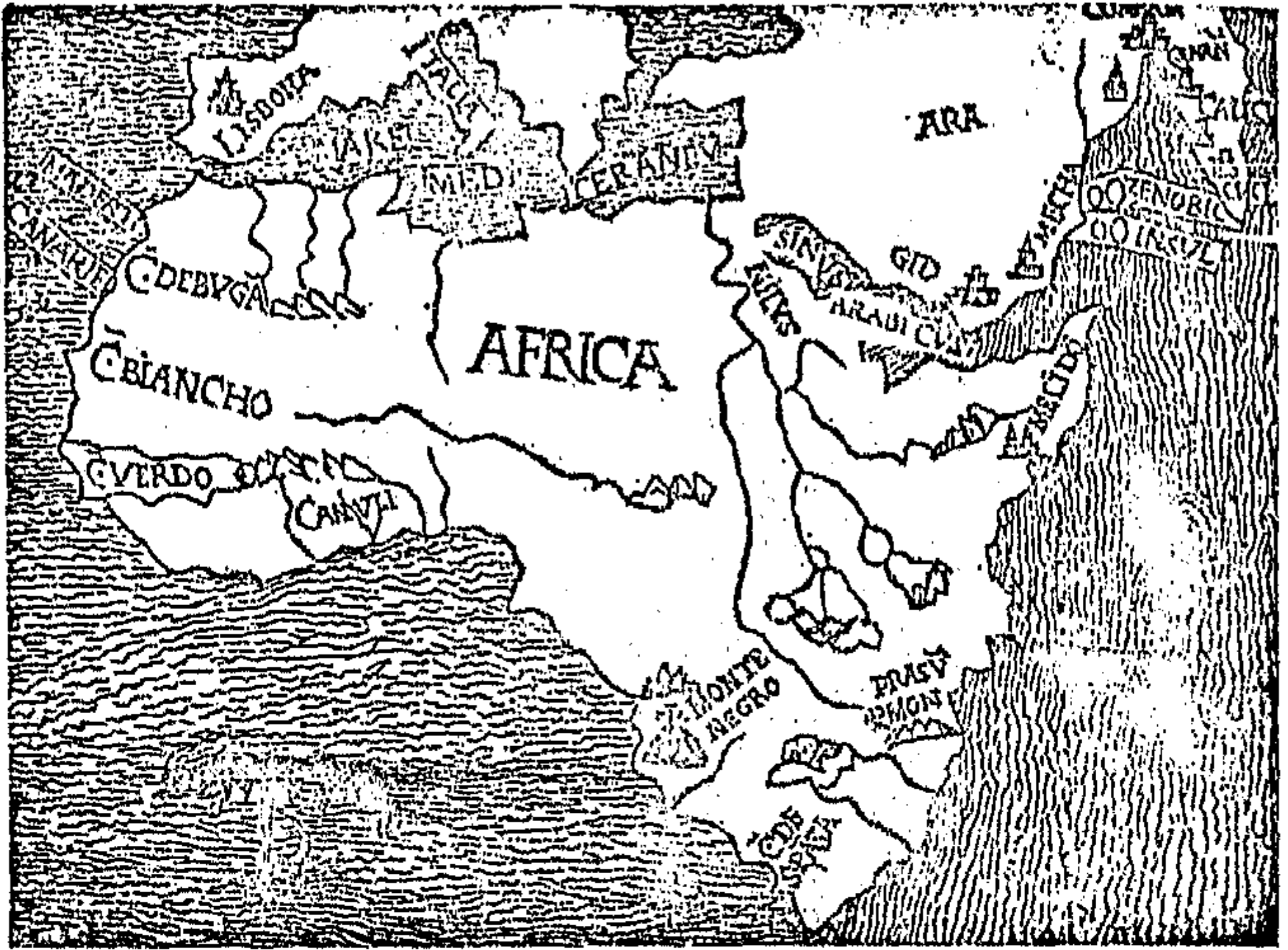
انتقلت إلى العرب معلومات القدماء عن نهر النيل ، بما فيها من علم صحيح بلغ أوجه عند بطليموس ، وبما فيها كذلك من أساطير وأغلاط وأحاديث قصاص ، فإذ نجد وصف النيل عند الجغرافيين العرب الكبار كالخوارزمي (المتوفى سنة ٢٠٥ هـ) والمسعودي (المتوفى سنة ٣٤٦ هـ) وياقوت (المتوفى سنة ٦٢٦ هـ) وغيرهم مطابقاً لما جاء به بطليموس نجد كاتباً كالجاحظ يردد الوهم الذى كان يربط بين النيل والسند ، ويعتبر نهر السند من فروع النيل أو المجرى الأعلى للنيل ، وذلك فى كتاب « الأمصار وعجائب البلدان »^(١) غير أن المسعودي ينبرى لتفنيد هذا الوهم تفنيداً لم يرفق فيه بالجاحظ ، فيقول :

« قد زعم عمرو بن بحر الجاحظ أن نهر مهران الذى هو نهر السند من نيل مصر ، ويستدل على أنه من النيل بوجود التماسيح فيه ، فلست أدري كيف وقع له هذا الدليل . . ! لأن الرجل لم يسلك البحار ، ولا أكثر الأسفار ، ولا تقرأ الممالك والأمصار ، وإنما كان حاطب ليل ، ينقل من كتب الوراقين . أو لم يعلم أن نهر مهران

(١) مخطوط لا تعرف منه إلا نسخة واحدة بالمتحف البريطانى ، تحت رقم

١١٢٩ - ويحدثنا المستشرق شارل بيللا أنه بصدد نشر هذا الكتاب - انظر مجلة « أرابيكا »

المجلد الثالث (١٩٥٦) ص ١٥٤ .



أول خريطة منفصلة لأفريقية وقد طبعت في البندقية سنة ١٥٠٧ ويلاحظ اتجاه أفرع النيل ناحية الجنوب والشرق

السند يخرج من أعين مشهورة من أعالي بلاد السند من أرض القنوج من مملكة بؤروة وأرض كشمير والقندمار والطاقن ، حتى ينتهي إلى بلاد المولتان ثم ينتهي نهر مهران إلى بلاد المنصورة ، ويصب نحو بلاد الديبل في بحر الهند» (١) .

ومن الأغلاط التي نجد صداها عند بعض العلماء العرب الأولين

(١) انظر مروج الذهب للمسعودي ج ١ ص ٩٩ .

تعليل الفيضان السنوى للنيل بأثر الرياح الشمالية ، إذ ينقل ياقوت عن محمد بن سلامة بن جعفر القضاعى صاحب كتاب « خطط مصر » قوله .:

« من عجائب مصر النيل جعله الله سقيا يزرع عليه ، ويستغنى به عن مياه الأمطار فى أيام القيظ ، إذا نضبت المياه من سائر الأنهار ، فيبعث الله فى أيام المد الرياح الشمال ، فيغلب عليه البحر الملح فيصير كالسكر (أى السد) له ، حتى يربو ويعم الربى والعوالى ، ويجرى فى الخليج والمساقى ، فإذا بلغ الحد الذى هو تمام الرى بعث الله الرياح الجنوب ، فكبسته وأخرجته إلى البحر الملح ، وانتفع الناس بالزراعة مما يروى من الأرض . »

على أن ياقوتاً لا يسلم بهذا التعليل للفيضان ، فهو يدرك أنه يرجع إلى هطول الأمطار ، حيث ينبع النهر فيقول :
« أما سبب زيادته فى الصيف فإن المطر يكثر بأرض الزنجبار وتلك البلاد فى هذه الأوقات بحيث ينزل الغيث عندهم كأفواه القرب ، وتنصب السدود إلى هذا النهر من سائر الجهات ، فإلى أن يصل إلى مصر ، ويقطع تلك المفاوز يكون القيظ ، ووجه الحاجة إليه ، كما دبره الخالق عز وجل . »

وياقوت فى روحه العلمية ومنزعه العقلى ، يروى بعض أحاديث القصاص عن النيل ؛ لا مصداقاً لها ، ولا معتقداً صحتها ، وإنما يحكيها استيفاءً للموضوع ، ويعقب عليها بمثل قوله :
« هذا خبر شبيه بالخرافة وهو مستفيض ، ووجوده فى كتب

الناس كثير ، والله أعلم بصحته وإنما كتبت ما وجدته .

أو مثل قوله في موضع آخر :

« وفي أخبار قصاص المسلمين أشياء عجيبة تضيق بها صدور

العقلاء ، إنما أحكى بعضها غير معتقد بصحتها » .

و « معجم البلدان » حافل بهذه النظرات النقدية النفاذة التي

تشهد لياقوت بأنه كان عالماً عقلياً من الطراز الأول .

هذا وقد أشار المسعودى في « مروج الذهب » (ج ١ ص ٣٤٠ -

٣٤١) باختصار شديد إلى اختلاف الأقوال في تعليل فيضان النيل ،

وأردف قائلاً :

« وقد ذكرنا التنازع في النيل وزيادته ممن سلف وخلف على

الشرح والإيضاح . . في كتاب أخبار الزمان في الفن الثاني ، فأغنى

ذلك عن إعادته في هذا الكتاب » .

وبما يؤسف له أن أيدي الحدثان لم تبقى على كتاب « أخبار الزمان » ،

فلم يصل إلينا ذلك المؤلف الضخم الذى كثيراً ما يشير إليه المسعودى في

« مروج الذهب » مكتفياً بالإحالة إليه ، عن النقل منه ، ولو وصل

إلينا ذلك الكتاب المطول الذى يقع في ثلاثين مجلداً ، فربما وجدنا فيه

من أخبار النيل ما ليس فيما دون حجمه من كتب علمائنا الأوائل .

وردّد السيوطى في « حسن المحاضرة » الأقوال المختلفة في تعليل

الفيضان ، فقال :

« قال قوم إن زيادته من ثلوج يذوبها الصيف ، وعلى حسب مدتها

تكون كثرتة وقلته ، وذهب آخرون إلى أن زيادته بسبب أمطار كثيرة تكون

ببلاد الحبشة ، وذهب آخرون إلى أن زيادته عن اختلاف الرياح .
ويبدو أن السيوطي يختار من هذه التعليقات المختلفة . التعليل
الصحيح إذ يقول في موضع آخر :

« قال آخرون ، وهو الظاهر ، إن سببه كثرة المطر والسيول ببلاد
الحبش والنوبة ، وإنما يتأخر وصوله إلى الصيف لبعد المسافة » .
أما وصف مجرى النيل ومنابعه عند الجغرافيين العرب فهو كما قدمنا
يتمشى وما أورده بطليموس - فالمسعودي مثلاً يقول :

« رأيت في الجغرافيا (يعنى كتاب بطليموس) النيل مصوراً ظاهراً
من تحت جبال القمر ومنبعه ومبدأ ظهوره من اثنتى عشرة عيناً ، فتصب
تلك المياه إلى بحيرتين هناك كالبطائح ، ثم يجتمع الماء جارياً ، فيمر
برمال هناك وجبال ، ويخترق أرض السودان مما يلي بلاد الزنج ، فيتشعب
منه خليج ينصب إلى بحر الزنج ويجرى على وجه الأرض تسعمائة
فرسخ ، وقيل ألف فرسخ ، حتى يأتى أسوان من صعيد مصر وإلى هذا
الموضع تصعد المراكب من فسطاط مصر ، وعلى أميال من أسوان جبال
وأحجار يجرى النيل في وسطها ، ولا سبيل إلى جريان السفن فيه هناك ،
وهذه الجبال والمواضع فارقة بين مواضع سفن الحبشة في النيل ، وبين
سفن المسلمين ، ويعرف هذا الموضع من النيل بالجنادل والصخور ،
ثم يأتى النيل الفسطاط ، وقد قطع الصعيد . . ثم يمضى جارياً فينقسم
خلجاناً إلى بلاد تنيس ودمياط ورشيد والإسكندرية كل يصب في
البحر الرومى » .

أما ياقوت فيقول :

إن نيل مصر ينبوعه من وراء خط الاستواء من جبل هناك ، يقال له جبل القمر » .

ثم يضيف أنه :

« يأتي من بلاد الزنج فيمر بأرض الحبشة مسامتاً لبحر اليمن من جهة أرض الحبشة ، حتى ينتهي إلى بلاد النوبة من جانبها الغربي والبيعة من جانبها الشرقي ، فلا يزال جارياً بين جبلين بينهما قرى وبلدان والراكب فيه يرى الجبلين عن يمينه وشماله ، وهو بينهما بإزاء الصعيد حتى يصب في البحر » . وأنت ترى أن البحيرتين أو البطيحتين هما اللتان عند بطليموس ، وموقعهما من وراء خط الاستواء هو وجبال القمر التي يذكرها بطليموس نجدهما كذلك عند جغرافيينا العرب ، وعلى الجملة فأثر بطليموس فيما كتب العرب عن النيل جد واضح ، ويكفي أن نقارن خريطة بطليموس بخريطة الخوارزمي مثلاً ، لكي ندرك أن الخطوط الرئيسية للخريطتين واحدة . وقد أكثر الأقدمون من الكلام في جبال القمر ، ولم سميت بذلك الاسم ؟ وأغلب تعليلاتهم تدور حول القمر الذي في السماء ، أو حول معنى البياض ، ولم أجدهم من أشار إلى أن من معاني لفظة القمر تحير البصر من الثلج ^(١) .

(١) انظر اللسان وغيره ، وقد أشار السيوطي في (حسن المحاضرة ح ٢ ص ١٨٤) نقلاً عن التيفاشي إلى أن جبل القمر « سمي بذلك ، لأن العين تقمر منه إذا نظرت إليه لشدة بياضه . قال ولذلك أيضاً سمي القمر قمراً » .

وهكذا عاد إلى الربط بين تسمية جبل القمر وبين معنى البياض ، ولم يستطرد إلى ما تحمله لفظة القمر (بمعنى تحير البصر من الثلج) من دلالات .

والمعروف أن الجبال المسماة بجبال القمر تكللها الثلوج الدائمة على مدار السنة ، ولاشك أن الارتباط ظاهر بين « القمر » بمعنى تحير البصر من الثلج وبين تلك الجبال التي تكللها الثلوج ، والتي أطلق عليها هذا الاسم . فإذا صح أن علة التسمية هي هذه ، وإذا ذكرنا من جهة أخرى أن كلمة القمر بذلك المعنى ليست شائعة الآن ، ولم تكن شائعة في العصر الإسلامي الذي كتب فيه مشاهير الجغرافيين العرب ، وهي برغم ذلك موجودة في المعاجم ، أمكن أن نفترض أنها كانت شائعة في لغة العرب الأزمان الموعلة في القدم ، أو أنها كانت في الأصل من ألفاظ العربية الجنوبية التي كان يتكلمها السبثيون ، وإذا وصلنا إلى هذا أمكن أن نجد في هذه التسمية دليلاً على ما ذهب إليه بعض الباحثين الغربيين (١) من أن فضل ارتياد منابع النيل في القديم يرجع إلى العرب السبثيين الذين كانوا يستعمرون ساحل إفريقية الشرقى ويتوغلون في داخلها للتجارة ولاستخراج الذهب من مناجمه ، وأن معلومات مارينوس الصوري وبطليموس الإسكندري ترجع في أصلها إلى ما عرفه العرب القدماء في رحلاتهم تلك عن البحيرات العظمى وعن الجبال التي تحير فيها بصرهم من بياض الثلج ، فسموها « جبال القمر » . . .

وقد طرأ على قصة النيل في القرون الوسطى لبس غريب ، إذ أصبح بعض الجغرافيين والرحالة العرب يعتقدون أن نهر النيجر فرع من نهر النيل ، أو أنهما ينبعان من منبع واحد ويسمون النيجر « نيل الزنج » أو نيل

(١) جونستون « البحث عن النيل » ص ١٧ و ١٨ و ٣٩ و ٤٤ وهمفريس

المرجع السابق الموضع المذكور .

السودان بالمقابلة لنيل مصر ، ولا شك في أن هذا اللبس لم يكن شائعاً قبل القرن السابع الهجرى ، إذ لا نجد عن ذلك شيئاً عند ياقوت المتوفى سنة ٦٢٦ هـ ، على تفصيله وتتبعه أطراف موضوعاته ، واستعانته بكتب من سبقه من الجغرافيين ، وإنما نجد هذا الخلط عند الإدريسي في وصفه للإقليم الأول (١) ، كما نجده عند كاتب متأخر كابن الوردي صاحب « خريدة العجائب » المتوفى سنة ٨٥٠ هـ الذى يقول :

« ويخرج النيل (من البطيحة) نهراً واحداً ويفترق في أرض النوبة ففرقة إلى أقصى المغرب ، وعلى هذه الفرقة غالب بلاد السودان (أى الزنوج ، ولا يعنى القطر السودانى الحديث) والفرقة التى تنصب إلى مصر منحدره من أرض أسوان تنقسم في مجرة البلاد على أربع فرق كل فرقة إلى ناحية ، ثم يصب في بحر الإسكندرية » .

وهو في هذا ينقل فيما يبدو عن الإدريسي .

ويستحكم هذا اللبس عند ابن بطوطة الذى رحل إلى إفريقية الغربية سنة ٧٥٣ هـ وارتاد ما يسمى الآن نيجريا ، وركب نهر النيجر الذى لا يدعو إلا بالنيل ، فيقول :

(١) لم يكن الإدريسي من مراجع ياقوت بالرغم من تقدمه عنه قليلاً في الزمان (توفى الإدريسي سنة ٥٤٨ هـ وياقوت سنة ٦٢٦ هـ) ولذا جاء معجم البلدان خلواً من الخلط بين النيل والنيجر . وقد يبدو غريباً أن ياقوت لم يطلع على الإدريسي ، ولكن الغرابة قد تزول إذا ذكرنا أن ياقوتاً مشرقى ، عاش وكتب ومات في الشرق ، وأن الإدريسي مغربى ، ولد في المغرب الأقصى وتعلم بالأندلس ، وكتب بجزيرة صقلية في ظل ملكها النورمندى « روجر » ولذا يطلق أحياناً على « نزهة المشتاق » اسم « الكتاب الرجارى »

« ثم سرنا من زاغرى فوصلنا إلى النهر الأعظم ، وهو النيل ، وينحدر النيل منها إلى كابرة ثم إلى زاغة . . ثم ينحدر النيل من زاغة إلى تنبكتو ثم إلى كوكو إلى بلدة مولى وهى آخر عمالة مالى ، ثم إلى يوفى وهى أكبر بلاد السودان . . ثم ينحدر منها إلى بلاد النوبة . . ثم إلى دنقلة . . ثم ينحدر إلى جنادل هى آخر عمالة السودان وأول عمالة أسوان » .
ويقول فى موضع آخر :

« ومن تنبكتو ركب النيل فى مركب صغير منحوت من خشبة واحدة ، وكنا نزل كل ليلة بالقرى فنشترى ما نحتاج إليه من الطعام . . إلخ » .
ويقول :

« ثم سرت إلى مدينة كوكو ، وهى مدينة كبيرة على النيل من أحسن مدن السودان وأكبرها وأخصبها »

وقد استقر فى الأذهان فى العصور الوسطى المتأخرة هذا الخلط بين النيل والنيجر ، سواء عند العرب أو عند الأوربيين ، حتى إن البرتغاليين الذين وصلوا إلى إفريقية الغربية فى القرن الخامس عشر الميلادى ، واكتشفوا مصب النيجر اعتقدوا أنهم عثروا على مصب الفرع الغربى للنيل ، بل إن بعض الرحالة الأوربيين الذين كتبوا فى مطلع القرن التاسع عشر كانوا يظنون أن النيجر هو النيل ، ولم يتبدد هذا اللبس تماماً إلا حين تقدم القرن التاسع عشر نحو نهايته ، وتم استكشاف نهر النيجر من منبعه إلى مصبه ، وثبت أنه نهر مستقل لا علاقة له بالنيل . ولا يجوز أن نتهم الإدريسى أو غيره من جغرافى العرب أو رحالتهم بأنهم خلقوا هذا اللبس وابتدعوه إذ نجد له أصلاً فيما نقله الجغرافى

الرومانى القديم « بلنيوس » عن الملك العالم « يوبا » الثانى ملك موريثانيا المتوفى حوالى سنة ٢٠ للميلاد من إشارة إلى أن النيل ينبع من غرب مراكش غير بعيد من المحيط ، ويسير شرقاً ، ثم يمضى فى مجراه المعروف فى النوبة ومصر ، فعمل الإدريسى ومن تابعه تلقوا هذه الرواية وزادوا عليها أو حوروها فيها ، ولعل الرحالة العرب كابن بطوطة حين شاهدوا النيجر وحيوانه المماثل لحيوان النيل كتمساح وفرس النهر (ويصفها ابن بطوطة فى رحلته وصفاً طريفاً) وقع فى نفوسهم أن هذا لابد وأن يكون الفرع الغربى للنيل .

وقد استمر اهتمام الجغرافيين العرب بالنيل خلال القرون ، غير أن متأخريهم لم يضيفوا شيئاً يذكر إلى ما جاء به متقدموهم ، بل كان بعضهم ينقل عن بعض ، مع تفاوت فى الإضافة والاختصار ، وقام بعضهم بتصنيف مؤلفات خاصة بالنيل كما فعل أحمد بن يوسف التيفاشى صاحب « سجع الهديل فى أخبار النيل » وكما فعل أحمد ابن محمد بن عبد السلام المنوفى ، الذى ألف فى مطلع القرن التاسع الهجرى كتاباً بعنوان « الفيض الجديد فى أخبار النيل السعيد » وهو مخطوط بدار الكتب المصرية جمع فيه مؤلفه أقوال المتقدمين وبعض مشاهداته ، غير أنه لم يأت بجديد يضاف إلى معلوماتنا فى شأن النيل .

وجملة القول إن العلم بالنيل فى العصور الوسطى لم يكد يزيد عما قرره بطليموس فى القرن الثانى الميلادى ، ولعل أهم تقدم حققته العصور الوسطى فى هذا الصدد كان يتعلق بالنيل الأزرق ومنبعه فى بحيرة تانا ، فقد أمكن للرهبان والرحالة البرتغاليين بحكم رحلاتهم

إلى الحبشة أن يعرفوا الكثير عن النيل الأزرق وعن بحيرة تانا ، وأن يشاهدوا عن كثب ظاهرة فيضان النيل ، وظهر أثر تلك المعلومات الجديدة في الخرائط الجغرافية التي نشرت في ذلك العهد كخريطة الإيطالي « فيليبويجافيتا » المنشورة سنة ١٥٨٠ .

وعندما قدمت حملة نابليون إلى مصر كان يصحبها - كما هو معروف - فريق من رجال العلم قضوا سنوات الاحتلال الفرنسي الثلاث بين ختام القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر ، في دراسات متعددة الجوانب خلفت لنا ثماراً علمية طيبة ، وكان لابد لعلماء الحملة الفرنسية من الاهتمام بأمر النيل ، بل إنه قد شكلت منهم لجنة اختصت بشئون النهر وفيضانه ، وقامت بدراسات مختلفة ، جغرافية وهيدرولوجية وكيمائية وغيرها ، وكانت هذه اللجنة تضم العلماء لسوير Le Père ودولوميو Dolomieu وكوستاز Costaz ودوتيرتر Dutertre وتاليان Tallien ونسورى Norry . وتعطينا بحوث هؤلاء العلماء وتقاريرهم المجموعة في كتاب « وصف مصر » صورة كاملة لما كان يعرفه العالم عن النيل قبل الاكتشافات الحديثة ، وهو - من الناحية الجغرافية - لا يكاد يجاوز ما تلقيناه عن بطليموس ، إذ يحدثنا لوير عن منابع النيل فيردّد كان يتناقله الناس من أنها تقع على السفح الشمالى لجبال تسمى « جبال القمر » وينتهى من بحثه إلى القول بأن المثل الذى كان قد ضربه الشاعر الرومانى « كلوديان » لكل مسعى خائب أو مطلب عقيم وهو « البحث عن منبع النيل » Quaerere caput Nili لا يزال محتفظاً بكل دلالة . أما عن مجرى النهر إلى الجنوب من مدار

السرطان فيقر لو بير بأن علماء الحملة الفرنسية لم يتسن لهم أن يصعدوا فيه ، ولا أن يمدوا ميدان دراساتهم إلى بلاد النوبة ، ولهذا السبب أيضاً تقف الخرائط التي رسمها رجال الحملة التي يضمها الأطلس الملحق بكتاب وصف مصر عند ذلك الموضع دون أن تتجاوزه إلى الجنوب ، وعن سبب فيضان النهر السنوي المنتظم نجد عند علماء الحملة الفرنسية الخبر اليقين ، إذ يطرحون اختلاف الأوائل في سبب الفيضان جانباً ويقررون أنه يرجع إلى هطول الأمطار الغريزة على بلاد الحبشة^(١) وهو ما كان معروفاً من قبل ، وإذن فلم تضيف جهود علماء حملة نابليون جديداً إلى العلم في هذا الصدد .

وهكذا كان النيل الأزرق أسبق إلى كشف أسراره ورفع النقاب عن وجهه من النيل الأبيض الذي لم يبدل للناس ذات نفسه ، ولم يطلعهم على حقيقة صورته ، ويكشف لهم سر منابعه إلا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، عقب الاكتشافات الكبرى المعروفة التي تعتبر قصتها موضوعاً برأسه ، لم نقصد هنا إلى تناوله ، وهو قريب المنال لمن يبحث عنه في مظانه المبدولة لكل قارئ .

(١) وصف مصر ج ١٨ ص ٥٧٦ وج ٢٠ ص ٣٢٦ (الطبعة الثانية) .

أهم المراجع

- ابن بطوطة - تحفة النظار ، في غرائب الأمصار .
- ابن الوردي - خريدة العجائب ، وفريدة الغرائب .
- الإدريسي - نزهة المشتاق ، في اختراق الآفاق .
- السيوطي - حسن المحاضرة ، في أخبار مصر والقاهرة .
- المسعودي - مروج الذهب ، ومعادن الجواهر .
- ياقوت - معجم البلدان .

Ball, John : Egypt in the Classical Geographers, Cairo 1942.

Crawford, O.G. : Some Medieval Theories about the Nile, in The Geogr. Jour. Vol. 114, (1949) pp. 6 — 29.

Herrmann, Paul : Conquest by Man, New York 1954.

Humphreys, N. : Ruwenzori, Flights and Further Explorations, in The Geogr. Journ. Vol. 82 (1933) pp. 481 — 514.

Hurst, H.E. : The Nile, London 1952.

Johnston, H. : The Nile Quest, London 1903.

Le Père : Mémoire sur la Vallée du Nil, dans la Description de L'Egypte, t. 18, pp. 534 — 645.

Toussoun, Omar : Mémoire sur l'Histoire du Nil, 3 tomes; Le Caire 1925.

من شهداء العقيدة : ميشيل سرفيه ١٥١١ - ١٤٤٣

(١)

في القرن السادس عشر الميلادي كانت أوروبا تمر بأكبر ثورة دينية عرقتها منذ قيام المسيحية ، وأبعدها أثراً ، ثورة قسمت الكنيسة الغربية قسمين ، وفرقت أتباع خليفة القديس بطرس ما بين بروتستنتي وكاثوليكي ، وكان رافعوا أعلام هذه الثورة لوثر Luther ، في ألمانيا ، وزوينجلي Zwingli ، في سويسرا وكالفن Calvin ، في فرنسا ثم في سويسرا ، وغير هؤلاء ممن لم تحفظ ذاكرة الأجيال أسماءهم ، كما حفظت أسماء هؤلاء الثلاثة الكبار .

وقد قامت تلك الثورة باسم حرية العقيدة ، ورفعت شعار التحرر من ربقة بابا روما زعماً بأنه يملئ على المؤمنين إملاء في أمور الدين ، ونادى أصحاب هذه الثورة بأن فهم الكتب السماوية حق لكل مؤمن يستقل به ولا يطيع أحداً فيه .

ومع ذلك فقد وقعت خلال تلك الثورة المتحررة - وبأمر من أحد قادتها العظام الأحرار - مأساة ميشيل سرفيه الذي طورد واضطهد ، ثم قتل حرقاً ، لأن له في طبيعة الذات الإلهية رأياً حراً يخالف رأى الكنيسة الجديدة المتحررة الثائرة .

وهذه الظاهرة - ظاهرة انقلاب المنادين بالحرية ، إلى منكرين

للحرية على من خالفهم - كثيرة الحدوث في تاريخ البشرية ولعل تفسيرها أن هؤلاء لفرط إيمانهم بما ينادون به يتوهمون أنه وحده هو الحق ، وأنهم دون غيرهم حملة هذا الحق ، وأن من خالفهم فيه ضال ، إذا تعذرت هدايته فقد وجب - لوجه الحق - القضاء عليه .

(٢)

ولسد ميشيل سرفيه Michel Servet (أو سرفيتوس Servetus كما هي الصيغة اللاتينية لاسمه) .

ولد في التاسع والعشرين من سبتمبر سنة ١٥١١ في فيلانوفيا من إقليم أراجون بإسبانيا لأب إسباني ، وأم من أصل فرنسي ، وكان أبوه موثقاً للعقود ، قضى الجانب الأكبر من حياته في بلدة فيلانوفيا بأراجون ، حيث نشأ الصبي ميشيل .
وكان مقرراً له أن يدرس القانون كأبيه ، ولكن القدر رسم له طريقاً آخر .

وإذا كان في كل إسباني شيء من دون كيشوط - كما يقولون - فإن بطلنا كانت فيه من البطل الخيالي مشابه كثيرة ، بدنية ونفسية ، كنهافة بنيته ، وشحوبه ، ولحيته المدببة ، وكحماسه واندفاعه في نصره ما يعتقد أنه حق ، وإن كان الناس كلهم على خلافه .

طلب ميشيل سرفيه العلم في سرقسطة ، وفيها عرفه الأب خوان دي كوينتان واعظ الإمبراطور شارلكان ، فألحقه بخدمته سكرتيراً خاصاً

واصططحبه إلى تولوز ، وفيها تجلى ولع الشاب المفتوح الذهن بالإلهيات ، وصار يتجادل فيها مع علمائها الكاثوليك والبروتستنت ، ورحل مع مخدمه إلى أوجسبورج في ألمانيا لحضور مجتمعا الشهير الذى صيغت فيه البنود الثمانية والثلاثون التى هى عماد عقيدة الكنيسة اللوثرية .

كان ذلك فى سنة ١٥٣٠ ، وفى ذلك الجو العاصف الذى كان الجميع فيه مهتمين بتقويم العقيدة ، وإصلاح الكنيسة ، كان لسرفيه فى ذلك كله رأى يخالف آراء معاصريه الذين كان يرى أنهم لم يسيروا فى تقويم العقيدة إلى الغاية ، فقد كان سرفيه - وهو بعد فى العشرين من عمره - مقتنعاً بأن مجمع نيقية الذى أقر عقيدة التثليث فى القرن الرابع ، وجعل منها أساس المسيحية قد أخطأ جانب الصواب ، وأن التوحيد هو وحده العقيدة السليمة ، ولم يكتف سرفيه بهذا اليقين الذى وصل إليه ، بل حاول جاهداً أن يقنع الآخرين به ، فاتصل بكبار علماء الإلهيات فى كثير من بلاد أوروبا ، محاولاً إقناعهم بصحة رأيه ، وبضرورة بناء العقيدة الجديدة على أساس التوحيد ، فلم يستمع إليه منهم أحد ، بل ثارت عليه ثائرتهم ، واتهموه بالكفر ونبروه بأنه يهودى أو مسلم .

ولقد كان لغير سرفيه من تلك الحملة التى واجهته ما يكفى لإقناعه بأن السلامة فى السكوت ، ولكن أئى لصاحبنا أن يسكت وبين جنبيه يعتمل شعور غلاب يدفعه إلى إظهار الناس على الحقيقة التى وصل إليها ، وهكذا نشر فى سنة ١٥٣١ كتابه الأول وعنوانه « غلطة التثليث » ، وأعقبه برسالة أخرى عنوانها « محاورات فى التثليث » .

(٣)

بنشر هذا الكتاب والرسالة هبت زوبعة أثارها رجال الدين البروتستنت والكاثوليك على السواء ، وتنادوا جميعاً بتكفير صاحبها ، وبضرورة معاقبته بالعقاب الذى لم تكن الكنيسة تعرف غيره لمخالفتها فى ذلك الحين ، ألا وهو الموت ، وهكذا أصبح سرفيه مطارداً فعمد إلى تغيير اسمه إلى « ميشيل دى فيلنوف » نسبة إلى بلدته فى أسبانيا ، ورحل إلى باريس لدراسة الطب ، واشتغل فى الوقت نفسه بأعمال أخرى منها تصحيح تجارب الطبع لدى بعض الناشرين ، وكتب بهذه المناسبة مقدمة قيمة لجغرافية بطليموس فى نشرة كان يجرى إعدادها فى ذلك الحين ، كما ألف كتاباً طبياً هاماً عن الأشرطة ، حوى حملة قوية على الطب المعاصر ، نشأت ضده بسببها عداوات جديدة ، وألف فى سنة ١٥٣٨ كتاباً فى الفلك ، أدى إلى اتهامه أمام برلمان باريس بالزندقة ، ولكنه ظفر بالبراءة من تلك التهمة .

وتكشف هذه الجهود المتنوعة عن سعة الآفاق العقلية لدى « سرفيه » ، فقد كان لاهوتياً لغوياً طبيياً فلكياً جغرافياً ، ضرب فى كل علم من هذه العلوم بسهم وافر ، فى عصر كان طابعه ضيق الأفق ، وضحالة الثقافة ، وليس أدل على ضيق أفق معاصريه من أن الفصل الخامس عشر من كتابه « غلطة الثلاث » يحوى شرحاً دقيقاً للدورة الدموية الصغرى ، ومع ذلك لم يفتن إلى أهمية هذا الاكتشاف أحد ممن تصدوا لنقد ذلك الكتاب وتفنيده ، غير أن تاريخ العلم قد سجل اسم سرفيه فى صفحاته

بوصفه مكتشف الدورة الصغرى وأول من كتب عنها في علمهم .
 قضى سرفيه سنوات عديدة في حياته الهادئة طبيباً بين باريس وليون
 وفين في فرنسا ، دون أن يفطن أحد إلى أن هذا الطبيب الأسباني دى فيلنوف
 هو بعينه « الملحد » سرفيه الذى تطالب الكنيسة برأسه .

وفى خلال تلك السنوات لم ينس سرفيه دعوته إلى التوحيد ، ولكن
 الظروف منعت ، أن يدعو إليها فى العلن ، وصور له حماسه لما اعتقد أنه
 الحق أن فى مراسلة كبار رجال الدين ما قد يؤدى إلى اقتناعهم بما يؤمن
 هو به ، وكان من سوء طالع أن اختار من بين هؤلاء الذين راسلهم
 « كالفن » أحد مؤسسى البروتستنتية الذى كان قد غدا الحاكم بأمره
 فى مدينة جنيف ، بعد أن كان هو قد لجأ إليها هرباً من اضطهاد
 الكاثوليك فى فرنسا .

لم تقع رسائل سرفيه موقع الرضا من كالفن ، فحاول فى أول الأمر
 أن يقنعه بخطأ رأيه ، ثم نفى يده من أمر سرفيه ، وأحجم عن الرد
 عليه ، وصار يندد به فى أحاديثه ، ويتهمه صراحة بالزندقة والإلحاد ،
 ويتوعده - إن وقع فى يده - بصارم العقاب ، حتى إنه قال مرة :
 لو دخل سرفيه جنيف فإنه لن يغادرها حياً .

(٤)

فى هذه الفترة ألف سرفيه كتابه الكبير « المسيحية الجديدة »
 وتحت تأثير حسن الظن الذى هو بعض شيمة من يعتقدون أنهم على
 الحق أرسل إلى « كالفن » نسخة من مسودة ذلك الكتاب قبل نشره ،

مستطلعاً رأيه فيه ، فلم يرد عليه كالفن ، واحتفظ بالنسخة تحت يده دليلاً كتابياً على الزندقة والإلحاد . أوجس سرفيه خيفة من موقف كالفن ، وبلغته ولا شك تهديداته وتوعدهاته ، فكتب إليه يقول « مادمتم تعتقد أنني شيطان مريد فلنضع حداً لكل هذا ، ولتعد إليّ مسودة كتابي » ولكن « كالفن » لم يعدها إليه .

مرت على ذلك سنوات قبل أن ينشر سرفيه كتابه هذا الذي كان يعتقد أنه يضع به أسس إصلاح ديني يفوق إصلاحات « كالفن » و « لوثر » « وزوينجلي » ، وغنى عن القول أنه نشر ذلك الكتاب الكبير - البالغ سبعمائة صفحة - سراً ، فلم يظهر في طبعته التي نشرت سنة ١٥٥٣ ما يدل على اسم الناشر ، ولا مكان الطبع ، كما أنه لم يحو من اسم المؤلف إلا الحروف الثلاثة M.S.V. رمزاً إلى ميشيل سرفيه دي فيلنوف ، ولم تبق من تلك الطبعة الأولى في يومنا هذا إلا ثلاث نسخ ، واحدة بمكتبة فينا عاصمة النمسا ، والثانية بباريس ، والثالثة بإدنبرة .

وما إن نشر هذا الكتاب حتى ثارت ثائرة كالفن الذي اعتبره رداً مباشراً على كتابه الذي عنوانه « نظم الدين المسيحي » ، والذي كان قد أصبح إنجيل المذهب البروتستنتي الكالفني ، فعمد إلى استكتاب أحد أتباعه رسالة إلى أسقف فين (حيث كان سرفيه يقيم في فرنسا) يشي فيها بسرفيه . ويعلن فيها أنه مؤلف ذلك الكتاب ، ولاشك في أنه ليس مما يحمد من كالفن أن يستعدى على من يخالفه في العقيدة سلطات التفتيش الكاثوليكية التي كان هو من أوائل الثائرين عليها والهاربين من اضطهادها .

وحين وصلت تلك الوشاية إلى فين قبض على سرفيه ولكنه تمكن من

الهرب (ولعل صديقه أسقف فين سهل له طريقه) فكان أن اكتفت السلطات الدينية في تلك المدينة بمحاكمة غيابية أحرق بعدها تمثال من القش يرمز إلى سرفيه ، مع بضع نسخ من كتابه ، وكان ذلك في السابع عشر من يونيو سنة ١٥٥٣ .

(٥)

ظل سرفيه بعد ذلك طريداً تتلقفه القرى والبلدان ، ولا نعلم عن تنقلاته في فترة هربه الشيء الكثير ، غير أنه فيما يبدو أراد أن يصل إلى إيطاليا فاختار لسبب غير مفهوم الطريق الذي يمر بجنيف وهي غلطة كبرى ، سرعان ما دفع ثمنها غالياً .

وصل سرفيه إلى جنيف في الثالث عشر من أغسطس ، ونزل بفندق « الزهرة » ، وفي اليوم التالي - وكان يوم أحد - حضر الصلاة في كاتدرائية جنيف ، وهذا ما كان حرياً بأن يتجنبه ، إذ يعلم أن أى غريب في ذلك الجمع سيكون ملحوظاً ، كما يعلم أن خصمه اللدود كالفن هو الذى سيتلو الموعظة في ذلك اليوم كعادته ، وهو لابد متعرف عليه ، إذ كانا زميلين في طلب العلم في باريس ، ومع ذلك كله فقد أقدم سرفيه على تلك الخطوة ولم تتخلف عنها نتيجة المحتومة ، إذ سرعان ما قبض عليه وهو خارج من الصلاة .

وهكذا وقع خصم كالفن في يده الباطشة ، فكان ذلك نذيراً بهلاكه ، ولو كان غير كالفن هو الأمر الناهى في جنيف لكان قصارى ما يصيب سرفيه هو الإبعاد عن المدينة ، ولم يكن هو يريد غير ذلك ، ولكن كالفن

المتعصب لرأيه ، الحاكم بأمره ، كان يرى أن قيام سرفيه بدعوة غير تلك التى يدعو إليها جريمة كبرى يكفر عنها مرتكبها بحياته .

وقد كان القبض على سرفيه فى جنيف - وهو الأجنبى الذى لم يكن إلا عابر سبيل ، ولم يرتكب فى المدينة ما يؤخذ عليه - مخالفة صارخة لكل القوانين السائدة ، ولكن ماذا تفعل هذه القوانين إزاء الحصول على ما يبغيه رئيس المدينة الروحى وحاكمها المطلق كالفن ، وهو رأس « الزنديق » سرفيه ؟

لقد عبر فولتير Voltaire ، ذلك المدافع العظيم عن حرية العقيدة ، والمكافح الكبير ضد التعصب الذمى خير تعبير عما كان من الإجحاف فى هذا الإجراء التعسفى إذ قال : « إن القبض على سرفيه فى جنيف حيث لم ينشر كتبه ، ولم يدع إلى عقيدته ، ولم يكن من ثم خاضعاً لقضائها ، هذا القبض يعتبر عملاً همجياً وخرقاً للشرائع الدولية » .

(٦)

غير أن ما جرى بعد ذلك كان أفظع بكثير من مجرد القبض على عابر سبيل ، فقد أحيل سرفيه إلى المحاكمة أمام مجلس المدينة ، منعقداً بهيئة محكمة جنائية ، وعبثاً نادى المتهم بأن تلك المحكمة الزمنية ليست بالجهة المختصة بنظر خلاف عقائدى ، وعبثاً حاول الحصول من قضاته على أمر يقضى بمعاملته فى السجن معاملة إنسانية ، غير تلك المعاملة القاسية التى كان يلقاها ، إذ كان مقيد اليدين والرجلين بالسلاسل

فى جب مظلم رطب ، محروماً من أقل الضرورات الصحية ، ولكن
أنى لصوته أن يكون له صدى ، وخصمه والقائم بالاتهام ضده هو
كالفن العظيم ؟

ومع ذلك فقد وقع دفاع سرفيه البارع موقعاً طيباً من قضاته ، وأصبح
الجميع يتوقعون تبرئته ، أو الحكم عليه بجزاء مخفف كالإبعاد من المدينة ،
وهنا أصبح لا بد لكالفن من أن يتدخل فى المحاكمة بكل نفوذه حتى
لا يصدر مثل ذلك الحكم ، ولم يكن دافعه إلى ذلك اللدد فى الخصومة
والتعصب الأعمى فقط ، بل كان له دافع آخر سياسى ، إذ كان
مجلس المدينة قد حكم فى الماضى القريب ببراءة خصم آخر من خصوم
كالفن هو الراهب بولسيك الذى اختلف معه فى قضية القضاء والقدر ،
فقد كان بولسيك من القائلين بحرية الاختيار وكان كالفن جبرياً متعصباً ،
وكان لبراءة بولسيك تأثير أى تأثير فى نفوذ كالفن الدينى ، وفى مركزه
السياسى ولم يكن الموقف يتحمل براءة جديدة ينصر بها المجلس خصماً
جديداً من خصوم كالفن ، على سيد المدينة ومعلمها العتيد .

طلب كالفن من المجلس الإذن بحضور المحاكمة ، فأذن له بطبيعة
الحال ، وخلال جلسات المحاكمة التى طالت شهرين وثمانية أيام أمطر
كالفن خصمه بالاتهامات ، ودخل معه فى متاهات المناقشات الدينية
التي كانت آراء سرفيه فيها حرية بأن تصدم شعور قضاته الأتقياء ،
وهكذا تمكن كالفن من تغيير مهب الريح ولم يعد الحصول على الحكم
المطلوب - وهو إعدام سرفيه - بالأمر المشكوك فيه .

وفعلاً صدر حكم المجلس فى السادس والعشرين من أكتوبر سنة

١٥٥٣ قاضياً بإعدام سرفيه حرقاً ، وحدد للتنفيذ اليوم التالى على ربوة « شامبل » بجنيف ، ولم يكتف كالفن بهذا « النصر » بل حاول أن يحصل على نصر أكبر بأن ينتزع من سرفيه فى ساعة يأس وقنوط اعترافاً بأنه كان على باطل ، وبأن كالفن هو صاحب العقيدة السليمة ، ولكن سرفيه أبى أن يصدر عنه مثل ذلك الاعتراف ، مفضلاً أن يلتقى ربه بقلب سليم ، ومنكراً على خصمه الذى انتصر قسراً على المادة فيه ، أن ينتصر كذلك على الروح وهو وحده النصر الصحيح .

فشلت إذن محاولات حمل سرفيه على إنكار عقيدته التى كرس لها حياته ، ولم يجد التلويح له بتخفيف الحكم ، أو بتغيير طريقة تنفيذه إلى ما هو أقل من عذاب النار ، وفى الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم السابع والعشرين من أكتوبر سنة ١٥٥٣ - خرج سرفيه من سجنه مرفوع الرأس ، وسار بين حراسه إلى ساحة مجلس المدينة ، حيث تلى الحكم على الجماهير المحتشدة ومن ثم سار فى موكب حزين إلى ربوة شامبل ، حيث نصب له الزبانية أداة الإعدام ، فربطوه فى سلاسله إلى عمود من الخشب وجمعوا من حوله الأخطاب ، ووضعوا عليها مسودة كتابه - تلك التى كان قد أرسلها إلى كالفن منذ سنوات - ونسخة مطبوعة منه ، ثم أوقدوا النار التى ظلت تساور جسد ذلك الشهيد طوال نصف ساعة ، قبل أن يلفظ الروح بعد عذاب لا يحيط به الوصف .

(٧)

وهكذا أسدل الستار على مأساة ميشيل سرفيه التي هي في الواقع نقطة سوداء في تاريخ كالفن ، لا تكفي لمحوها كل محاسن ذلك المصلح الديني الكبير ، وبذلك انتهت حياة سرفيه الدنيوية ، ولكن ذكره ظلت خالدة في سجل أحرار العقيدة ، كما أن البذرة التي وضعها في الحقل الديني أثمرت بعد قرون ثمرتها فيما يعرف اليوم باسم « الكنيسة الموحدة » وهي فرقة مسيحية لها أتباع عديدون ، وبخاصة في إنجلترا والولايات المتحدة ، وهم ينظرون إلى سرفيه نظرهم إلى رائد عظيم ، ويعتبرونه من مؤسسي كنيستهم ومنشئ مذهبهم .

ولقد كان لنهاية سرفيه المروعة أثر بعيد في ضمائر الناس ، في جيله وبعد جيله ، وبخاصة أهالي جنيف الذين شعروا ولا شك بمسئوليتهم الأدبية في سكوتهم على الظلم ، وفي تسليمهم رجلاً إلى جلاديه أن يقول ربّي الله ، فأضحت مدينتهم « قرية ظالمة » - كما كانت القدس على زمن المسيح - وقد ندم عقلاؤهم على ذلك كل الندم ، وتمثل ذلك الشعور الجماعي بعد قرون من الحادث المؤلم في النصب التذكاري الذي أقيم سنة ١٩٠٣ في شامبل حيث أحرق سرفيه . وهذا النصب هو الذي نقرأ على أحد وجهيه هذه العبارة :

« نحن - أبناء كالفن - الموقرون لمصلحنا العظيم ، والمقرون بفضله ، والمنكرون في الوقت نفسه لغلطة كانت غلطة عصره ، والمتمسكون كل التمسك بحرية العقيدة وفقاً لمبادئ الإصلاح والإنجيل القويمة - قد أقمنا

هذا النصب التكفيرى فى ٢٧ أكتوبر سنة ١٩٠٣ .

وعلى الوجه الآخر من النصب نجد اسم سرفيه وتاريخ مولده ووفاته ، وقد توجهت إلى هذا النصب ذات مرة - وبجواره شارع صغير يحمل الآن اسم سرفيه - فوجدت عنده جمعاً من الموحدين الأمريكيين ، حجوا إليه عبر المحيط ، ودارت بينى وبينهم محاوره عابره حول عقيدة التوحيد فى ظل ذلك النصب المتواضع المقام تخليداً لذكرى شهيد التوحيد .

وليس نصب جنيف بالتعبير الوحيد عن تقدير العالم لسرفيه ، واستنكار أحرار الرأى والعقيدة لما جرى عليه ، فى بلدة أنماس بفرنسا تمثال أقيم فى سنة ١٩٠٨ جمعت له الأموال فى اكتاب دولى وفى « مون روج » قرب باريس نصب ثالث ، ثم هناك نصب رابع فى « فين » التى قضى فيها « سرفيه » جانباً من حياته وقد أقيم فى سنة ١٩١١ .

وبعد فلئن كانت التضحية الكبرى التى فرضها على سرفيه التعصب الدينى ، قد فتحت عيون الكثير من الناس على قيمة حرية العقيدة وعلى ضرورة إحلال التسامح محل التعصب ، فكفى بذلك جزاء ترضاه روح ذلك الشهيد فى عليائها بين أرواح شهداء الحق وأبطال الحرية فى كل زمان ومكان .



استكشاف

من أسرار الصحراء

الصحراء في بسطتها واتساعها تبعث في نفس الإنسان شتى المشاعر والانفعالات ، وهي في انقطاعها ووحشتها ترتبط بمعنى الغموض والخفاء ، كما تثير قسوة أحوالها الإحساس بالرهبة والخوف من المجهول ؛ فلا عجب إذن أن نجد الفياثى والقفار - منذ كانت - في نظر روادها مواطن أسرار لا تصل إلى كنهها عقولهم ، ومظنة هلاك لا ينجو منه إلا من سلم الله ، ولا عجب أن اعتبر العرب - أبناء الصحراء من قديم - صحراواتهم مواطن جان ومسارح غيلان ؛ إذ رأوا في ظواهرها الطبيعية ما استغلق على أفهامهم ، وتمرسوا من أحوالها بما ذهبت معه أفكارهم كل مذهب ؛ حتى لم يجدوا بداً من تخيل الجن مشاركة لهم في سكنى فيا فيهم ، وتصور الغيلان والسعالى متأبدة في قفارهم ، ومتعرضة لسالكى سبلها منهم !

وليست هذه الأوهام التى نسجت أخيلا العرب حول الصحراء فريدة فى أساطير الشعوب على اختلاف مساكنها من المعمورة ؛ فنحن نعرف أن سكان الجبال من الشعوب الأوربية كانوا يؤمنون بوجود ما أسموه « رجل الجبل » ، وتدور حوله أقاصيصهم وحكاياتهم ، كما نعرف أن أقاصيص سكان مناطق الغابات تدور حول « أقزام » يقطنون الأحراج ، منهم الطيب ومنهم الخبيث ، وليست الشقة بعيدة بين غيلان العرب وسعاليم ورجل الجبل أو أقزام الغاب . فإن ذلك كله نتاج

تأثير البيئة الخلوية - صحراوية كانت أم جبلية أم غيرها - على مخيلة الإنسان ثم انتقال تلك الانطباعات والأوهام من جيل إلى جيل ، وتوارثها زماناً بعد زمان .

ولم يفت علماء السلف مثل هذا التفسير الذى نشير إليه ، إذ نجد منهم من يقول :

« إن ما تذكره العرب وتنبئ به من ذلك إنما يعرض لها من قبل التوحد فى القفار ، والتفرد فى الأودية ، والسلوك فى المهامه الموحشة ؛ لأن الإنسان إذا صار فى مثل هذه الأماكن وتوحد تفكر ، وإذا هو تفكر وجل وجبن ، وإذا هو جبن داخلته الظنون الكاذبة والأوهام المؤذية والسوداوية الفاسدة ، فصورت له الأصوات ، ومثلت له الأشخاص وأوهمته المحال بنحو ما يعرض لذوى الوسواس . . لأن المتفرد فى القفار والمتوحد فى المروت مستشعر للمخاوف ، متوهم للمتالف ، متوقع للمحتوف ؛ لقوة الظنون الفاسدة على فكره وانغراسها فى نفسه ؛ فيتوهم ما يحكيه من هتف الهواتف به واعتراض الجان له » (١).

ومن قبله قال الجاحظ (٢) :

« كان أبو إسحاق (يعنى أستاذه النظام وكان يكثر من النقل عنه) يقول فى الذى تذكره الأعراب من عزيف الجان وتغول الغيلان : أصل هذا الأمر وابتدأؤه أن القوم لما نزلوا ببلاد الوحش عملت فيهم الوحشة ، ومن انفرد وطال مقامه فى البلاد والخلاء والبعد من الأنس

(١) المسعودى - مروج الذهب ج ٢ ص ١٦٠ .

(٢) الحيوان ج ٦ ص ٧٧ - ٧٨ .

استوحش ، ولا سيما مع قلة الاشتغال والمذاكرين ، والوحدة لا تقطع أيامهم إلا بالمنى أو بالتفكير ، والفكر ربما كان من أسباب الوسوسة . . وإذا استوحش الإنسان مثل له الشيء الصغير في صورة الكبير ، وارتاب وتفرق ذهنه وانتقضت أخلاطه ، فيرى ما لا يرى ، ويسمع ما لا يسمع ، ويتوهم على الشيء الصغير الحقير أنه عظيم جليل . ثم جعلوا ما تصور لهم من ذلك شعراً تناشدوه ، وأحاديث توارثوها ، فازدادوا بذلك إيماناً ، ونشأ عليه الناشئ ، وربى به الطفل ، فصار أحدهم حين يتوسط الفيافى وتشتمل عليه الغيطان فى الليالى الحنادس فعند أول وحشة أو فزعة ، وعند صياح بوم ومجاوبة صدى وقد رأى كل باطل وتوهم كل زور ، وربما كان فى الجنس وأصل الطبيعة نفاجاً كذاباً ، وصاحب تشنيع وتهويل ، فيقول فى ذلك الشعر على حسب هذه الصفة ، فعند ذلك يقول رأيت الغيلان وكلمت السعلاة ، ثم يتجاوز ذلك إلى أن يقول قتلها ، ثم يتجاوز ذلك إلى أن يقول رافقتها ، ثم يتجاوز ذلك إلى أن يقول تزوجتها . . وما زادهم فى هذا الباب وأغراهم به ومد لهم فيه أنهم ليس يلقون بهذه الأشعار وبهذه الأخبار إلا أعرابياً مثلهم ، وإلا غيباً لم يأخذ نفسه قط بتمييز ما يوجب التكذيب والتصديق أو الشك ، ولم يسلك سبيل التوقف والتثبت فى هذه الأجناس قط ، وإما أن يلقوا راوية شعر أو صاحب خبر ، فالراوية منهم كلما كان الأعرابى أكذب فى شعره كان أظرف عندهم ، وصارت روايته أغلب ومضاحيك حديثه أكثر . . . »

هذا ومن أسرار الصحراء التى استرعت أنظار روادها من قديم

الزمان ولم يدروا عن حقيقتها شيئاً - ظواهر كَشَفَ العلم الحديث عن كنهها ، وفسرت جهود الرحالة والعلماء كيفية حدوثها ، بحيث انجاب عنها الغموض والخفاء الذى دفع رواد الصحارى الأقدمين وسكانها الحاليين إلى تصور ما تصوره ك تفسير لتلك الظاهرات . وسنعرض فى هذا الفصل لظاهرة انبعاث أصوات عالية من رمال الصحراء فى حالات معينة ، وقد أطلق الرحالون فى العصر الحديث على هذه الظاهرة اسم « الرمال الموسيقية » أو « الرمال الهدارة » ، ولا نشك فى أن أهل الصحارى قد عرفوا من قديم هذه الظاهرة واسترعت - بلا ريب - أنظارهم ، كما هى جديرة أن تفعل . ونحن نجد فى أشعار الجاهليين إشارات إليها يتفاوت نصيبها من الوضوح والغموض ، فالأعشى مثلاً يقول :

وبلدة مثل ظهر الترس موحشة للجن بالليل فى حافاتها زجلٌ
ثم هو يقول :

ويهماء تعزف جنانها مناهلها آجنات سُدُم
ويقول بشر بن أبى خازم وهو جاهلى آخر :

وخرق تعزف الجنان فيه فيافيه تحنّ بها السهام

فشعراؤنا هؤلاء سمعوا فى الصحراء تلك الأصوات العالية ، ولم يدركوا ما هى ، ولم يعرفوا من أين تصدر ، فانطبع فى مخيلاتهم أنها لا بد أن تكون من أصوات الجن إذ يعزفون ويطرّبون !

وذو الرمة - شاعر الصحراء بحق - كان أكثر من غيره من شعرائنا الأقدمين لصوقاً بالبيئة الصحراوية ودراية بأحوالها ؛ ولذا نجد

إشارته إلى « الرمال الموسيقية » أكثر وضوحاً . ونجده أكثر دقة في وصف هذه الظاهرة من سبقوه ؛ فهو ينسبها صراحة إلى الرمل بخاصة ، لا إلى الصحراء بعامة فيقول :

ورمل عزيز الجن في عقداته هداً كتضراب المغنين بالطبل
وهو أيضاً القائل :

بلاد بيت اليوم يدعو بناته بها ومن الأصدا والجن سامر
وقال :

للجن بالليل في أرجائها زجل كما تناوح بين الريح عيسوم
دوية ودجى ليل كأنهما يمّ تراطن في حافاته الروم
وقال كذلك :

وكم عرست بعد النوى من معرس بها من صدا الجن أصوات سامر
ولا غرابة في اعتقاد شعرائنا في ذلك الزمن القديم أن ذلك الصوت من فعل الجن - تلك القوى الخفية التي يجهل عنها البشر أكثر مما يعلمون - فذلك كان قصارى حظهم من العلم ، وهم كانوا ولا شك في أولى المراحل الثلاث التي يشير إليها « أوجست كونت » في قانونه الشهير الخاص بموقف العقل البشرى من ظواهر الكون ، وهي مرحلة تفسير الظواهر بنسبتها إلى قوى فوق الطبيعة .

وقد بلغ من إلمام القدامى بوجود هذه الظاهرة الطبيعية وثبوت نسبتها إلى الجن في أذهانهم أن الهمداني صاحب « كتاب صفة جزيرة العرب » (المتوفى سنة ٣٣٤ هـ) يسمي الأماكن التي تشاهد فيها ظاهرة الرمال الموسيقية « معازف الجن » ويعدد أسماءها فيقول (ص ١٥٤) :

« معازف الجن من هذه الأرض رمل حوضي ورمل المغسل والسميرية .
ويقال بالكلمين المشرفين على الخرج ، وضلع الحزيجة من معازف
الجن المعروفة وجن البدى والبدى من أمواه الضباب والبقار وعبقر
وأكثر أرض وبار وذى سمار ، يضرب بجن ذى سمار المثل وبغول
الربضات » .

أما العلم الوضعي - وهو خاتمة المطاف طبقاً لقانون المراحل الثلاث -
فلم يعرف ظاهرة الرمال الموسيقية إلا في عصرنا الحديث ، إذ كان الرحالة
الذين جابوا صحارى العالم منذ أواخر القرن الماضى هم الذين عرضوا لوصف
تلك الظاهرة وصفاً دقيقاً ، ومحاولة تفسيرها بمساعدة العلم الحديث .

وقد أشار ابن بطوطة إلى ظاهرة الرمال الموسيقية في وصفه لمسيره من
المدينة إلى مكة في رحلة الحج سنة ٧٢٦ هجرية ، إذ قال : « ونزلنا ببدر
حيث نصر الله رسوله صلى الله عليه وسلم تسليماً وهى قرية فيها
حدائق نخل متصلة وموضع القلب الذى سُحب به أعداء الله
المشركون ، هو اليوم بستان وموضع الشهداء رضى الله عنهم خلفه ، وجبل
الرحمة الذى نزلت به الملائكة على يسار الداخل منه إلى الصفراء ، وبإزائه
جبل الطبول ، وهو شبه كتيب الرمل ممتد ، ويزعم أهل تلك البلاد أنهم
يسمعون هنالك مثل أصوات الطبول في كل ليلة جمعة » .

ولعل أول من أشار إلى صوت الرمال في العصر الحديث الرحالة
الإنجليزى شارلز داوتى الذى ظهرت الطبعة الأولى من كتابه الكبير
المعروف « رحلات في بلاد العرب الصحراوية » في سنة ١٨٨٨ ،
وهو كتاب نال حظاً من النجاح قل أن تصادفه الكتب التى من قبيله ،

فأعيد طبعه حتى الآن خمس عشرة مرة ، وأصبح يعد من النماذج الرائعة لأدب الرحلات في اللغة الإنجليزية . وحسبك أن لورانس صاحب كتاب « أعمدة الحكمة السبع » الذي طبقت شهرته الآفاق يعتبر « داوتى » إماماً يحتذى ، ويعد كتابه مثالا ينسج على منواله .

يقول « داوتى » (١) : إنه صادف في منطقة النفود شمالى شبه الجزيرة العربية تلالاً من الرمال ذات هدير ، إذا مشى على سطحها المسافر وانهالت تحت قدميه الطبقة العليا من الرمل صدر عن التل صوت مترايد الارتفاع يشبه داوتى بالرنين الذى يعقب قرع ناقوس ضخمة . وهو فى كتابه يسمى لنا تلك التلال التى بالقرب من بلدة « الحيزة » - بالروسة والدافيات وأرزوم ، ويضيف المؤلف أنه عاين الظاهرة نفسها فى رحلته مرة أخرى ، وذلك بالقرب من مدائن صالح عند تل يسمى الحوارية .

ولئن كان « داوتى » لم يصف لنا موقف رفقائه من البدو من تلك الظاهرة ولم يذكر تفسيرهم لها فإن ذلك لم يفت رحالة آخر ، كان ثانى اثنين سبقا إلى اختراق الربع الخالى على ظهور الجمال فى الثلاثينات الأولى من هذا القرن ، وهو سانت جون فلي الشهير باسم « الحاج عبد الله فلي » ، فهو يقول فى كتابه « الربع الخالى » (٢) :

إنه سمع هدير الرمال أول مرة عن بعد فى يوليو سنة ١٩٢٨ فى تلال بدر بين المدينة المنورة وينبع ، ثم عاين تلك الظاهرة عن كشب خلال رحلته عبر الربع الخالى سنة ١٩٣٢ بالقرب من بشر « نايفة »

(١) ح ١ ص ٣٥٢ طبعة ١٩٣٦ .

(٢) ص ٢٠٤ - ٢٠٩ .

حيث وضعت جماعته الرحال للاستراحة . وصعد أحد أتباعه إلى قمة تل رملي مجاور ارتفاعه نحو ٢٠٠ قدم ، وإذا بصوت عميق غليظ يصدر عن التل يشبهه « فلي » بصوت أزيز الطائرة أو بصوت أرغن كبير ، واستمر نحو أربع دقائق ، وإذا بالبدو المرافقين له يرفعون عقائرهم بأصوات يجيبون بها « الجن » الذين صدر عنهم هذا الصوت الغامض ؛ ذلك أن البدو المعاصرين كأجدادهم من شعراء الجاهلية وصدر الإسلام ينسبون هدير الرمال إلى الجن ، وقد شرحوا لفلي أن الجن المقيمين بذلك المكان يظهرون للقافلة ترحيبهم بمقدمها رافعين أصواتهم بتلك التحية الجنية العجيبة !

وقد تمكن فلي عدة مرات من أن يجعل الرمال تصوت وتهدر ، وذلك بمشيئه فوق التل وتحريكه طبقة الرمل العليا إلى أسفل ، وكان الصوت ينقطع في كل مرة بانتهاء حركة الرمل ؛ مما جعله يقطع بأن الصوت يصدر عن احتكاك حبيبات الرمال في انهيالها إلى أسفل وكثيراً ما سمع فلي بعد ذلك هدير الرمال أو موسيقاها بغير افتعال نتيجة لريح تهب أو أي سبب آخر يجعل طبقة الرمل العليا تنحدر من أعلى تل مرتفع إلى أدناه . وإذا كان فلي قد شبه هدير الرمال تارة بأزيز الطائرة وتارة أخرى بصوت الأرغن فإن « برترام توماس » شريكه في فخر ارتياد الربع الخالي - على انفراد وقبله بسنة - يشبه تلك الظاهرة التي عاينها في أثناء رحلته في تلال « جديلة » بصوت صفارة باخرة . وأنت ترى أن تلك التشبيهات - على اختلافها باختلاف الانطباعات الشخصية لكل مؤلف - تتفق كلها في وصف ذلك الصوت بالعمق والغلظ مع رنة موسيقية

لا شك فيها ، وهذه الرنة الموسيقية هي التي دعتهم إلى إطلاق اسم « الرمال الموسيقية » على هذه الظاهرة كما دعت شعراءنا القدامى من قبل إلى الكلام عن « عزف الجن » وعن « تضراب المغنين بالطبل » .

ولم يزل الربع الخالي منذ كشف توماس وفلي عن وجهه النقاب يجتذب الرحالة والمستكشفين ولا سيما من بني جلدتهما ، وآخرهم « وفريد تيزيجر » الذي جاب الربع الخالي في سنة ١٩٤٦ وما بعدها سالكاً طرقاً أخرى غير التي اختطها توماس وفلي ، ولم يفته أن يسجل ظاهرة الرمال الموسيقية ؛ فهو يصف لنا^(١) كيف فزعت جمال قافلته في أثناء هبوطها تلا رملياً شديداً الانحدار ؛ إذ صدر عنه صوت عال تزايد ارتفاعه ، وظل مستمراً لبضع ثوان بعد وصول آخر الجمال إلى سفح التل . ويقول تيزيجر : إنه كان قد سمع « زئير الرمال » مرة قبل ذلك في إحدى الأمسيات بجهة « عروق شيبان » ، واستمر الصوت في تلك المرة نحو دقيقة . ولجنوب الجزيرة العربية كذلك حظه من الرمال الموسيقية ، فالرحالة الدنمركي يورجن بيش يشير إليها في وصفه لرحلته في حضرموت من ميناء المكلا إلى بلدة شيبان ، غير أن إشارته ليست واضحة الدلالة في كونه شهد الظاهرة وسمع هدير الرمال ، فعبارة تحتل أن تكون نقلاً لما سمعه عنها من مرافقيه ، كما تحتل أن تكون وصفاً لما سمعه هو نفسه^(٢) .

(١) مجلة الجمعية الجغرافية الملكية - المجلد ١١١ (سنة ١٩٤٨) س ٩ . وانظر

كتابه « الرمال العربية » نيويورك ١٩٥٩ ، ص ١٥٠ - ١٥١ .

(٢) « وراء قناع بلاد العرب » ، الترجمة الإنجليزية ، نيويورك ١٩٦٢ ،

ولا يظن القارئ أن ظاهرة هدير الرمال أو « موسيقاها » خاصة بالربع الخالي أو بجزيرة العرب في الجملة ؛ فإنها مشاهدة في كل صحارى العالم حيثما اجتمعت العوامل الطبيعية التى تولدها : ففي شبه جزيرة سيناء بالقرب من مدينة الطور إلى الشمال منها تل يسمى « جبل الناقوس » يصدر عنه هدير كلما انهالت رماله من أعلى إلى أسفل ، وكانت العوامل الأخرى كالرطوبة والجفاف واتجاه الرياح . . إلخ مواتية لحدوث الظاهرة ، ويزعم بدو سيناء أن جبل الناقوس لا يهدر إلا في يومى الجمعة والأحد من كل أسبوع .

وفي صحراء جوبى فى جوف القارة الآسيوية لوحظت كذلك ظاهرة الرمال الموسيقية . وتصف لنا الراهبة الإنجليزية ميلدريد كييل^(١) التى جابت صحراء جوبى كيف أنها كانت فى طريقها لزيارة دير بوذى قرب « تونهوانج » فوجدته محوطاً بكثبان رملية ، ولم تستطع هى ورفيقتها فى السفر مقاومة إغراء الترحلق عليها ، وفى أثناء هبوطها الكثبان فوجئتا بسماع هدير عال ، وشعرتا باهتزازات الرمل من تحتها . وعند وصولهما إلى الدير علمتا من رئيسه أن ذلك الصوت معهود لدى الرهبان ، ولكنه لا يصدر عن كل التلال الرملية ، وإنما عن مواضع معينة فى بعضها . وقد سمعت المؤلفة ذلك الهدير فى مدة إقامتها بالدير فى أثناء هبوب رياح شديدة ، وهى تشبه بصوت الطبول (قارن بيت ذى الرمة وما رواه ابن بطوطة . عن ساكنى بدر .) وهى - مع تسليمها بأن احتكاك حبيبات الرمال هو أحد أسباب الظاهرة - ترى أن ثمّ عوامل أخرى غير محددة ،

(١) صحراء جوبى - لندن سنة ١٩٤٢ ص ٦٤ - ٦٥ .

ولابد من اجتماعها لحدوث الهدير وإلا وجب أن تهدر كل كثران الرمل متى انتهت طبقة الرمال التي على سطحها .
وكذلك عاين ظاهرة الرمال الهدارة في الصحراء الليبية أكثر من فرد ،
ولدينا شهادة من رحالة تنقل في الصحراء الليبية من أقصاها إلى أقصاها
هو « ر . أ . باجنولد » المختص بدراسة الرمال وخصائصها وحركاتها ،
وهو يروي (١) أنه لم يسمع صوت الرمال التلقائي وإن كان قد قابل من
سمعه ؛ أما هو فقد أحدث بفعله ذلك الصوت في كثران الرمال بالصحراء
الغربية أكثر من مرة بأن كان يمشي فوق الكثيب أو يحرك الرمل
بيديه ، فيصدر عنه ذلك الصوت العريض العميق . ويضيف باجنولد
قائلاً : إن الصوت لا يصدر إلا عن الرمال ذات الحبيبات الكبيرة
نوعاً التي تكون متماثلة حجماً وتامة الاستدارة ، وليس بينها تراب رفيع
أو حبيبات أصغر منها في الحجم . وهو يصدر في هذا القول عن دراسات
تجريبية ، واختبارات معملية .

* * *

هذا وقد تمكن العلماء من إحداث ظاهرة هدير الرمال في معاملهم
المرّة بعد المرّة بأن أرسلوا الرمل على سطح مائل من الزجاج أو في أنابيب
زجاجية مائلة بزاوية معينة مع توافر شروط أخرى من حيث درجة الحرارة
والرطوبة . . إلخ ، وكتبوا عن ذلك التقارير المفصلة . ويجد القارئ
تقريراً منها بقلم العالم الإنجليزي الدكتور فون كورنيس منشوراً في ذيل
كتاب فلي الذي سلفت الإشارة إليه .

ويقول كاتب ذلك التقرير : إن تلك الظاهرة تنشأ عن ترجيع صوت احتكاك حبيبات الرمال على سطح مستو منحدر *gliding plane* في داخل التل أو الكثيب الرملى ، وتفصيل ذلك أن الرمال التى على سطح تل شديد الانحدار محجوب عن الريح متى كانت جافة وغير متماسكة ، تنهال من القمة إلى السفح عند أى اضطراب يقع بفعل المشى عليها أو بفعل هبوب رياح شديدة من خلف التل أو لأى سبب آخر ، وبانهيال تلك الطبقة السطحية من الرمل تتسلسل حركات انهيال فى الطبقات التى تليها سفلاً ، وبذلك يتعالى الصوت الذى تحدثه حبيبات الرمال فى احتكاك بعضها ببعض ، ولكنه يكون صوتاً مختلط المعالم غير واضح النبرة إلى أن تصل حركة الانهيال إلى طبقة فى داخل الكثيب تكون رمالها متماسكة وثابتة بطول ضغط الطبقات العليا عليها ، وبذلك يقف تسلسل حركات الانهيال من السطح إلى الداخل ويصبح لدينا مسطح منحدر ثابت تنهال فوقه وتحتك به طبقة فوق طبقة من الرمال السطحية ، وهنا يصل الصوت إلى أقصاه وتتضح معالمه فيغدو هديرًا عميقاً بعد أن كان مجرد أصوات احتكاك مختلطة .

وظاهر من هذا الشرح الموجز أن عوامل عدة تشترك فى إحداث ظاهرة الرمال الهادرة أهمها :

- ١ - مقدار ارتفاع التل أو الكثيب الرملى وزاوية انحدار سطحه .
- ٢ - اتجاه هبوب الريح .
- ٣ - درجة الرطوبة ؛ إذ لو كانت الطبقة السطحية من الرمل غير جافة ومن ثم ملتصقة ببعض حبيباتها ببعض لا يحدث الانهيال بالشكل المطلوب .

٤ - حجم حبيبات الرمل ومقدار استدارتها ثم مبلغ تماثلها حجماً ،
فكلما كانت الحبيبات كبيرة شيئاً ما وتامة الاستدارة ومتماثلة الحجم
كان ذلك أدعى إلى صدور أصوات احتكاك عنها يؤدي ترديدها
وترجييعها إلى حدوث الهدير .

٥ - وجود « سطح منحدر » داخل التل أو الكثيب فليس كل
التلال الرملية فيها طبقة سفلية متماسكة ملتحمة بفعل ضغط الطبقات
العليا تكون مسطحاً مستوياً يقف عنده تسلسل انبihal الرمال وتحتك به
الطبقات العليا في انبهاها ، فتتحول بذلك أصوات الاحتكاك غير
الواضحة إلى ذلك الهدير العالى الواضح الجرس

ومثل هذا التفسير « الوضعى » لهذه الظاهرة الطبيعية خطر كذلك
لبعض علمائنا فى العصر الذهبى للثقافة العربية ، إذ ينقل الجاحظ عن
أستاذه أبى إسحاق النظام قوله :

« يكون فى النهار ساعات ترى الشخص الصغير فى تلك المهامه
عظيماً ، ويوجد الصوت الخافض ربيعاً ، وتسمع الصوت الذى ليس
بالرقيق ربيعاً من انبساط الشمس غدوة من المكان البعيد ، ويوجد
لأوساط الفيافى والقفار والرمال والحرار فى أنصاف النهار مثل الدوى من
طبع ذلك الوقت وذلك المكان عندما يعرض له . . قالوا : وبالدوى
سميت دَوِيَّةٌ ودَاوِيَّةٌ وبه سمي الدُّودُ . . » (الحيوان ح ٦ ص ٧٧) .
وهكذا محا العلم الحديث عن ظاهرة هدير الرمال ما كان يحيط
بها من غموض وسحر وشاعرية ؛ فانقضت إذن أعراس الجن فى الصحراء ،
وانفض سامرهم ، فلم يعودوا يغنون ويضطربون . . وكذا العلم : كلما

فتح عين الإنسان على حقيقة من حقائق الكون هاض جناحاً كان يحلق به
في أجواء الخيال .

* * *

ومن الألغاز التي تنطوى عليها رمال الصحارى وتخفى سرها الأودية
والقفار لغز لعله أكبرها نصيباً من اهتمام الناس على تباين بواعثهم ،
وأكثرها استراقاً للأفتدة وأشدّها لصوقاً بأذهان من يستهويهم الغموض
ويصيحون إلى نداء المجهول ، ذلك هو لغز المدن المطمورة والواحات
المفقودة التي تحفل بها أحاديث سكان الصحراء وتدور حولها قصص
الرحالة وأصحاب الأخبار

ولعل من الطبيعي أن تنشأ في البيئة الصحراوية أحاديث عن مدن
طمرتها الرمال ، أو واحات انقطعت دونها السبل ؛ ذلك أن مناطق
العالم الصحراوية إنما طراً عليها الجفاف التدريجي بعد عصور طويلة
كانت فيها تلك المناطق أكثر أمطاراً وأغزر نباتاً ، ومن ثم فإن سكان
الصحراء كثيراً ما يشاهدون حولهم معالم عمران قديم لا يعرفون عنه
شيئاً فتثير خيالهم تلك المشاهد . كما أن لحركات الرمال في كثير من
مناطق الصحراء مداً وجزراً وجيئة وذهاباً ، فلا يستبعد أن يرى ساكنو
الصحراء اليوم ما تغير عليه الرمال غداً فتبتله وتجمعه كأمس الدابر
أثراً بعد عين ، ثم إن غموض سبل الصحراء وسهولة الضلال فيها من
شأنهما أن يبهما على السالكين أحياناً سبيلاً كانت قد أدت بهم من قبل
إلى واحة أو إلى ماء ، وفي مثل تلك الظروف مجتمعة كان لا عجب أن
يشيع بين الناس حديث عن مدن قديمة ضاع أثرها وعفت عليها الرمال ،

وواحات يانعة عزت على الطلب فلا يصل إليها إنسان
ومن هذا النوع من الأحاديث ما حققته الأيام من بعد فاتضح
أنه كان يعكس وقائع تقادم عهد الناس بها فانقلبت على ألسنتهم حديثاً
وأساطير ، ومنها ما لا يزال إلى اليوم حديثاً وأسطورة لم ينقشع من حولها
الضباب ولم تثبت حقيقتها الأيام ، كما لم تنفها بوجه قاطع ، فظل
أمرها متردداً بين النفي والإثبات ؛ ومن هنا كان سحر هذا السر من أسرار
الصحراء ، وكانت جاذبيته لكثيرين ممن تتعلق آمالهم بالكشف عن
الغوامض ويستهيى نفوسهم ما وراء المجهول .

وربما كان أشهر حديث من أحاديث المدن المظمورة والواحات
المفقودة حديث « وبار » الذى يتردد فى أقاصيص العرب منذ أبعد
العصور ، ويتناقله كتابهم واحداً بعد واحد ، ويجعله شعراؤهم مضرب
المثل فى الخفاء والغموض ، وأصل ذلك الحديث أساطير الأعراب
وبخاصة سكان الجزء الجنوبي من شبه الجزيرة العربية حيث موقع « وبار »
التقليدى فى مجاهل الربع الخالى وبين رماله المترامية .

ويلخص لنا الجاحظ ما كانت تتناقله الأعراب عن « وبار »
فيقول^(١) :

« وتزعم الأعراب أن الله تعالى لما أهلك الأمة التى كانت تسمى
« وبار » - كما أهلك طسما وجديسا وعملاقا وثمود وعادا - سكنت
الجن فى منازلهم وحمتها من كل من أرادها ، وأنها أخصب بلاد الله
وأكثرها شجراً وأطيبها ثمراً وأكثرها حباً وعنباً وأكثرها نخلاً وموزاً ، فإن دنا

اليوم إنسان من تلك البلاد متعمداً أو غالطاً حثوا في وجهه التراب ،
فإن أبى الرجوع خبلوه وربما قتلوه .

وينقل ياقوت في « معجم البلدان » عن ابن الكلبي قوله :
(قرية « وبار » كانت لبني وبار ، وهم من الأُم الأولى ، منقطعة
بين رمال بني سعد وبين الشحر ومهرة ، ويزعم من أتوها أنهم يهجمون
على أرض ذات قصور مشيدة ونخل ومياه ومطر وليس بها أحد ، ويقال
إن سكانها الجن ولا يدخلها إنسى إلا خبل) .

على أن علماء السلف المحققين لم يرتضوا التسليم بوجود هذه المدينة
المجهولة ؛ إذ لم يقم لديهم الدليل المقنع على حقيقة وجودها ؛ ولذا نجد
أن ياقوتاً يختم ما أورده تحت عنوان « وبار » بقوله :
« وهذه الأخبار أشباه ونظائر في أخبارهم ، والله أعلم بحق ذلك
من باطله » .

أما الجاحظ فلا يكتفى بالتوقف في أمر « وبار » ، بل هو يقطع
بأن ما يقال عن هذه المدينة المفقودة غير صحيح وذلك في قوله :
« والموضع نفسه باطل ، فإن قيل لهم دلونا على جهته ، وقفونا
على حده . . زعموا أن من أراد أن ألقى على قلبه الصرفة ، حتى كأنهم
أصحاب موسى في التيه . . »

ومهما يكن من أمر حقيقة وجود « وبار » في العالم المادي فإنها
في عالم العرب المثالي كانت حقيقة تدور حولها أحاديثهم ، ويضرب بها
المثل على مر العصور شعراؤهم ، فيقول الأعشى قبل الإسلام :
ومر دهر على وبار فأهلك جهرة وبار

ويقول الفرزدق في العصر الأموي :

ولقد ضللت أباك تطلب دارماً كضلال ملتبس طريق وبار

ويقول غيره من الشعراء :

وداع دعا والليل مرخ سدوله رجاء القرى يا مسلم بن حمار

دعا جُعلاً لا يهتدى لمقبله من اللؤم حتى يهتدى لوبار

ويقول المتنبي في المائة الرابعة :

الراجع الخيل محفاة مقودة من كل مثل وبار أهلها إرم

يمدح سيف الدولة بأنه يعود من غزواته منتصراً وقد أهلك أعاديه كما

هلكت إرم ، وخرّب ديارهم كما خربت وبار .

فأنت ترى أن الشعراء قد جعلوا « وبار » مثلاً في الضلال وعلماً

على الخراب ، وأصبح اسمها يدور على الألسنة في معرض التجهيل

والتعمية كما يقال : « ذهب إلى بلد إصمت ، وتركته بملاحس البقر ،

وأظنه بمطارح البزاة ، أو بهور ذابر ، أو بعين وبار » وهذه كلها أما كن

لا يهتدى إليها ، بل لا يدري أين هي ؟

على أن اسم وبار يرد كذلك في الشعر القديم ، في صور أخرى

يفاد منها أن الشاعر يشير إلى أرض معروفة ومكان مطروق وذلك كقول

النابغة :

فتحملوا رحلاً كأن حمولهم دوم ببيشة أو نخيل وبار

ويقول الفرزدق في مدح يزيد بن المهلب :

وطئت جياذ يزيد كل مدينة بين الردوم وبين نخل وبار

وهذا يدل على أنها بلاد مسكونة ذات نخيل .

فلعل « وبار » - الإقليم - حقيقة جغرافية ؛ أما « وبار » -
 المدينة المطمورة - فهذه نصيب الواقع منها دون نصيب الخيال ، وحقيقتها
 على فرض وجودها قد ضاعت في ثنايا الأساطير .
 على أن من جَوَّابِي الجزيرة العربية في عصرنا الحديث من استهوته
 قصة « وبار » ، وظن في بعض ترحاله في الربع الخالي أنه قد اهتدى
 إلى موقع المدينة المدفونة ، إلى أن خيب السعى إلى ذلك الموقع ظنه ،
 وهو الرحالة الإنجليزى سنت جون (عبد الله) فلي^(١) .
 سمع « فلي » من البدو المرافقين له في رحلته سنة ١٩٣٢ عن « وبار »
 المدينة المهجورة التى تخفى أطلالها رمال الربع الخالي ، وأعرب له بعضهم
 عن استعداده لأن يرشده إلى مكانها قائلاً : إنه رأى أطلال المدينة رأى العين
 عدة مرات ، فشاهد بقايا حصون وقصور سودت النار حيطانها ، وإن
 بعض تلك الأطلال يخفى حيناً تحت الرمال ، ثم يعود فيظهر تبعاً
 لحركات كثبان الرمال في تلك المناطق . ومن وصف الموقع قدر فلي
 أن تقع تلك الأطلال على مقربة من وادى الدواسر ، وإذا كان ذلك
 الوادى مجرى نهر قديم كان ولا شك يجرى بانتظام في العصور الخالية
 قبل أن يظغى الجفاف على الجزيرة العربية ؛ فقد قوى أمل فلي في
 أن يجد على ضفاف ذلك النهر القديم آثار تلك المدينة الغابرة التى
 تصور عظمتها وفخامتها أحاديث الأعراب وأصحاب الأخبار . . .
 وبعد سير طويل اقتربت القافلة من الموقع المنشود ، فإذا على البعد

(١) « الربع الخالي » لندن سنة ١٩٣٣ ص ١٥٧ - ١٨٠ وانظر مجلة الجمعية

الجغرافية الملكية (لندن) المجلد ٨١ ص ١٢ - ١٤ .

ما يشبه بقايا الحيطان المسودة يبدو واضحاً بين الرمال الصفراء ، ولكن سرعان ما خابت الآمال ؛ إذ تبين أن ما هنالك لا يعدو حافة بركان بالقرب منها أخرى مثلها ، وقد اعتقد في ذلك الوقت أنه أمام سحرة بركانية من الخراز التي توجد في الصحراء أحياناً . على أن تحليل النماذج التي حملها معه من ذلك المكان أثبت أن هاتين الحافتين ليستا بركانيتين ، وإنما هما من أثر سقوط نيزكين كبيرين في ذلك المكان ، تخلف عن كل منهما انخفاض في الأرض يحيط به ما ظن دليله الأعرابي أنه بقايا أسوار « وبار » ، وقد يكون الدليل معذوراً في ذلك ؛ إذ يقول فلي : إن مشهد الحافتين عن بعد قد يلتقي في روع المشاهد أنه أمام بقايا قلاع أو أبراج .

وهكذا سرعان ما انقضى حلم العثور على « وبار » ؛ ويقول « فلي » : إنه انتهى من بحثه إلى انتفاء أي احتمال لوجود آثار مدينة قديمة في أنحاء الربع الخالي ، لأن الجفاف الشديد كان في رأيه « قد سود هذه المنطقة قبل أن يزرغ فجر الحضارة البشرية » . أما أسطورة « وبار » - على فرض أن لها أضلا تاريخياً - فينبغي في نظره البحث عن حقيقتها في بعض نواحي اليمن أو حضر موت .

والأساطير كلما تطاولت عليها الأزمنة اختلط أمرها على متناقلها ودخلتها أوهام على أوهام وأغاليط فوق أغاليط ؛ فمراققو « فلي » من البدو كانوا يتحدثون عن « وبار » بوصفها مدينة عاد التي بناها الملك شداد بن عاد ، وهذا خلط منهم بين خبر « وبار » وخبر آخر من نوعه ، موضوعه مدينة « إرم ذات العماد » التي وردت الإشارة إليها

في القرآن الكريم . وقد يماً نبه العكبرى في شرحه لبيت المتنبي الذي أوردناه إلى عدم الخلط بينهما قائلاً : إن البيت ليس معناه أن أهل وبار هم من قبيلة إرم وإنما يعنى الشاعر أن ممدوحه يعود منتصراً من كل مدينة أضحى أهلها مثل إرم في الهلاك ، وغدت بلدهم مثل وبار في الخراب . أما مدينة إرم فهي التي بنيت حيطانها من الذهب ، ونحتت عمدتها من الزبرجد والياقوت ، ورصفت شوارعها بالفضة ، وفصصت بأصناف الجواهر ، ثم غضب الله على أهلها لعصيانهم وتكذيبهم نبيهم هودا ، فساخت مدينتهم في الأرض ، ولم يدخلها بعد ذلك إنسان . ونخبر إرم يطول إيراده (١) وقد تفنن فيه القصصا وأصحاب الأخبار حتى اضطر صاحب « معجم البلدان » إلى أن يقول في ختام ما أورده عنها : « قلت : هذه القصة مما قدمنا البراءة من صحته ، وظننا أنها من أخبار القصص المنمقة وأوضاعها المزوقة » .

* * *

وصحراؤنا الغربية في مصر كانت مسرحاً لأكثر من قصة من قصص البحث عن الواحات المفقودة والمدن المدفونة ؛ منها ما تكلل بالنجاح ، ومنها ما باء بالفشل ، وليس العهد بعيداً بواحة الكفرة التي لم تكن إلا حديثاً يروى إلى أن وصل إليها لأول مرة الرحالة الألماني جيرارد رولفس في سنة ١٨٧٩ ، ثم انقطعت السبيل إليها . حتى زارها الرحالة المصري أحمد محمد حسنين بعد ذلك باثنين وأربعين عاماً ، ومنذ ذلك الوقت استمر اتصالها بالعمران بعد أن عبرت الجسر بين

(١) انظر « معجم البلدان » مادة « إرم » .

دنيا الأساطير وعالم الحقائق .

وغير بعيد من الكفرة - في ذلك الركن الجنوبي الغربى من إقليم مصر - اكتشف حسنين في العشرينات الأولى من هذا القرن واحتى أركنو والعوينات .

ولم يكن معروفاً عنهما قبل ذلك الاكتشاف شىء مقطوع به ، وإنما كان ثمة حديث يدور على ألسنة سكان الصحراء الليبية عن واحة أو واحتين في ذلك الركن الذى تلتقى فيه حدود مصر وحدود ليبيا والسودان ، ولم يكن لدى مكتشف العوينات من أسباب الأمل فى العثور عليها أكثر مما كان لدى فلي حينما انطلق باحثاً عن وبار ؛ ذلك أن حسنين قد بنى مشروع رحلته على أساس المتسامع بين البدو من وجود هاتين الواحتين ، وعلى ما سجله الإنجليزى هاردنج كنج فى بحث له نشر سنة ١٩١٣ بعنوان « الصحراء الليبية من معلومات أهلها » جاءت فيه إشارة إلى واحة تسمى « عوانة » أو « عوانات » فى منتصف الطريق بين الكفرة والمرجة (فى السودان) ، ثم على خريطة نشرت فى ألمانيا سنة ١٨٩٢ ثبت فيها موقع واحتين مجهولتى الاسم بين خط العرض ٢١ وخط الطول ٢٣ ، وليس فى هذه العناصر كلها ما كان يكفل النجاح أو يبشر به ؛ إذ أن جميع الواحات الأسطورية يدور حديثها على ألسنة البدو ، ويتناقله الكتاب القدامى والمحدثون ؛ أما إثبات الموقع على الخرائط فلا يعنى شيئاً كثيراً ؛ إذ أن « وبار » نفسها لم تعدم بعض الخرائط التى أثبتت موقعها وأوردت اسمها ، ومن ذلك الخريطة المرسومة سنة ١٩٢١ والمنشورة مع كتاب « هوجارث » عن

بلاد العرب^(١) . إذ أوضحت تلك الخريطة موقع « وبار » عند التقاء خط العرض ٢١ وخط الطول ٤٨ .

ومهما يكن من أمر فقد وصل حسنين فعلا إلى العوينات وإلى أركنو ، وكشف النقاب عن واحتين مفقودتين حقيقتين ، وكان لنجاحه أثر كبير في إلهاب خيال الباحثين عن المجهول ، وشحذ هم الرحالة والمستكشفين ، فانبرى فريق منهم يجوب الصحراء الليبية في محاولات فردية أو مشتركة كان معظمها يدور حول واحة أو مدينة مفقودة تسمى « زرزورة » ولا شك في أن أمل هؤلاء في العثور على زرزورة أو على غيرها من الواحات المجهولة كان له ما يبرره إذا ذكرنا أن جانبا غير صغير من صحرائنا الغربية لا يزال غير معروف ، بل كان الجانب الأكبر منها غير معروف في سنة ١٩٢٥ ؛ ففي تلك السنة كانت نسبة ما تم مسحه وعملت الخرائط الدقيقة له في مساحة الإقليم المصرى هي ٢٠٪ ، وما كان معروفاً معرفة لا بأس بها يبلغ ٢٤٪ ، أما باقى مساحة مصر ويبلغ ٥٦٪ من مجموعها فقد كان مجهولاً تماماً ، وكان معظم هذا المجهول فى الصحراء الغربية ، أما فى سنة ١٩٥٢ فقد كان أما الباقي من مساحة مصر وهو ٣٣٪ فقد كان لا يزال مجهولاً ، وهذا القدر كله فى الأجزاء القصية من الصحراء الغربية^(٢) .

أما قصة زرزورة فليس لها ما لقصة « وبار » من الماضى الطويل ، بل هى تعتبر حديثة العهد نسبياً ، وقد بدأت فيما يظهر على يد الباحثين

D.G. Hogarth : Arabia, Oxford, 1922

(١)

(٢) مجلة معهد الصحراء - المجلد ٢ - العدد الثانى ص ١٣١ - ١٣٣ .

عن الكنوز والدفائن ؛ إذ وردت الإشارة إليها في كتاب لمؤلف مجهول يرجعه البعض إلى القرن التاسع الهجري وعنوانه « كتاب الدر المكنوز والسر المعزوز في الدلائل والخبايا والدفائن والكنوز » وهو من المخطوطات التي تحتفظ بها مكتبة المتحف المصري ، وقد نشرته مصلحة الآثار مطبوعاً مع ترجمته إلى الفرنسية في سنة ١٩٠٧.

وهذا الفن مما اهتم له كثير من المصريين من قديم ، وألفوا فيه الكتب المطولة وإن كان معظم ما فيها خرافات وأقاصيص لا طائل تحتها ؛ ولا عجب في اهتمام المصريين بأمر الدفائن والكنوز ، فهم يسكنون بلاداً تحفل بآثار الأوائل وقبور الغابرين التي لا يخلو الكثير منها من الذهب والفضة ، وإلى هذا يشير المسعودي بقوله في « مروج الذهب » (١) : « ولمصر أخبار عجيبة من الدفائن والبنيان وما في الدفائن من ذخائر الملوك التي استودعوها الأرض ، وغيرها من الأمم ممن سكن تلك الأرض وتدعى بالمطالب إلى هذه الغاية » .

ويستطرد فيقول :

« وقد كان جماعة من أهل الدفائن والمطالب ، ومن قد أغرى بحفر الحفائر ، وطلب الكنوز ، وذخائر الملوك والأمم السالفة المستودعة بطن الأرض ببلاد مصر ، وقع إليهم كتاب ببعض الأقلام السالفة ، فيه وصف موضع ببلاد مصر على أذرع يسيرة من بعض الأهرام المقدم ذكرها بأن فيه مطلباً عجيباً ، فأخبروا الإخشيد محمد بن طغج بذلك فأذن لهم في حفره . . فحفروا حفراً عظيماً إلى أن انتهوا إلى أزج وأقباء

(١) ح ١ ص ٣٦٦ وما بعدها .

وحجارة مجوفة في صخر منقور ، وفيه تماثيل قائمة على أرجلها من أنواع الخشب ، قد طليت بالأطلية المانعة من سرعة البلى . . منها صور شيوخ وشبان ونساء وأطفال أعينهم من أنواع الجواهر كالياقوت والزمرد والفيروزج والزبرجد ، ومنها ما وجوها ذهب وفضة ، فكسروا بعض تلك التماثيل فوجدوا في أجوافها رماً بالية وأجساماً فانية ، وإلى جانب كل تمثال منها نوع من الآنية كالبراني وغيرها من الآلات من المرمر والرخام . . وعليها أنواع من الكتابات لم يقف على استخراجها أحد من أهل الملل ، وزعم قوم من ذوى الدراية منهم أن لذلك القلم من حين فقد من الأرض - أعنى أرض مصر - أربعة آلاف سنة . . وكان ذلك في سنة ثمان وعشرين وثلثمائة .

وأنت تجد في هذه الفقرات من « مروج الذهب » إشارة إلى عملية من أقدم عمليات التنقيب عن الآثار في التاريخ وإن اختلفت البواعث وتباينت الغايات .

ونعود إلى أصحاب « المطالب » ومؤلفي كتب الكنوز فنقول : إن أحدهم وهو صاحب « كتاب الدر المكنوز » الذي سلف ذكره أشار في الفقرة ٣٦٩ من كتابه إلى مدينة زرزورة في عبارة ضعيفة ركيكة ننقلها على علاقتها قال :

« اسلك الوادى وادخل فيه مصعداً إلى أن تلقى وادياً آخر مغرب مفتوحاً بين جبلين وتجد فيه طريقاً اسلكها توصلك إلى مدينة زرزورة تجد بابها مقفلاً ، وهى مدينة بيضاء مثل الحمامة ، وتلقى على بابها طيراً مصوراً مد يدك إلى فمه ، وخذ المفتاح وافتح وادخل إلى المدينة تلقى مالا كثيراً

والملك والملكة في القصر نائمين فلا تقربهما وخذ من المال والسلام .
 هذا وقد ورد اسم زرزورة في الكتب العربية مرة أولى قبل كتاب
 « الدر المكنوز » بحوالى قرنين من الزمان ، وذلك في كتاب « تاريخ
 الفيوم وبلاده » لأبى عثمان النابلسي (١) الذى أشار إلى « زَرْزُورَة »
 (بهذا الضبط أى بفتح الزاى الأولى وسكون الراء وضم الزاى الثانية ثم
 راء مفتوحة بغير واو) ضمن بلدان الفيوم التى « دثرت بحيث ما فيها
 ساكن ولا بها قاطن » وذلك بسبب إهمال أعمال الرى القديمة ، مما أدى
 إلى جفاف بعض الترع وخراب ما كان عليها من البلدان العامرة ،
 فإذا كانت زرزورة « النابلسى هى نفسها « زرزورة » صاحب كتاب
 الكنوز فإن الأصل التاريخى لأسطورة المدينة المفقودة يكون ماثلاً لدينا
 فى البلدة الفيومية التى خربت بعد عمران ، ونكون بذلك قد بعدنا عن
 الواحة أو المدينة التى تكمن فى طرف قصى مجهول من أطراف الصحراء
 الغربية .

أما أول إشارة إلى زرزورة عند المؤلفين الأوربيين فقد وردت فى
 كتاب للرحالة الإنجليزى سير جاردنير ولكينسون طبع فى سنة ١٨٣٥
 يقول مؤلفه : إنه سمع من بعض سكان الواحات الداخلة عن وجود
 واحة تسمى زرزورة إلى الغرب من الواحات المعروفة فى الصحراء
 الغربية كما أشار المؤلف نفسه إلى أسماء واحات أخرى سمع عن وجودها ،
 ولم تكن إذ ذاك معروفة ، ثم اكتشفت بالفعل بعد ذلك فى مجموعة

(١) صنف هذا الكتاب فى سنة ٦٤١ هـ وطبع فى القاهرة سنة ١٨٩٨ (من

منشورات دار الكتب) والنابلسى من موظفى ديوان الدولة الأيوبية انظر ختام ص ١٧ .

واحاحات الكفرة .

ولعل ما أورده ولكينسون فى كتابه هو السند الذى جعل واضع الخريطة التى رسمت للجمعية الجغرافية المصرية فى سنة ١٨٧٧ يورد فيها اسم « وادى زرزورة - واحة الزنوج » فى المنطقة المحصورة بين خطى الطول ٢٤ - ٢٦ وخطى العرض ٢٦ - ٢٨ .

على أن هذه الإشارات العابرة مضافاً إليها أحاديث البدو واكتشاف بعض الواحات التى كانت حتى ذلك الحين مجهولة كانت كافية لإشعال حماس بعض المستكشفين فانطلقوا يبحثون عن زرزورة - سواء أكانت مدينة ذات كنوز « وبيضاء مثل الحمامة » أم كانت واحة كغيرها من واحاحات الصحراء - واختار كل منهم منطقة من الصحراء الغربية لبحثه ، وأهم هؤلاء الباحثين اثنان قاما بمحاولتهما فى فترتين متقاربتين .

فى سنة ١٩٣٣ قام الإنجليزى أورد ونجيت برحلة عبر خلالها منطقة الكشبان الرملية المعروفة باسم « بحر الرمال » التى إلى الغرب من الواحات المعروفة ، على أن رحلته لم تسفر عن اكتشاف أية واحة أو أى أثر لنبات أو ماء فى تلك المنطقة القاحلة ، وإن لم تخل تلك الرحلة من بعض الفوائد العلمية التى لا تتصل بموضوع هذا الحديث (١)

وخلال المدة من سنة ١٩٣٢ إلى سنة ١٩٣٦ قام الكونت المجرى لاديسلاس دى ألماشى (الذى توفى سنة ١٩٥١) برحلات متعددة

(١) انظر مقال ونجيت عن رحلته فى مجلة الجمعية الجغرافية الملكية (لندن) المجلد

إلى المنطقة الجنوبية الغربية من الصحراء الليبية حيث الهضبة الصخرية المتسعة المعروفة باسم « الجلف الكبير » والتي لم تكتشف إلا في سنة ١٩٢٣ ، وقد قدر أوماشي أن واحة زرزورة لابد أن تكمن في مكان ما من تلك الهضبة التي تشمل مساحتها مئات الأميال المربعة ، وقد وجد فعلاً في ثلاثة من الأودية الكثيرة التي تخترق هضبة الجلف الكبير القاحلة أشجاراً خضراء وأعشاباً تصلح للمرعى ، ويبدو أن تلك الأودية تعشب بعد المطر ، وقد تعود إلى القحط إذا طالت بها سنوات الجفاف . ثم علم أوماشي من سكان واحة الكفرة من قبيلة تيبو الزنجية أنهم كانوا يعرفون سر هذه الأودية ، وكانوا يخفونهم عن العرب الذين لم يحتلوا الواحة إلا في القرن الماضي فقط ، كما علم أن أكبر تلك الأودية الأخضر يسمى وادي عبد الملك ويسمى الواديان الآخران وادي الحمراء ، ووادي الطلح .

ولكن أين « زرزورة » من وادي عبد الملك ؟ هنا يستشهد أوماشي بعبد الملك نفسه فيقول : إنه علم أن مكتشف ذلك الوادي هو من سكان الكفرة العرب الذين هجروها إلى مصر بعد الاحتلال الإيطالي لليبيا ، ويسمى عبد الملك إبراهيم الزواوي ، ويشغل بالرعى في أطراف الفيوم ، وبعد بحث طويل عن هذا الشيخ المسن عثر أوماشي عليه ، واستوضحه أمر الوادي الذي يطلق عليه اسمه ، فأفاده عبد الملك أن الإمام السنوسي كان قد أوفده من الكفرة إلى منطقة الجلف الكبير للبحث عن الواحات التي تردد أن التيبو يعرفون سرها ولا يريدون الإرشاد عنها ، فوفق عبد الملك في العثور على تلك الأودية ، ويقول أوماشي : إنه وصفها وصفاً دقيقاً ،

وأفاد أن في أكبرها عين ماء ثرة . ولم يعثر عليها الماشي في زيارته وإن كان ذلك لا ينفي وجودها في مكان ما من الوادي ، وأضاف عبد الملك أن اسمه أطلق على أكبر الأودية الثلاثة ، ولكن الاسم الحقيقي له هو « زرزورة » بسبب كثرة الطيور الصغيرة (الزرازير) فيه . ويؤكد لنا الماشي أنه كان حريصاً من أول الأمر على أن يتحاشى أية إشارة إلى اسم زرزورة ، ويقول : « إن عبد الملك ذكر الاسم من تلقاء نفسه » . وينتهي الماشي من ذلك إلى أن وادي عبد الملك والوادين الآخرين في جوف هضبة الجلف الكبير هي واحة زرزورة التي تتحدث عنها الأسطورة القديمة ، وإذن فتكون المدينة البيضاء ذات الباب الموصد مجرد واحات خضر في القفر الموحش ، ولئن لم تحو كترًا ما فإن ماءها وعشبها أغلى في الصحراء من كل الكنوز ! . وقد أورد الماشي تفاصيل رحلاته ونتائجها مع نص شهادة عبد الملك في كتاب نشرته الجمعية الجغرافية المصرية سنة ١٩٣٦ (١) .

على أن نظرية الماشي في أن وادي عبد الملك هو واحة زرزورة ليست متماسكة كل التماسك ، وأدلتها ليست فوق مستوى الشك . ولكن طالما ظل في الصحراء مرمى حجر غير مطروق فستبقى هنالك « زرزورة » وستبقى هناك « وبار » وسيوجد من الناس من يستهويه الوصول إلى المجهول الذي تطويه عنا رمال الصحراء .

أتلانتيس

للكثير من الأقاليم البشرية - على اختلاف حضاراتها وتباعد مناطق سكناها - روايات يتناقلونها عن مراكز عمران قديمة ازدهرت زمنًا ثم اختفت من الوجود وتلاشت آثارها ، وأصبح يستحيل الوصول إليها بل يتعذر تحديد موضعها على وجه الدقة . وهذه المآثورات الشعبية لا يُدرى أتنتمى إلى مجال الحقائق أم إلى مجال الأساطير ، وفي معظمها دلائل على أنها قد تكون من قبيل تجسيد معتقدات الناس من عصور ذهبية غابرة ، كانت فيها حياة الإنسان على الأرض أكثر رخاءً ، وأوفر سعادة مما هو عليه في حاضره الذي لا يرتاح إليه ويتطلع فيه إلى غايات يعلم في قرارة نفسه أنها لن تكون . وأشهر هذه المآثورات وألصقها بأذهان الناس وأكثرها حفظًا من اهتمامهم على مر القرون قصة « أتلانتيس » القارة المفقودة .

وقد وردت الإشارة إلى أتلانتيس أول ما وردت في كتابات أفلاطون إذ جاء في بعض محاوراته ^(١) خبر مؤداه أن صولون - حكيم أثينا ومشرعها - سمع بعض كهان المصريين عن وجود جزيرة كبيرة إلى الغرب من المضيق المسمى بأعمدة هرقل (جبل طارق) تفوق في حجمها آسيا وإفريقيا معاً ، وهي آية في خصوبة أرضها وغناها ، وكانت مقراً

(١) « تيموس » و « كريتياس » .

لدولة كبرى سيطرت على جميع ما في بحر الظلمات من جزائر ،
ثم أجمعت أمرها على غزو البلاد التي إلى الشرق من أعمدة هرقل ،
فتصدى لها الأثينيون ، وألحقوا بجيش أتلانتيس هزيمة نكراء ، وتصادف
في تلك الأثناء أن زلزلت أرض أتلانتيس زلزالها ، وطغت على الجزيرة
أمواج المحيط. فأغرقتها عن آخرها في يوم نحس واحد ، وليلة نحس واحدة ،
فلم يبق لها من أثر إلا مكان ضحل من المحيط ، يجعل الملاحة في تلك
المنطقة متعذرة ، وقد حدث ذلك قبل زمن صولون بتسعة آلاف سنة .

ويستطرد أفلاطون في موضع آخر فيشيد بحكومة أتلانتيس وملوكها
الذين بلغوا الغاية في بعد النظر وحسن تدبير الأمور ، ويسرد أسماء هؤلاء
الملوك شيئاً من تاريخ القارة كما رواه .

من هذه النواة الأولى نمت وترعرعت على مر القرون شجرة ضخمة
من الكتابات والبحوث ، حتى لقد أحصى ثلاثة من العلماء الألمان في
ثبت. أصدروه أسماء نحو من خمسة وعشرين ألف كتاب وبحث ومقال ،
كلها تدور حول أتلانتيس !

ولم ير جانب من الكتاب في قصة أتلانتيس غير رواية فلسفية عن
البلاد السعيدة والحكومة الصالحة ، مثلها مثل « أوتوبيا » وغيرها من
خيالات الفلاسفة الباحثين عن مؤهلات الحاكم الصالح ، ومقومات
المدينة الفاضلة . ومن هذا الرأي الفرنسي مارتان في تذييله لمحاورات أفلاطون ،
كما ذهب هذا المذهب أبو الجغرافيا الحديثة ألكسندر فون همبولت أيضاً .
غلى أن من الباحثين من أبى إلا أن يجد وراء القصة حقيقة واقعية ،
فتشبت الآراء في ذلك أيما تشعب ، وكان منها ما صبغته الإغراق في

الخيال ، ومنها ما يتسم بطابع الاعتدال وإن أعوزته البراهين القاطعة في صحته أو المرجحة لها .

فكان من الآراء الخيالية التي أبدت بشأن هذه « القارة المفقودة » رأى يربط بينها وبين القمر بأكثر من وجه واحد ، الأول ما قال به البعض من أن القمر إذا انفصل عن أمه الأرض إنما انفصل من منطقة المحيط الأطلسي ، وإنه ليس إلا قارة أتلانتيس ، وقد انتقلت من أرض البشر إلى سماء الملائكة ! والوجه الثاني لرأى من أبوا إلا أن يصلوا ما بين القمر وأتلانتيس - هو أن ذلك التابع الأمين للأرض بالغ في الاقتراب منها في بعض العصور القديمة ، فاضطربت بفعل جاذبيته مياه المحيط ، وابتلعت قارة أتلانتيس !

غير أن التطورات العنيفة في سطح الأرض من يابسة وماء قد انقضى عهدها منذ العصور الجيولوجية السابقة لظهور الإنسان ، مما لا يتصور معه وجود دولة عظمى في تلك القارة التي اختفت في يوم وليلة على وجه غير معهود في الظواهر الطبيعية ، منذ كان البشر على سطح الأرض . وليست قصة أتلانتيس بالوحيدة من نوعها في أساطير الشعوب الأوربية ، إذ نجد عند مختلف تلك الشعوب قديماً أفكاراً عن جزائر موجودة إلى الغرب ، أي في المحيط الأطلسي ، وهي دائماً مضرب المثل في الخصب والثراء وكأنها في أوهام تلك الشعوب الجنة على ظهر الأرض ، فمن ذلك ما كان يعتقد الإغريق عن « جزائر السعداء » وأهل ويلس القدماء عن جزيرة « أفالون » والبرتغاليون عن جزيرة أنتيليا . . إلخ . . . وقد كانت المصورات الجغرافية إلى القرن الخامس عشر تشير إلى مواقع هذه

الجزر الموهومة في رقعة المحيط الأطلسي إلى أن ثبت في العصور الحديثة بالدليل القاطع أنه ليس لها وجود . ونظير هذه الأوهام ما نجده عند بعض قدماء الجغرافيين العرب من إشارة إلى جزيرة التين المفترض وجودها في بحر الظلمات ، وبعد اكتشاف العالم الجديد أراد البعض أن يستشف في قصة أتلانتيس أثراً لمعلومات قديمة كان الناس يعلمونها عن أمريكا ، ثم طواها النسيان ، غير أن هذا الرأي ينقضه أن أمريكا لو كانت هي أتلانتيس لوجب ألا يكون لها اليوم وجود ؛ لأن أتلانتيس قد طواها اللج في يوم وليلة كما يقولون !

ولم يقنع باحث فرنسي هو « بريليو » Berilioux بكل هذا الخليط من الآراء التي إن تفرقت فإنها تجتمع عند وجود جزيرة طواها الماء ، فذهب هذا الباحث مذهباً فريداً مؤداه أن أتلانتيس إنما كانت دولة ازدهرت في منطقة جبال الأطلس الحالية ، وكان أهلها شعباً آريا هاجر إلى ذلك الجزء من شمال إفريقيا قادماً من أوربا ، وأنشأوا هنالك دولة اتسع سلطانها من السنغال جنوباً إلى الجزر البريطانية شمالاً ، ومن إسبانيا غرباً إلى شمال إيطاليا شرقاً ، وأن هؤلاء القوم هم بعينهم « الليبيون » الذين كانوا يشنون الغارة على حدود مصر الغربية والذين سيطروا في وقت ما على دلتا النيل إلى أن طردهم المصريون بقيادة رمسيس الثاني .

ويشير بريليو إلى أن الآثار المصرية تصور هؤلاء الليبيين بيض الوجوه ، صفر الشعور ، زرق العيون ، مما يؤيد رأيه في أصلهم الآري ، ويذهب صاحب هذا الرأي إلى أن الأبحاث الأثرية التي يصح أن تجري في المستقبل في المغرب ستكشف عن آثار تلك الدولة العظيمة التي لا تزال

مخبوءة تحت الركاب ! ولا كان لا موضع في هذه النظرية للجزيرة التي أغرقها المحيط فإن صاحبها يضيف أن من المرجح أن جزيرة ساحلية تابعة لدولة أتلانتيس قد اختفت تحت سطح الماء لأسباب طبيعية اجتمعت عليها ، وأن غرق تلك الجزيرة الصغيرة يجعل الأسطورة أقرب إلى التصديق ، لأنه أقوى احتمالاً من غرق قارة برمتها .

وبعد فترة من الزمن بدا فيها وكأن الناس قد انصرفوا عن موضوع أتلانتيس - ولعلهم شغلوا عنه وعن غيره بأحداث الحرب العالمية الثانية وما تلاها - لم تلبث الكتب والبحوث المتعلقة بالقارة المفقودة أن عادت إلى الظهور بمثل كثرتها الأولى ، وأهم النظريات الجديدة في هذا الشأن اثنتان .

النظرية الجديدة الأولى قال بها عالم ألماني ، هو القس يورجن سبانوت الذي يزعم أنه عثر على بقايا عاصمة أتلانتيس في قاع بحر الشمال ، وهو موقع جديد ، إذ لم يسبق فيما نعلم أن أحداً من الباحثين ذهب إلى أن أتلانتيس كانت في بحر الشمال ، وقد نشر سبانوت كتابه المعنون « العثور على أتلانتيس » سنة ١٩٥٣ .

وأساس نظرية هذا العالم الألماني تصحيح ما يقول إنه خطأ في الفهم ، أو في الترجمة ، تسرب إلى ما رواه أفلاطون ، فقد نسب إلى أفلاطون أن اختفاء أتلانتيس يرجع إلى ما قبل زمن صولون بتسعة آلاف سنة ، وهذا التوقيت الموغل في القدم يتناقض مع وقائع معينة جاءت في رواية أفلاطون ، منها : وجود المدن الإغريقية ، ومن بينها أثينا ووجود الدولة المصرية ، واستعمال البرونز ، وبدء استعمال الحديد ، فكل هذه الظواهر لم تكن

موجودة في ذلك الماضي السحيق ، وإذن لابد أن في الأمر خطأ يرجع إلى استبدال كلمة سنة بكلمة شهر في النقل ، أو في الترجمة من المصرية إلى الإغريقية ، ويؤيد سبانوت هذا النظر بأن التوقيت بالشهور كان شائعاً لدى قدماء المصريين ، وهم الذين سمع منهم صولون تلك القصة ، وعنه نقلها أفلاطون ، وعلى هذا الأساس يمكننا أن نضع اختفاء أتلانتيس في وضعه الزمني الصحيح ، فنرجعه إلى حوالي سنة ١٢٠٠ ق . م .

ويعتمد المؤلف إلى نقطة أخرى في رواية أفلاطون أثارت الشكوك حول صحة قصة أتلانتيس ، هي قوله : إن أتلانتيس كانت أكبر من آسيا وإفريقيا معاً ، ويقول سبانوت في تفسير هذه النقطة إن الكلمة الإغريقية التي ترجمها المترجمون بمعنى الأكبر حجماً تحمل معنى آخر ، هو أن أتلانتيس كانت أعظم قوة وأعلى شأنًا من دول آسيا وإفريقيا معاً ، وهو يرجح هذه الترجمة ، وينفي بذلك عن رواية أفلاطون صفات المبالغة والخيال .

ثم يستعرض المؤلف حوادث التاريخ الثابتة في ذلك العصر ، أي حوالي سنة ١٢٠٠ ق . م ، فيوضح أن الموطن الأصلي للشعوب الشمالية (وهو يشمل الساحل الشمالي لألمانيا والدانمرك وجنوب إسكندناوة) قد تعرض في تلك الفترة لكوارث طبيعية هائلة من زلازل وزوابع وفيضانات ، كما أن مستوى سطح بحر الشمال نفسه قد ارتفع في تلك الفترة ارتفاعاً محسوساً نتيجة زيادة ذوبان الثلوج الشمالية بسبب ارتفاع متوسط درجة الحرارة ، فكان من نتيجة ذلك كله أن اختفت تحت الماء جزر برمتها ، كما طغى البحر على مساحات كبيرة من اليابسة ، ودمرت بلاد كثيرة

بفعل الزلازل ، فكان أن هجرت الشعوب الشمالية (النوردية) موطنها ، وهذا يعرف في التاريخ باسم الهجرة الكبرى ، وتدفقت جحافلهم على أوربا ، فاليونان ، فآسيا الصغرى ، فسوريا ، ومنهم من استوطنوا بعض البلاد التي مروا بها ، كما أن قواتهم أخضعت جميع مدن اليونان - عدا أثينا - ولم تقف إلا على حدود مصر ، كما تدل على ذلك أوراق البردى والنقوش المصرية .

وبعد دراسة مستفيضة للبرديات المصرية والنقوش ، وخاصة ما يوجد منها على جدران المعبد المعروف باسم مدينة هابو بالأقصر ، ينتهى سبائوت إلى أن أهل أتلانتيس هم بعينهم الغزاة الذين صدهم رمسيس الثالث على سواحل مصر الشمالية ، وهم المعروفون في التاريخ المصرى باسم « شعوب البحر » وتمثل نقوش مدينة هابو المعارك البحرية التي دارت بين الأسطول المصرى وأسطول الغزاة الذين تصورهم النقوش في أشكال قريبة من مميزات الجنس النوردى ، كما تصور لباسهم وأسلحتهم تصويراً يطابق ما عثر عليه المنقبون في الأقطار النوردية من آثار ذلك العصر .

وهكذا ينتهى المؤلف إلى أن قصة أتلانتيس إنما ترمز إلى المملكة النوردية القوية التي كانت قائمة في القرن الثانى عشر قبل الميلاد وما قبله في شمال ألمانيا وجنوب إسكندناوة . والتي هاجر أهلها في جماعات كبيرة إلى الجنوب الشرقى نحو داخل أوربا فآسيا ، عقب الكوارث التي اجتاحت وطنهم ، ودمرت مدنهم .

أما عاصمة تلك المملكة المتسعة الأرجاء ، فقد كانت في جزيرة من جزر بحر الشمال يذكرها أفلاطون باسم « بازيليا » ، وينتهى المؤلف

بعد بحث دقيق للأوصاف والإشارات التي تضمنتها رواية أفلاطون ، إلى تحديد موقع تلك الجزيرة المخفية إلى الشرق من جزيرة هليجولاند الصغيرة ، أى بينها وبين ساحل الدانمرك ، وقد تأيد عنده هذا الظن حينما لاحظ أن بحر الشمال فى هذه المنطقة ضحل جداً ، وأن عمقه فى بعض الأماكن لا يزيد على تسعة أمتار ، فقوى فيه الأمل فى العثور على آثار عاصمة المملكة الأتلانتيّة فى تلك البقعة .

وفى يوليو سنة ١٩٥٢ توجه سبانوت إلى هناك فى سفينة تحمل بعض الغواصين ، وبها كل ما يلزم من الأجهزة العلمية ، ويصف لنا المؤلف كيف أن بعثته وجدت بقايا أسوار وأتربة ضخمة ، وأطلال مبانٍ تطابق ما جاء فى محاورات أفلاطون من وصف لعاصمة أتلانتيس .

هذه خلاصة مركزة لهذا الجهد البالغ الذى ينطق به كتاب يورجن سبانوت ، وأن القارئ ليعجب حقاً بتلك الدقة الباهرة فى تتبع أصغر التفاصيل ، وتلك المهارة الظاهرة فى ربط بعض الخيوط إلى بعض ، حتى يستوى منها نسيج ملتئم ، ولا شك أن سيكون للمختصين من المؤرخين ورجال الآثار قولهم فى نظرية العالم الألمانى ، على أنها إن صحت فلن تكون المثال الأول لكشف تاريخى عظيم أدى إليه تتبع النصوص الأدبية القديمة ، فما زال دارسو التاريخ يذكرون كيف اكتشف هنرى شليمان آثار طروادة عند قرية حصارليك التركية سنة ١٨٧٢ مسترشداً فى تحديد ذلك الموقع بأشعار هوميروس فى الإلياذة والأوديسة .

أما النظرية الجديدة الثانية فقد دارت بها قصة أتلانتيس دورة كاملة فى المكان غير ألفين وثلاثمائة من السنين ، فقد رأينا أن القصة بدأت فى

بلاد اليونان على يد أفلاطون في القرن الرابع قبل الميلاد ، ثم نحن نرى هذه النظرية الجديدة مجيئنا من اليونان كذلك على يد إنجيلوس جالانوبولوس وهو من علماء طبيعة الأرض المتخصصين في الزلازل والبراكين ، وقد نشر كتابه المعنون « أثلانتيس : الحقيقة وراء الأسطورة » سنة ١٩٦٩ ، واشترك معه في تأليفه الكاتب الأثرى الإنجليزي إدوارد بيكون .

تقوم نظرية جالانوبولوس على أساس نتائج الحفريات والأبحاث التي أجراها الأثرى اليوناني سبيريدون ماريناتوس في الثلاثينات من هذا القرن وما بعدها في جزيرة صغيرة في بحر إيجه إلى الشمال من كريت هي جزيرة تيرا (وتسمى سانتورين أيضاً) ، فقد أثبتت تلك الحفريات أن الجزء الأوسط من تلك الجزيرة قد نسفه انفجار بركاني مروع ، وقع حوالي سنة ١٥٠٠ قبل الميلاد طغت على أثره مياه البحر على ذلك الجزء من الجزيرة ، بحيث أصبحت على ما هي عليه الآن ، أى على شكل هلال تتوسطه بعض الجزر الصغيرة المتناثرة التي هي كل ما تبقى من الجزء الذي ابتلعه البحر . كذلك دلت الحفريات على أن تيرا كانت قبل تلك الكارثة العظمى أحد مواطن الحضارة المينوية التي كان مقرها جزيرة كريت القريبة ، وقد كانت الدولة المينوية تضم كريت وعدداً من الجزر الأخرى إلى شمالها في بحر إيجه ، وتستطرد النظرية قائلة : إن أثر ذلك الانفجار البركاني امتد إلى كريت نفسها ، بسبب الموجات الزلزالية الضخمة التي تعقب أمثال تلك الهزة الأرضية العنيفة ، والتي تدفع بمقادير هائلة من مياه البحر مسافات بعيدة ، لا تعتبر السبعون ميلاً التي تفصل تيرا عن كريت بالنسبة إليها شيئاً مذكوراً ، وقد تصل

سرعة تلك الموجات الهائلة إلى ٢٠٠ ميل في الساعة فتكون إذن قد وصلت من تيرا إلى سواحل كريت في أقل من نصف ساعة ، كما قد يبلغ ارتفاع تلك الموجات ٣٠٠ قدم مما يجعل لها قوة تدمير مروعة ليس من السهل تصورها . وهكذا طغت تلك الموجات على مراكز الحضارة المينوية في كريت فقضت عليها فجأة « في يوم واحد وليلة واحدة » ، وهذا التفسير لزوال الحضارة المينوية بغتة هو الذى يقبله الآن معظم العلماء المتخصصين بعد أن كان رأى السائد أن ذلك الانقضاء المفاجئ لحضارة كريت كان نتيجة غزو الآخيين ، القادمين من البر اليونانى الكبير ، للدولة المينوية .

تلقف جالانوبولوس نتائج الحفريات والأبحاث الأثرية المشار إليها وبنى على أساسها نظريته عن أتلانتيس ، وقد بدأ بتفنيد النظريات السابقة التى تجعل موقع أتلانتيس فى أجزاء أخرى من العالم ، وبخاصة المحيط الأطلسى الذى يثبت المؤلف بأدلة مستمدة من علم طبيعة الأرض أنه من المستحيل أن تكون قد وجدت فيه فى الأزمنة التاريخية مساحة كبيرة من اليابسة هبطت من بعد إلى قاع المحيط . ثم يحلل المؤلف النصوص الأفلاطونية الخاصة بأتلانتيس ، وينتهى من دراسته لها إلى أن ما يسميه أفلاطون « العاصمة القديمة » لدولة أتلانتيس وما يسميه « المدينة الملكية » كانتا فى مكانين مختلفين ، ثم يورد الأدلة التى تثبت فى نظره أن العاصمة القديمة كانت فى وسط جزيرة تيرا ، وأن المدينة الملكية والسهول الزراعية المحيطة بها والتى وصفها أفلاطون كانت فى جزيرة كريت .

أما الصعوبة الناشئة عن كون اختفاء أتلانتيس فى أعماق البحر

يرجع في رواية أفلاطون إلى تسعة آلاف سنة سابقة على زيارة صولون لمصر التي سمع فيها من كهان سايس (صان الحجر) قصة أثلانتيس ، فتعالجها هذه النظرية عن طريق اقتراض حدوث خطأ في ذلك الرقم بزيادة صفر فيه ، فالمقصود هو ٩٠٠ سنة لا ، ٩٠٠٠ سنة ، ولما كان صولون قد زار مصر في سنة ٦٠٠ قبل الميلاد فإن ذلك يرجع بتاريخ الكارثة التي أودت بأثلانتيس إلى سنة ١٥٠٠ قبل الميلاد ، وهو تاريخ يتفق وزمن انفجار بركان تيرا ، ودمار مراكز الحضارة المينوية في كريت بفعل الموجات الزلزالية التي أعقبته .

تبقى الصعوبة الأخرى الناشئة عن الإشارة لدى أفلاطون إلى كون أثلانتيس كانت تقع إلى الغرب من أعمدة هرقل التي يعتبرها الجمهور هي ومضيق جبل طارق شيئاً واحداً ، ويشكك جالانوبولوس في كون أعمدة هرقل التي كان يذكرها الإغريق القدماء هي نفسها مضيق جبل طارق ويرجح - بالرجوع إلى أسطورة هرقل في الميثولوجيا الإغريقية وأدلة أخرى - أن تكون أعمدة هرقل تلك اسماً كان يطلق على ممر ملاحى بين صخور واقعة في مكان من بحر إيجه طوى ذكره الزمان .

وهكذا نجد أن قصة أثلانتيس طبقاً لهذه النظرية رمز لزوال الدولة المينوية من كريت ، والجزر التابعة لها في تلك الكارثة الضخمة من كوارث الطبيعة التي وقعت حوالى سنة ١٥٠٠ قبل الميلاد . والجهد الذى بذله جالانوبولوس ومن قبله ماريناتوس جهد قيم ولا شك ، وبراعة أولهما في نسج خيوط نظريته لا يمكن إنكارها . على أن اليقين لا يزال فيما أعتقد بعيداً عن قصة أثلانتيس ، فالحجج والأدلة التي تساق تأييداً لهذه النظرية

هى مثل أسانيد معظم النظريات الأخرى مؤدية إلى مجرد الاحتمال ، أو على أحسن الفروض إلى الترجيح دون القطع واليقين ، ثم تبقى فى النفس أشياء من بعض نواحي هذه النظرية ، أهمها أن نسبة القصة عند أفلاطون إلى كهان المصريين القدماء أمر غير مفهوم إذا صح أن أتلانتيس كانت هى فعلاً تيرا وكريت ، فقد كان جديراً إذن أن تعى ذاكرة الشعوب الإغريقية نفسها ذلك الحدث الهائل الذى حلّ بأحدها على تلك المسافة القريبة من بر اليونان الكبير ، لا أن يكون حديثاً مجلوباً إلى اليونان من مصر ، مصدره الأول الوحيد كهان مدينة سايس المصريون .

وبعد فمما لا شك فيه أن الكلمة الأخيرة فى قصة أتلانتيس لم تقل بعد ، وأن الناس ظلّوا مفتونين بهذه القصة زمناً طويلاً ، كما أولعوا بها وشغلوا أنفسهم بتفسيراتها ، وبأدلة ثبوتها طوال القرون الماضية منذ أن بدأت القصة على يد أفلاطون ، ولعل الغموض والإبهام المحيطين بأتلانتيس هما سبب اجتذاب أفئدة الناس إليها ، ولعل النظريات المختلفة بشأن أتلانتيس قد أضافت إلى أسرارها أسراراً جديدة بدلاً من أن تكشف عن حقيقتها النقاب ، ومن يدرى لعل الناس أميل إلى إطلاق عنان أخيلتهم فى اختراق حجب الغموض والإبهام منهم إلى تقييد تلك الأخيلة بقيود الوضوح واليقين ، وقد يماً قال بعض متصوفينا : سعيك فى إدراك الشئ أكبر حظاً فى اللذة من إدراكه .

آخر أسرار « القارة المظلمة »

أطلال زمبابوى

كانت إفريقيا تنعت فى اللغات الأوربية بالقارة المظلمة ، وهونعت بصورندرة ما كان يعرفه العالم عن هذه القارة إلى وقت غير بعيد ، ويعكس معنى الغموض والأسرار التى كانت تغلف إفريقيا وكل ما يتصل بها فى أذهان الناس .

ولئن كانت الاكتشافات الكبرى التى تابعت فى القرن الماضى قد أزاحت الستار عن معظم ما كان مجهولاً من أمور هذه القارة إلا أنها ظلت تخفى بعض الأسرار التى كانت تحير الباحثين وتستعصى على الحل إلى وقت قريب .

ولعل أطلال زمبابوى هى أهم هذه البقية الباقية من أسرار القارة المظلمة ، وهى تقع فى جنوب شرق إفريقيا فى الإقليم الذى يسميه الوطنيون الأفارقة المكافحون لتحريره بالاسم نفسه « زمبابوى » ، وتسميه حكومة الأقلية البيضاء « روديسيا » .

وتقع هذه الأطلال على خط العرض ٢٠ جنوباً بالقرب من نهر

سابى .

ولفظ « زمبابوى » مزيج من كلمتين معناهما « بيوت الحجارة » بلغة البانتو التى تتكلمها قبائل هذه المنطقة ، وهو اسم على مسمى ، إذ أن

هذه الأطلال عبارة عن بقايا مبان حجرية ضخمة تقع في منطقة مساحتها ستون فداناً تقريباً ، يحيط بها جميعاً سور هائل من الحجارة الكبيرة يبلغ أقصى ارتفاعه ثلاثين قدماً ، ويتراوح سمكه بين عشر أقدام عند قاعدته ، وسبع أقدام في أعلاه . وفي داخل هذا السور البيضاء الضخم أطلال مبان عديدة ، أهمها برج مرتفع يبدو أنه كان مخصصاً للمراقبة والدفاع ، وجميع هذه المباني مقامة من أحجار كبيرة مترابطة لا يدخل في بنائها شيء من الملاط .

وقد لفتت هذه الأبنية الفريدة الأنظار منذ أن سمع بها المستعمرون البرتغاليون في القرن الخامس عشر لكونها - لبنائها من الحجر ، ولضخامتها ولتصميمها الخاص - غريبة عن كل ما هنالك من منشآت في إفريقيا السوداء كلها ، وأصبحت زمبابوى محطاً لرحال العلماء من رجال الآثار والمستكشفين منذ النصف الثاني من القرن الماضي ، وبرغم كثرة ما كتبه الباحثون وأدلى به العلماء لم يصل العلم إلى رأى حاسم بشأن هذه الأطلال إلا بالأمس القريب . وهكذا كانت زمبابوى من المشكلات المكدودة التي وقف إزاءها علم الآثار الحديث عاجزاً عن الوصول إلى حقيقتها أمداً طويلاً .

وتفرقت الآراء التي أبدت بشأن زمبابوى ثلاث فرق :

فريق من الباحثين يرى أن هذه الأطلال موهلة في القدم ، وأنها ليست من آثار سكان إفريقيا الأصليين ، ولذا فهم يرجعونها في الزمان إلى حوالي ألف سنة قبل ميلاد المسيح ، وينسبونها إلى الدولة السبئية ، وهي من دول العرب البائدة التي كانت لها حضارة مزدهرة في ربوع اليمن

منذ القرن العاشر قبل الميلاد حتى قبيل الإسلام ، ويقول أنصار هذا الرأي : إن عرب الجنوب القدماء كانت لهم صلات بهذا الجزء من القارة الإفريقية ، يعبرون إليها المحيط بسفنهم الشراعية مستعينين بالرياح الموسمية لكي يستغلوا مناجم الذهب التي كانت تزخر بها هذه المنطقة ، ولكي يستجلبوا منها الأخشاب العطرية والبهارات التي كانوا يحتكرون تجارتها في العصور القديمة ، ولحماية مستعمراتهم في منطقة التعدين ورعاية مصالحهم التجارية . أقام السبثيون هذه التحصينات القوية التي ما زالت بقاياها حتى اليوم تتحدى الزمن ولا تعبأ بالمناخ ولا بالأحراش ، وهما في هذا الجزء من إفريقيا لا يبقيان على شيء .

وأول من نادى بهذا الرأي الباحثة الإنجليزية (بنت) الذي ظهر كتابه « مدن ماشونالاند المخربة » في سنة ١٨٩٢ ، ولم يعدم هذا الرأي سنداً في أعمال العالمين الألمانين رايتتر ، وفون فيسمان اللذين قاما بالتنقيب عن آثار الدولة السبثية في اليمن قبل الحرب العالمية الثانية ، فقد أثبت هذان الأثريان ما لاحظاه من أوجه الشبه بين الآثار السبثية وبين أطلال زمبابوى من حيث الأوضاع المعمارية (وخصوصاً السور البيضاضوى أو الدائرى لا المربع أو المستطيل) .

والفريق الثانى من العلماء وعلى رأسه الإنجليزي (هول) يوافق الفريق الأول فى أن هذه الأطلال عريقة فى القدم وفى أنها من صنع قوم طارئى على إفريقيا ، غير أن أصحاب هذا رأى الثانى يرجعون هذه الآثار إلى الفينيقيين - ذلك الشعب السباق إلى جوب البحار فى العصور القديمة - ويرون أن الفينيقيين هم الذين كانوا يستغلون مناجم الذهب الإفريقية

في هذه المنطقة ، وأنهم هم الذين أقاموا هذه الاستحكامات والمباني لأغراض الإقامة والحراسة والدفاع ، ومن أصحاب هذا الرأي من يرى أن لقدماء المصريين صلة بأطلال زمبابوى ، لأن الفراعنة كانوا يستعينون في رحلاتهم البحرية الطويلة بملاحين وربابنة من الفينيقيين ، ويستشف هذا الفريق من العلماء في مباني زمبابوى تأثيرات فينيقية وفرعونية معاً ، ويذهبون في استنتاجهم إلى أبعد من ذلك ، فيقررون أن هذه البقعة من جنوب شرق إفريقيا هي نفسها بلاد « بونت » الشهيرة لدى قدماء المصريين ، وهي البلاد التي سجلوا على آثارهم رحلاتهم البحرية إليها ، وكانوا يستجلبون منها الأخشاب العطرية التي تستعمل بخوراً في معابد آلهتهم ، كما كانوا يستجلبون منها الذهب . وقد كانت بلاد « بونت » هذه - برغم حقيقة وجودها - أن تصبح أسطورة لكثرة ما تضاربت آراء المؤرخين ورجال الآثار في موقعها ، فمنهم من يرى أنها هي نفسها اليمن وما جاورها من جنوب بلاد العرب ، وأخيراً يرى غيرهم أنه لا يبعد أن تقع بلاد بونت في جنوب شرق إفريقيا حيث أطلال زمبابوى ، خاصة وقد ثبت أن قدماء المصريين - ربما بمساعدة الملاحين الفينيقيين - قد أتموا الرحلة بحراً حول إفريقيا في عهد الفرعون نخو الثاني (سنة ٦٠٩ - ٥٩٤ قبل الميلاد) وقد أشار إلى هذا العمل الجليل المؤرخ هيرودوت ، وإذن فلا يستبعد أن يكون قدماء المصريين قد وصلوا إلى ما عرف من بعد بروديسيا الجنوبية وأن تكون تلك البلاد نفسها هي « بونت » .

والفريق الثالث من العلماء الذين تناولوا بالبحث أطلال زمبابوى ينكرون أن تكون هذه الآثار موغلة في القدم ، كما لا يسلمون بأنها من

صنع شعب غير إفريقي ، فعندهم أن هذه الأطلال لا يرجع عهدها إلى أبعد من القرون الوسطى ، أو على الأكثر إلى القرن الثامن الميلادى ، كما أنهم يرون أنها من آثار دولة زنجية قوية قامت فى هذه البقاع فى الفترة المشار إليها ، وليست من صنع أقوام من خارج إفريقيا جاءوها مستعمرين لاستغلال مناجمها وخيراتها . وقد نادى بهذا رأى فى أوائل هذا القرن الإنجليزى راندال ماك إيفر ، وأيدته الرحالة مس كاتون - طومسون التى رأت فى سنة ١٩٢٩ بعثة إنجليزية إلى زمبابوى ، وأوردت فى كتابها « حضارة زمبابوى » الذى صدر سنة ١٩٣١ الأدلة على هذا الرأى وأهمها :

وجود قطع من الخزف الصينى وعقود الخرز المستوردة من إندونيسيا أمكن حصر تواريخ صنعها واستيرادها فيما بين القرن الثانى عشر والقرن السادس عشر الميلاديين . كذلك عثر فى الحفريات التى جرت فى الخمسينات من هذا القرن على قطع خشبية فى الطبقة الأرضية التى تقع بها أساسات السور البيضاء الضخم ، وأمكن باستعمال طريقة الكربون المشع إرجاع تاريخ تلك الأخشاب إلى الفترة نفسها ، وبذلك ثبت يقيناً أن زمبابوى بنيت فى العصر الوسيط ، وأن بناءها لا يرجع إلى ما قبل ميلاد المسيح فى عصر السبثيين أو الفينيقيين ، وثبت بذلك - أيضاً - أن بناء زمبابوى كانوا من أهل البلاد الأصليين ولم يكونوا من القادمين إليها للغزو أو للتجارة فى العصور القديمة .

أما الحجة المستمدة من طراز الأبنية المعمارية فقد دحضها العلماء بالإشارة إلى أن زمبابوى ليست إلا صورة مكبرة لحظيرة رئيس القبيلة الإفريقى التى يضمها سور بيضاوى ، وتحتوى مسكنه وأكواخ زوجاته وسائر

مرافق معيشتة ، وإن كانت قد بنيت لا من الطين والقش ولكن من حجارة الجرانيت التي يكثر وجودها في ذلك المكان ، وإذن فليس في تصميم زمبابوى شيء ليس معهوداً في الحضارة المحلية يتعين - كما فعلت النظريتان السابقتان - افتراض أنه دخيل عليها جلبه من الخارج قوم قدموا من بلاد بعيدة .

ويشير أنصار النظرية الإفريقية فيما يتعلق بأصل زمبابوى إلى أن إقامة المباني من الحجارة لم تكن مجهولة لدى الأفارقة كما كان يذهب إليه أنصار النظرية السبئية أو النظرية الفينيقية ، ففي ذلك الجزء من إفريقيا مبان قديمة أخرى من الحجارة ، وإن كانت أصغر حجماً وأقل إتقاناً من زمبابوى .

والخبراء متفقون الآن على أن أطلال زمبابوى من بناء دولة ، أو اتحاد قبائل إفريقية قام في تلك البقعة من القارة فيما بين القرن الثاني عشر والقرن الثامن عشر الميلاديين . ويضيفون أن زمبابوى ظلت بعد زوال الدولة التي أقامتها مقراً للطقوس الدينية التي كانت تمارسها قبائل الشونا حتى القرن التاسع عشر .

وقد كان بناء زمبابوى يقومون باستخراج الذهب من مناجمه الكثيرة في تلك الأصقاع ويتاجرون فيه مع المراكز التجارية العربية ثم البرتغالية على ساحل المحيط الهندي ، فأثروا من ذلك وازدادوا قوة بما مكنهم من إقامة تلك الأبنية الضخمة الفريدة مقراً لحاكم تلك الدولة أو ذلك الاتحاد ، ومركزاً لتجارتهم في الذهب وفي غيره من منتجات القارة التي كانوا يبيعونها في مراكز التجارة الساحلية ، وبخاصة سفالة التي هي أقرب تلك المراكز

التي أقامها العرب على شاطئ إفريقيا الشرق ، وتقع إلى الشرق من زمبابوى على بعد ٢٥٠ ميلاً تقريباً .

وهكذا استقرت مشكلة أصل أطلال زمبابوى ، وهوية بناتها ، وعصر إنشائها في مستقرها التاريخي الصحيح ، وكشفت النقاب بذلك عن سر لعله آخر الأسرار التي تخفيها القارة التي كانت تنعت بالمظلمة ، وإياه لما لا يخلو من عظة أن يثبت أصل زمبابوى الإفريقى ، وأن تقوم تلك الآثار دليلاً على ازدهار حكم وطني أصيل في تلك البلاد في العصور الوسطى في حين يحتدم في هذه الآونة الصراع بين أهل البلاد - الذين اتخذوا من اسم تلك الأطلال اسماً لحركتهم التحريرية ، بل للإقليم الذي يريدون أن يحرروه - وبين حكومة الأقلية البيضاء المستعمرة التي تمثل هي وحليفتها حكومة جنوب إفريقيا العنصرية البقية الباقية من الاستعمار الغربى المنحسر عن القارة الإفريقية .

الفهرس

صفحة	صفحة	
٧٨	٧	أدب :
١٠٢	١٦	خواطر مسافر . . .
١١٧	٢٣	زلة شوقية . . .
١٣٦	٢٩	الرثاء في شعر حافظ إبراهيم .
١٤١	٤١	دور البارودي في الثورة العربية
١٥٥		مسرحية « محمد » لفولتير .
١٧٩		تاريخ :
	٤٩	أمير الشرق . . .
١٩٣	٥٥	إمبراطور عربي على عرش روما
٢٢١		الأهرام في كتب المؤرخين العرب
٢٣٣	٧٠	وحل رموز الهيرغليفية . . .
		استكشاف :
		من أسرار الصحراء . . .
		أتلانتيس . . .
		أطلال زمبابوي . . .

١/٧٧/٧٥

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)

Page 10



Cing

